أصول الوصول
إلى معية الرسول

تأليف

الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم

الإهداء

إلى شقيقتى الكبرى..

إلى الروح الطاهرة والنفس المطمئنة..

إلى قدوة النساء كما أرادها الإسلام..

السيدة عنايات أحمد ماضى أبى العزائم

رغم إنى عشت معكِ سنوات قلائل، فقد التحقتِ بالرفيق الأعلى وعمرى خمس سنوات، إلا أن مآثركِ وأخلاقكِ الفاضلة التى سمعت عنها من الأسرة العزمية ومن آل العزائم جعلت ذكراكِ نوراً يستضاء به لمن كان له قلب..

يا نعم الزوجة، ونعم الأخت، ونعم الابنة، يا شهيدة آل العزائم، يا من صدقتِ عهدك مع الله، فبرزت فيكِ السمات الباهرة، وتألقت من خلالكِ الصفات العظيمة للإمام أبى العزائم عليه السلام.. فأصالتك المتفوقة، وعظمتكِ السامقة، لم تتبدل حتى لقيتِ ربكِ فى شوق عظيم، وذهبت روحكِ الطاهرة تسعى، والبشير ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يدعوها من الرفيق الأعلى: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾.

محمد علاء الدين أبو العزائم

شيخ الطريقة العزمية ورئيس الإتحاد العالمي للطرق الصوفية

يابُنَيَّ..

من عامل الناس بأعمالهم، عامله الله بعمله فأهلكه، ومن عامل الله في الناس، عامله الله بما هو أهل له من المغفرة، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

خويدم الفقراء

محمد ماضي أبو العزائم

أصول الوصول إلى معية الرسول

هذا الكتاب الهام يتناول فيه الإمام أبو العزائم ﷺ ما يغنى السالك المريد الدار الآخرة، المقبل على الله تعالى من أمور العقيدة والعبادة والمعاملة.

وهذا الكتاب يحتوى على فاتحة وثلاثة أبواب:

الباب الأول: التعريف بالعقيدة وفقه شهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَّداً رسول الله، وفضائل النطق بها.

الباب الثانى: يشرح فقه العبادات باعتبارها النظم التى شرعها الله ليأخذ بها المسلمٍ نفسه فى علاقته بربه، وسبيلها أداء الأركان الأساسية من صلاة وزكاة وصيام وحج.

الباب الثالث: يعرف أحكام الدين الإسلامى فى المعاملات والأحوال الشخصية، فإذا عرف المسلم أحكام دينه فى البيع والشراء والزواج واستبانت له سماحة الإسلام، مع دقته فى التشريع وإحاطته بكل صغير وكبير، مما يجرى فى المعاملات بين جميع طوائف البشر، ومما يتضاءل بإزائه تشريع جميع المشرعين من غربيين وشرقيين، دعته عظمته وحملته دقته وسماحته إلى الأخذ به والتعويل عليه.

ودار الكتاب الصوفى إذ تقدم هذا الكتاب الهام تدعو الله مخلصة أن ينفع به المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها.. وأن يجمعهم تحت راية إمام عصرهم وخاتم ورثتهم.. وهو حسبنا ونعم الوكيل.. نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

فاتحة الكتاب

الحمد لله شرع الإسلام فسهل شرائعه لمن ورده، وأعز أركانه على من غالبه، فجعله أمناً لمن علقه، وسلماً لمن دخله، وبرهاناً لمن تكلم به، وشاهداً لمن خاصم به، ونوراً لمن استضاء به، وفهماً لمن عقل، ولباً لمن تدبر، وآية لمن توسم، وتبصرة لمن عزم، وعبرة لمن اتعظ، ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل، وراحة لمن فوض، وجُنَّة لمن صبر.

التصديق منهاجه، والصالحات مناره، والموت غايته، والدنيا مضماره، والقيامة حلبته، والجنة سبقته.

والصلاة والسلام على شمسك المضيئة لكل الشموس، وغيثك المفاض من عيون ألطافك لتزكية النفوس سيدنا ومولانا مُحَمَّد.. اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله أجمعين.. وبعد:

تقدم دار الكتاب الصوفى هذه الطبعة الجديدة من كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول)، وقد تميزت هذه الطبعة بأن قسمت الكتاب إلى جزئين، الجزء الأول يشتمل على العقيدة والعبادة والمعاملة. والجزء الثانى يشتمل على الأخلاق وهو موضوع علم التصوف.

وتميز الجزء الأول بأن أضيف إليه كتاب (صيام أهل المدينة المنورة) وكتاب (هداية السالك إلى علم المناسك) وبعض الموضوعات من كتب الإمام عليه السلام المختلفة، والتى تخدم العبادات، وتجمع بين الحكم والحكمة.

وتميز أيضاً بأن أشير إلى بعض آراء المذاهب الأخرى- بخلاف المالكية التى أملى الإمام أبو العزائم هذا الكتاب على فقههم- كالشافعية والحنابلة والأحناف فى هامش الكتاب.

وتميز بأن تم شرح بعض العبارات الصعبة، وتحديث بعض النصوص لتتلاءم مع روح العصر الذى نعيشه فى الهوامش أيضاً.

وقد تناول الجزء الأول ثلاثة أبواب:

الباب الأول: فى التعريف بالعقيدة، وفقه شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا ومولانا مُحَّداً رسول الله ﴿ﷺ﴾، وفضائل النطق واليقين بها.

الباب الثانى: فى فقه العبادات وهى النظم التى شرعها الله ليأخذ المسلم بها نفسه فى علاقته بربه، وسبيلها أداء الواجبات الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج.

الباب الثالث: فى فقه المعاملات، من عقود التمليكات، وعقود الإطاقات، وعقود الشركات، وعقود التأمينات، والزواج وعشرة النساء، والطلاق والرجعة.. وغير ذلك.

وفى خاتمة الكتاب أقدم شكرى للأستاذ عبد الرازق العسقلانى لمساهمته المادية الكبيرة فى طباعة هذا الجزء من الكتاب، والله أسأل أن يبارك فى ماله وأهله، وأن يخلف عليه أضعافاً كثيرة.

كما أقدم خالص شكرى وتقديرى للأخ عبد الحليم العزمى على الجهد الكبير الذى بذله فى هذا الكتاب.. والله أسأل أن يوفقه إلى عمل الخير وخير العمل دائماً أبداً.

نفعنا الله بعلوم إمامنا وأسراره ومدده، وجمعنا معه على سيدنا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فى الدارين، وأبتهل إلى الله تعالى أن يمدنى بالتوفيق، ويلحظ عملى بعين القبول.. إنه حميد مجيد.

الباب الأول

الأصول التى يلزم أن يعتقدها المؤمن

إعلم أن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا يتعلمون من رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾الإيمان، ثم يتعلمون القرآن ، فيكون القرآن هو الحجة البالغة الذى ينزل إليه الغالى ويلحق به المتهاون، وقد جاء القرآن مبينا أصول الدين التى هى العقائد الواجب التصديق بها، مقررا لتلك العقائد بالحجج النظرية، والبراهين الحسية، بحيث إنه لم يصدم العقل عند تقرير أى أصل من أصول التوحيد، بل أقام الحجج والبراهين القوية، على أنه سبحانه وتعالى أبدع الكون إنشاء على غير مثال سبق ولا مادة، حتى اطمأنت القلوب وسلمت العقول.

ثم أطلق سبحانه للعقول العنان فى أن تفكر فى آياته الظاهرة فى الآثار، وأن تنظر فى حكمة وبدائع صنعه، لتقتنع تمام الاقتناع أنها عاجزة عن إدراك كمال صنعته، وغرائب تصريف قدرته، والحيطة بلطيف آياته وتحققها بالعجز عن هذا مع ظهوره للحس، تحقيق بالعجز عن إدراك أسرار الألوهية، فسبحان من: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.(1)

ثم تفضل سبحانه وتعالى فبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم الكتب فيها تبيان لكل شئ من العقيدة الحقة ومن العبادات والمعاملات، وأمرهم سبحانه وتعالى أن يبينوا للناس بعملهم وقولهم وحالهم ما اختلفوا فيه ففصلوا المجمل، ووضحوا المشكل، وبينوا المبهم، ونصوا على مواضع التخصيص والتعميم، وتلقى ذلك النور خيرة الخلف عن السلف وهكذا (لا تزال طائفة من الأمة قائمة على

---

(1) سورة الأنعام الآية 103.

الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[1].

ولما كان المريد لابد له من أن يعقد قلبه على عقيدة مجمع عليها من أئمة السلف الصالح - أهل السنة والجماعة - حتى تصح إرادته وتحسن بدايته، ويشيد ويبنى على أساس مكين، ويسير على طريق أمين وصراط مستقيم، لزم أن تُشرح له عقيدة أهل السنة إجمالا، حتى يتمكن من معرفتها، حتى إذا صارت حالته سنية، لانتهاجه على الأصول السنية، تشرح له عقيدة أهل المشاهدات والتمكين من أهل العلم واليقين، فأبدأ بالعقيدة اللازمة للمريد.

(1) من حديث البخارى رواه قيس عن المغيرة بن شعبة.

أما العقيدة التى أجمع عليها أهل السنة والمذاهب التى أخذوا بها فى فروع الأحكام فكما يأتى: أجمعوا على أن الله تعالى واحد فرد صمد، قديم أزلى، باق أبدى، وأن ما سواه فهو صنعه وخلقه لا شريك له، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شبيه له، موصوف بكل ما وصف به نفسه من الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، مسمى بكل ما سمى به نفسه، ليس بجسم فإن الجسم ما كان مؤلفا والمؤلف يحتاج إلى مؤلف، ولا هو بجوهر فإن الجوهر ما كان متحيزا والرب سبحانه وتعالى ليس بمتحيز، بل هو خالق كل متحيز، ولا هو عرض فإن العرض لا يبقى، ولأنه يحتاج إلى الجوهر، وهو سبحانه وتعالى لا يكيفه العقل، ولا يمثله الفكر، ولا تلحقه العبارات، ولا تعينه الإشارات، ولا تحيط به الأفكار، ولا تدركه الأبصار، العقول محجوبة عن درك حقيقته، إذ العقول للعبودية لا للإشراف على الربوبية.

وقالوا فى الاستواء: ما قاله مالك بن أنس- رحمه الله - حين سئل عن ذلك، فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة)، وكذلك مذهبهم فى النزول. وأجمعوا على أن كلام الله تعالى قديم غير محدث.

وأجمعوا على جواز رؤية الله تعالى فى الدار الآخرة بالأبصار، وأوجبوه بالآيات الظاهرة، والأخبار الصحيحة، وإنما نفى الله تعالى الإدراك بالأبصار، لأن ذلك يوجب كيفية وإحاطة، وليست كذلك الرؤية، والنبى ﷺ شبه النظر بالنظر، لا المنظور بالمنظور إليه، بقوله ﷺ (إنكم سترون ربكم)[1] الحديث.

---

(1) أخرجه البخارى عن خالد وهشيم عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله.

وأجمعوا على الإقرار والإيمان بجملة ما ورد فى الكتاب العزيز، وجاءت به الروايات الصحيحة عنه ﷺ، من إعادة الأرواح إلى الأبدان وبعثها للحساب، والمجازاة، والجنة، والنار، واللوح، والقلم، والحوض، والصراط، والشفاعة، والميزان، والصور، وعذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، وإخراج قوم من النار بالشفاعة، وأن أهلها فيها مخلدون غير أهل الكبائر من المؤمنين فإنهم لا يخلدون فى النار.

وأجمعوا على أنه خالق لأفعال العباد، وأن الخلق كلهم يموتون بأجلهم، وأن المقتول يموت بأجله، وأن الشرك والمعاصى كلها بقضاء الله وقدره من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة، بل لله الحجة البالغة، ولا يرضى لعباده الكفر والمعاصى، والرضا غير الإرادة، ويرون الصلاة خلف كل بار وفاجر من الولاة، ولا يوجبون الثواب بالطاعة، ولا العقاب بالكبيرة، وينكرون على المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والمشبهة، والمعطلة، والخوارج، والروافض، وسائر أهل البدع، ولا يرون الخروج على الولاة وإن كانوا ظلمة، وأجمعوا أن سيدنا ومولانا مُحَّداً ﷺ أفضل الأنبياء، وأن الله ختم به النبوة، وأجمعوا على تفضيل الرسل على الملائكة، وأن بين الملائكة تفاضلا كما بين الأنبياء.

وأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وأن من ترك الإقرار فهو كافر، ومن ترك التصديق فهو منافق، ومن ترك العمل فهو فاسق، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن المعرفة بالقلب لا تنفع ما لم يتكلم بكلمتى الشهادة إلا أن يكون له عذر يثبته بالشرع، ويرون الاستثناء فى الإيمان من غير شك.

وأجمعوا على أن أفعال العباد ليست بسبب للسعادة والشقاوة، لقوله ﷺ (السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه) [(1)].

فإن العقاب والثواب ليسا من جهة الاستحقاق، بل من جهة الفضل والعدل

---

(1) أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ونسبه للطبرانى ورمز له بالصحة، ونسبه المناوى للبزار والديلمى وقال كلهم: عن أبى هريرة.

والمشيئة، وأن الخوف والرجاء زمامان للعبد من سوء الأدب، وأن كل قلب خلا منهما فهو خراب، وأن الصفات الذميمة تنفى من العارفين، ولا تحمد فى حق المريدين، وأن العبد ينتقل فى الأحوال والمقامات حتى يصل إلى نعت الروحانيين، فتظهر عليه الكرامات، وأن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان فى الدين، وأوجبوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن نبوة الأنبياء لم تثبت بالمعجزة، بل بإرسال الله تعالى إياهم ووحيه إليهم.

وأما المعجزة فهى لإثبات الحجة على المنكرين، وأن الأنبياء متعبدون بإظهار المعجزة لإثبات الحجة، والأولياء متعبدون بكتمان الكرامة لدفع الفتنة، وأنكروا المراء فى الدين، ومنعوا من المناظرة والجدال فى أحكام الدين، ويرون الاقتصار على الأدون من الثياب دون النفيس منها، والخلقان والمرقعات أفضل من الجديد، لأن النبى ﷺ فعل ذلك، وفعله أهل الصفة وغيرهم من أجلاء الصحابة. وفى البخارى: أن ستين من أصحاب الصفة لم يكن لهم أردية.

المذاهب التى أخذوا بها فى فروع الدين:

وأوجبوا طلب العلم وتعلمه لقوله ﷺ (طلب العلم فريضة على كل مسلم).[1]

واختاروا من المذاهب فى أحكام الفروع مذهب فقهاء أصحاب الحديث، ويرون أن اختلاف الفقهاء فى الفروع رحمة. من الحديث الوارد.

وأوجبوا طلب الحديث وسماعه وحفظه وروايته وكتابته، وعظموا المحدثين لأنهم أساس الدين وحراس السنة المدافعون عنها، وعظموا الفقهاء والمتكلمين والمفسرين، لقيامهم بعلوم الدين، وإظهارهم العلوم الخفية، وتقريرهم الأحكام بالأدلة وردهم على المبتدعين والمخالفين.

(1) هذا الحديث ذكره الغزالى فى الإحياء، وأخرجه ابن ماجه عن أنس.

العقيدة التى يجب أن يكون عليها كل مسلم:

إعلم أن المريد إذا اعتقد تلك العقيدة، وعمل بما علمه من العبادات والمعاملات والأخلاق، يورثه الله تعالى من مشاهد التوحيد، وغرائب تصريف القدرة، وبدائع حكم الكائنات ما يجعل قلبه مطمئنا، ونفسه ساكنة إلى الله تعالى، ويجعله مقبلا على الله بكله منصبا بكليته إلى جانب القدس الأعلى، هذا ومواجيد علوم اليقين، ومشاهدات عين اليقين، والتمكين فى حق اليقين، غوامض الأسرار، تتلقى من الحى للحى، بعد تزكية النفوس، ولا يسطر منها إلا ما لابد منه لأهل التسليم.
وبقدر هذا سأشرح لك عقيدتى عن فقه معنى كلمة شهادة التوحيد، والله أسأل أن يجعلها نورا للقلوب إنه مجيب الدعاء.

الفصل الأول
فقه شهادة أن لا إله إلا الله

هى ما أجمع عليها أئمة الهدى من السلف الصالح من أهل العلم بالله تعالى، والخشية من جنابه سبحانه وتعالى، وهى أول فرض فرض على المؤمنين، لأن أول واجب أجمع عليه السلف الصالح هو شهادة التوحيد، ووصف فضائلها، وهى شهادة المقربين، وشهادة الرسول ﴿ﷺ﴾

قال الله تعالى لرسوله ﴿ﷺ﴾﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [1].

وقال لعباده المؤمنين يأمرهم بمثل ذلك: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾[2]، ففرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله واحد، لا من عدد، وأول لا ثانى له، موجود لا شك فيه، وحاضر لا يغيب، وعالم لا يجهل، قادر لا يعجز، حى لا يموت، قيوم لا يغفل، حليم لا يسفه، سميع بصير، ملك لا يزول ملكه، قديم بغير وقت، آخر بغير حد، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته، لم يحدثها لنفسه، دائم أبد الأبد، لا نهاية لدوامه، والديمومة وصفه غير محدثها لنفسه، لا بداية لكينونيته، ولا أولية لقدمه، ولا غاية لأبديته، آخر فى أوليته، أول فى آخريته، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شئ، ووراء كل شئ، وفوق كل شئ، ومع كل شئ، وأقرب إلى كل شئ من نفس الشىء، وأنه مع ذلك ليس محلا للأشياء، وأن الأشياء ليست محلا له، وأنه على العرش استوى كيف شاء بلا تكييف ولا تشبيه، وأنه بكل شئ عليم، وعلى كل شئ

---

(1) سورة محمد الآية 19.

(2) سورة هود الآية 14.

قدير، وبكل شئ محيط، الجو وجه، والفضاء من ورائه، والهواء وجه، والمكان من ورائه، والحول وجه، والبعد من ورائه، وهذه كلها حجب مخلوقات من وراء الأرضين والسموات متصلات بالأجرام اللطاف، ومنفصلات عن الأجسام الكثاف- من الكثافة- وهى أماكن لما شاء، داخلة فى قوله: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[1].

وهى داخلة فى قوله ﷺ (ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شئ بعد)[2].

والله- ﷻ وعظم شأنه- هو ذات منفرد بنفسه، متوحد بأوصافه، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شئ بائن من جميع خلقه، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شئ، ليس فى الخلق إلا الخلق، ولا فى الذات إلا الخالق: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [3].

وأنه تعالى ذو أسماء وصفات وقدرة وعظمة وكلام ومشيئة وأنوار كلها غير مخلوقة ولا محدثة، بل لم يزل قائما موجودا بجميع أسمائه وصفاته وكلامه وأنواره وإرادته، وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت، له الخلق والأمر والسلطان والقهر، يحكم بأمره فى خلقه وملكه ما شاء كيف شاء، لا معقب لحكمه، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته، إن شاء شيئا كان، ولا يكون إلا ما شاء، لا حول لعبد عن معصية إلا برحمته، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته، وهو واحد فى جميع ذلك لا شريك له ولا معين فى شئ من ذلك، ولا يلزمه إثبات الوعيد بل المشيئة إليه فى العفو، ولا

---

(1) سورة الذاريات الآية 49.

(2) الحديث أخرجه الترمذى عن على بن أبى طالب، ورواه مسلم عن أبى عبيدة بن عبد الله.

(3) سورة المؤمنون الآية 14.

يجب عليه فى الأحكام ما أجرى علينا، ولا يختبر بالأفعال ولا يشار بالمقال، حكيم عادل بحكمة وعدل هما صفتاه، لا تشبه حكمته بحكمة خلقه، ولا يقاس عدله بعدل عباده، ولا يلزمه من الأحكام ما ألزمهم، ولا يعود عليه من الأسماء المذمومة كما يعود عليهم، قد جاوز العقول وفات الأفهام والأوهام والمعقول.

هو كما وصف نفسه وفوق ما وصفه خلقه، نصفه بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأنه ليس كمثله شئ فى كل شئ بإثبات الأسماء والصفات، ونفى التمثيل والأدوات، وأنه سبحانه وتعالى لم يزل موجودا بصفاته كلها ولم تزل له، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك، ولا يزال بلا نهاية ولا غاية ولا تكييف ولا تشبيه ولا تثنية. بل بتوحيد هو متوحد به، وتفريد هو منفرد به، لا يجرى عليه القياس، ولا يمثل بالناس، ولا ينعت بجنس، ولا يلمس بحس، ولا يجنس بشىء، ولا يزدوج إلى شئ، وأن ما سوى أسمائه وأنواره وكلامه من الملك والملكوت، محدث كله، ومظهر حدث بعد أن لم يكن، ولم يكن قديما ولا أول بل كان بأوقات محدثة، وأزمان مؤقتة.

والله تعالى هو الأزلى الذى لم يزل، الأبدى الذى لم يحل، القيوم بقيومية هى صفته، الديموم بديمومية هى نعته، أول بلا أول، ولا عن أول، آخر لا إلى آخر بكينونة هى حقيقته، أحد صمد لم يلد، وبمعناها لم يولد، ومعنى ذلك لم يتولد هو من شئ، ولم يتولد منه شئ، ومثل ذلك لم يخلق من ذاته شئ، كما لم تخلق ذاته من شئ، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علوا كبيرا.

هذا ما انطوى عليه القلب من علم كلمة ﴿أشهد أن لا إله إلا الله﴾ الذى فرضه الله على المؤمنين، بنص كتابه كما تقدم فى الآية، ومتى تحقق القلب باليقين بها باشره حق اليقين، فشهد من مشاهد التوحيد، وبدائع حكمة الحكيم، وعجائب تصريف قدرة القادر، وأنوار غيب الواحد الأحد، ما يعجز عنه البيان، ويقصر عن إدراكه العقل، ولكنه فضل الله يؤتيه من يشاء، ومتى وهب شرح الصدر، وصفى

الخيال.

فقه شهادة أن مُحَّداً رسول الله

قال الله تعالى فى محكم تنزيله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [1]، وقال عز وجل: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾ [2]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [3]، ففرضها علينا أن نشهد أن مُحَّداً رسول الله ﴿ﷺ﴾، خاتم الأنبياء لا نبى بعده، وكتابه خاتم الكتب لا كتاب بعده، وهو مهيمن على كل كتاب، ومصدق لما سلف من الكتب قبله، وأن شريعته ناسخة للشرائع، قاضية عليها، إلا ما أقره كتابه ووافقه، وكتابه شاهد على الكتب، وحاكم عليها وأنه هو الذى بشر به عيسى عليه السلام أمته، وهو الذى أخبر به موسى عليه السلام أمته، وهو المذكور فى التوراة، والإنجيل، وسائر كتب الله عز وجل المنزلة، وهو الذى أخذ ميثاق النبيين أن يؤمنوا به، وينصروه لو أدركوه، فأقروا بذلك وشهد الله تعالى على شهادتهم، وهو الذى أخذت الأنبياء شهادة الأمم على الإيمان به، وأمرتهم بتصديقه، وأخبرتهم بظهوره، وأن موسى وعيسى عليهما السلام لو أدركاه لزمهما الدخول فى شريعته، وأن بقية بنى إسرائيل من اليهود والنصارى كفرة بالله،

---

(1) سورة آل عمران الآية 81.

(2)سورة النساء الآية 80.

(3)سورة الفتح الآية 10.

لجحودهم رسالته، وأن إيمانهم بكتابه مفترض عليهم مأمور به فى كتبهم، وعلى ألسنة رسلهم، وأن طاعته ومحبته فريضة واجبة على الكافة، كطاعة الله تعالى، واتباع أمره، واجتناب نهيه، مفترضان على الأمة إيجابا أوجبه الله تعالى له، وفرضا افترضه على خلقه متصلا بفرائضه.

فضائل النطق واليقين بها:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، وقال الرسول ﴿ﷺ﴾(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)[2] وقال ﴿ﷺ﴾(لو أدركنى موسى بن عمران ما وسعه إلا اتباعى)[3].

وقال الله تعالى فى تحقيق المحبة: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾. ثم قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [4]. فمن محبة الرسول ﴿ﷺوآله﴾ إيثار سننه على الرأى والمعقول، ونصرته بالمال والنفس والقول، وعلامة محبته اتباعه ظاهرا وباطنا، فمن اتباعه ظاهراً أداء الفرائض، واجتناب المحارم، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بشمائله وآدابه، والاقتفاء لآثاره، والتحسس عن أخباره، والزهد فى الدنيا والإعراض عن أبنائها، ومجانبة أهل الغفلة والهوى، والترك

(1) سورة آل عمران الآية 31.

(2) ذكره الغزالى فى الإحياء، متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم.

(3) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

(4)سورة الحشر الآية 9.

للتكاثر والتفاخر من الدنيا، والإقبال على أعمال الآخرة، والتقرب من أهلها، والحب للفقراء، والتحبب إليهم، وتقريبهم وكثرة مجالستهم، واعتقاد تفضيلهم على أبناء الدنيا، ثم الحب فى الله للقريب المحب، وهم العلماء والعباد والزهاد، والبغض فى الله للبعيد المبغض، وهم الظلمة المبتدعة والفسقة المجاهرون. ومن اتباع حاله فى الباطن مقامات اليقين، ومشاهدات علوم الإيمان مثل: الخوف والرضا والشكر والحياء والتسليم والتوكل والشوق والمحبة وإفراغ القلب لله، وإفراد الهم بالله، ووجود الطمأنينة بذكر الله، فهذه معاملات الخصوص وبعض معانى باطن الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وهو من اتباعه ظاهرا وباطنا، فمن تحقق بذلك فله من الآية نصيب موفور، أعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [1].

وقد كان سهل يقول: علامة المحبة لله اتباع الرسول، وعلامة اتباع الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ الزهد فى الدنيا. وقال أيضا فى تفسير قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم﴾[2].

قال: يطع الله فى فرائضه، والرسول فى الدخول فى سننه، فإذا اجتنب العبد البدع، وتخلق بأخلاق الرسول ﴿ﷺ﴾، فقد اتبعه وقد أحب الله تعالى، وكان معه ﴿ﷺ﴾غدا مرافقا فى منزلته.

---

(1) سورة آل عمران الآية 31.

(2) سورة النساء الآية 69.

الباب الثانى

العبـادات

الفصل الأول: الصلاة

الصلاة عماد الدين وأساسه، وشكر للمنعم متجدد على عميم نعماه، مكرر فى كل يوم جديد، وقد اختار الله تعالى الذين مع حبيبه سيدنا مُحَمَّد ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، واختار لهم الصلاة، فقال تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً﴾ [1].

وقد أخبر الله تعالى عن المؤمنين على التحقيق أنهم يقيمون الصلاة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {2} الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾[2].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: (سألت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أى الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلاة لوقتها) [3] ، وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة) [4].

وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم فى المضاجع)[5].

---

(1) سورة الفتح الآية 29.

(2) سورة الأنفال الآية 3،2.

(3) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(4) رواه مسلم عن جابر.

(5) حديث حسن رواه أبو داود بإسناد حسن.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾ [1]. ومن ضيع الصلاة فهو لغيرها من الدين أضيع.

الطهارة:

قال الله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ(لا يقبل الله صلاة بغير طهور)[3]، وقال ﷺ(الطهور نصف الإيمان)[4]، وقال ﷺ(مفتاح الصلاة الطهور). [5]

أول الطهارة الاستنجاء:

والاستنجاء هو إزالة الحدث بالماء أو بالأحجار، ويشترط فى الماء أو الأحجار الطهارة، واعتقاد زوال الخبث.

سننه:

سننه وتر الاستجمار، وأقله حجر واحد إن أوعب، أى: إن كفى. وأفضله ثلاث إلى سبع ومباشرة الأذى بالشمال، بأن يأخذ الحجر بشماله. ويسن فى الماء أن يباشر بالشمال، ولا يستقبل القبلة فى الفضاء، ولا يستجمر بعظم ولا روث، وأن

---

(1) سورة النساء الآية 103.

(2)سورة التوبة الآية 108.

(3) رواه الترمذى عن ابن عمر.

(4) من حديث الترمذى وهو حسن.

(5) من حديث الإمام على وقال الترمذى صحيح.

يرفع عقب قدمه اليمنى عن الأرض عند الحاجة تسهيلاً لها.

الوضوء:

قال رسول الله ﷺ(من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره)[1]. وقال ﷺ(ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)[2] رواه أبو هريرة رضي الله عنه.

موجبات الوضوء:

قال رسول الله ﷺ(لا تقبل صلاة من أحدث حتى يتوضأ)[3]، وموجبات الوضوء أحداث أو أسبابها.

الحدث:

ما يخرج من أحد المخرجين معتادا فى الصحة.

أنواعهما: البول، والمذى، والودى من الفرج للرجال والنساء، والاستحاضة والهادى من النساء، والفساء والضراط والغائط من الدبر.

---

(1) أخرجه النووى عن عثمان بن عفان، ورواه مسلم.

(2) الحديث فى سنن النسائى، وأورده السيوطى فى الجامع الصغير.

(3) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

أسباب الحدث:

النوم، السكر، الإغماء، مس الأجنبية مع قصد اللذة أو وجودها، لمس الذكر بباطن الكف مباشرة. قال رسول الله ﷺ(لا وضوء إلا من صوت أو ريح)[1]، وقال ﷺ(من المذى الوضوء، ومن المنى الغسل)[2]، وقال ﷺ(إذا أفضى أحدكم إلى ذكره بيده وليس بينه وبينها شئ فليتوضأ)[3].

العمل فى الوضوء:

قيل لعبد الله بن زيد بن عاصم: (كيف كان رسول الله ﷺيتوضأ؟ فدعا بوضوء فأفرغ على يده اليمنى فغسل يديه مرتين وهو سنة، ثم مضمض واستنثر ثلاثا وهما سنة، ثم غسل وجهه ثلاثا وغسل الوجه فرض والتثليث سنة، ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين وغسلهما فريضة، ثم مسح رأسه بيديه وهو فريضة فأقبل بهما وأدبر، وبدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه والرد سنة، ثم غسل رجليه وهو فريضة).

وفى رواية: تمضمض واستنشق ثلاثا بثلاث غرفات من ماء. وفى رواية: مضمض واستنشق من كف واحدة فعل ذلك ثلاثا، وقال: مسح برأسه فأقبل بهما وأدبر مرة واحدة، ثم غسل رجليه إلى الكعبين.

وورد أنه ﷺ(توضأ مرة مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، ثم توضأ مرتين مرتين فقال: من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين، ثم توضأ ثلاثا

---

(1) أخرجه الترمذى برواية أبى هريرة وقال حسن صحيح.

(2) أخرجه الترمذى عن على بن أبى طالب وقال حسن صحيح.

(3) ذكره الشافعى فى مسنده، وفى الأم، والبويطى بأسانيده، ورواه البيهقى عن أبى هريرة.

وقال: هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضوء إبراهيم عليه السلام)[1]

فرائض الوضوء سبعة:

يشترط أولا طهارة الماء، وأول الفرائض النية، وثانى الفرائض غسل الوجه من منابت شعر الرأس إلى منتهى الذقن، ومن وتد الأذن اليمنى إلى وتد الأذن اليسرى، وثالث الفرائض غسل اليدين إلى المرفقين، ورابع الفرائض مسح جميع الرأس[2]، وخامس الفرائض غسل الرجلين إلى الكعبين، وسادس الفرائض دلك الأعضاء عند الغسل، وسابع الفرائض الترتيب من غير تأن.

سنن الوضوء:

غسل اليدين إلى الكوعين ثلاثا، المضمضة والاستنشاق والاستنثار ثلاثاً ثلاثاً، رد مسح الرأس، مسح الأذنين، وتجديد الماء لهما، ويستحب وضع الإناء المفتوح جهة اليمين، وغسل اليدين خارجه أولا، وتحريك الخاتم الذى يصل الماء إلى ما تحته، والسواك عند كل صلاة، وقال رسول الله ﷺ (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب). [3]

---

(1) من حديث ابن عمر. ذكره الغزالى فى الإحياء.

(2) قال الشافعية والحنفية: إن المفروض مسح بعض الرأس.

(3) رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحيهما، ورواه البخارى، ورواه الطبرانى فى الأوسط والكبير.

الغسل:

ما يوجب الغسل، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إذا جلس الرجل بين شعبها الأربع وأجهدها وجب الغسل وإن لم ينزل)[1].

موجبات الغسل خمسة:

إنزال المنى فى النوم، إدخال الذكر أو رأسه فى فرج مطيق، ولو لم ينزل الماء، إنزال المنى بلذة معتادة بجماع أو بفكر فى اليقظة، والحيض، والنفاس.

العمل فى الغسل:

أكمل العمل فى الغسل أن يضع الإناء عن يمينه، ثم يسمى الله تعالى ويفرغ الماء على يديه ثلاثا قبل إدخالهما الإناء، ثم يغسل ذكره ويستنجى، ثم يتوضأ للصلاة كاملا إلا غسل قدميه، ثم يدخل يديه فى الإناء ويحمل الماء ويغسل رأسه ثلاثا ووجهه وعنقه وأذنيه، ثم يغسل شقه الأيمن إلى فخذه وساقه ثلاثاً ظهرا وبطنا، ثم يغسل شقه الأيسر، كذلك ظهره وبطنه إلى فخذه وساقه، ويدلك جميع جسده بيديه معا، مع العناية بتخليل شعر الرأس ودلكه، ثم ينتقل من محله ويغسل قدميه.

فرائض الغسل خمسة:

النية، وتعميم الجسد بالماء، ودلك جميع الجسد، والموالاة، وتخليل الشعر، وماعدا ذلك فسنن.

---

(1) أخرجه البخارى برواية أبى هريرة.

الغسل المسنون:

قال رسول الله ﷺ(إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل)ٔ وقال ﷺ(حق على كل مسلم كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجسده)[1]. ويسن للكافر إذا أسلم أن يغتسل، ويندب الغسل يوم العيدين. والأولى للجنب أن يبادر للغسل قبل نومه فإن لم يستطع فليتوضأ ثم ينام أو يأكل إن شاء.

التيمم:

قال رسول الله ﷺ(فضلنا على الناس بثلاث، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض مسجدا، وجعلت لنا تربتها طهورا) التيمم فرض فاقد الماء، أو العاجز عن استعماله.

العمل فى التيمم:

سئل مالك كيف التيمم وأين يبلغ به؟ فقال: يضرب ضربة لوجهه وضربة لليدين ويمسحهما إلى المرفقين، وكل ما صعد على الأرض من تراب وسباخ وحجر ومدر فهو صعيد طيب. والتيمم يبيح الصلاة ولا يرفع الحدث، ويتيمم الجنب للصلاة، ولمس المصحف، وللطواف بالكعبة إذا كان فرضه التيمم.

الرعاف:

هو الدم الراشح أو السائل أو القاطر من الأنف، فإن حصل فى الصلاة. فتل فى الرشح على أطراف الأصابع أى: إذا أخذ المصلى السائل الراشح من الأنف على

---

(1) رواه البخارى عن أبى هريرة.

أطراف أصابعه، وكذلك فى السائل والقاطر يخرج المصلى فيغسل الدم ثم يرجع فيتم صلاته التى كان بها.

المسح على الجبيرة:

من كان به قرحة فى أعضاء الوضوء يضرها الماء، فالسنة المسح عليها مباشرة إن كان لا يضر، أو على اللزقة التى توضع عليها إن أمكن، أو اللفافة، ولو أخذت أكثر من القرحة، وإذا سقطت اللفافة فعليه أن يسرع فى ردها ومسحها، وإلا بطل الوضوء إن تهاون، وتبطل الصلاة إن سقطت فى الصلاة.

المسح على الخفين:

يرخص المسح عليهما سفرا وحضرا بشرط أن لا يلبسهما ترفا أو كبراً أو رياء، بل لمرض أو لخوف مرض، والرخصة فيهما بشرطين: شرط فى اللابس. وشرط فى الخفين.

شروط الخفين خمسة:

أن يكون جلدا، طاهرا، مخرزا، ساتراً لعضو الوضوء، ممكنا المشى فيه متتابعا.

شروط اللابس:

أن يلبسهما على طهارة مائية تامة لغير ترف ولا عجب، واختلف العلماء فى زمنه، فقال بعضهم: يوم وليلة، وقال بعضهم: سبعة أيام، وقال بعضهم: ثلاثة، واستحسن أن يخلع للغسل المسنون أو الواجب، ولا حد، أى: ولا زمن محدد،

والله أعلم.

أوقات الصلاة:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(وقت الظهر إذا زالت الشمس ما لم تحضر العصر، ووقت العصر ما لم تصفر الشمس، ووقت صلاة المغرب إذا غابت الشمس ما لم يسقط الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني شيطان).

ووقت الصبح من طلوع الفجر إلى الإسفار البين، فإذا أدركه قبل الشمس فهو أداء وإلا فهو قضاء، ووقت الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شئ مثله، وهو أول وقت العصر، وآخر وقت الظهر الاختيارى، ويستمر إلى اصفرار الشمس، وبمغيب الشمس فهما قضاء. ووقت المغرب غروب الشمس وبقدر الفعل. ووقت العشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى الثلث الأول من الليل، ثم تستمر المغرب والعشاء ضرورين إلى طلوع الفجر فتكونان قضاء.

الأذان والإقامة:

لفظ الآذان هكذا: الله أكبر، الله أكبر[1]، ثم يقول سراً أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن مُحَّدا رسول الله، أشهد أن مُحَّدا رسول الله، ثم يرفع صوته بهما[2]ثم يقول: حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، ويزيد فى الصبح قبل

(1) التكبير عند الشافعية والحنفية والحنابلة أربعاً.

(2) عند الحنفية والحنابلة لا يقول الشهادتين سراً.

التكبير الأخير، الصلاة خير من النوم مرتين.

الإقامة:

ولفظها: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن مُحَمَّدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة[1]، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

شروط صحة الصلاة:

الطهارة من الحدث والخبث، وستر العورة وهى من السرة إلى الركبة، والإسلام، واستقبال القبلة، ودخول الوقت.

العمل فى الصلاة:

قال رسول الله ﷺ (لا ينظر الله تعالى إلى من لا يقيم صلبه بين الركوع والسجود)[2]. وقال ﷺ (لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه فى الركوع والسجود)[3]، ورأى ﷺ رجلا يصلى لا يقيم ظهره فى ركوعه وسجوده فقال له:(ارجع فصل فإنك لم تصل، ثم رآه لا يطمئن فى الركوع والسجود فأمره أيضا بإعادة الصلاة، ثم علمه الطمأنينة بينهما والقيام فيها، فقال: حتى تطمئن

(1) عند الحنفية والحنابلة والشافعية تقال مرتان.
(2) رواه أحمد من حديث أبى هريرة بإسناد حسن.
(3)أخرجه الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى حسن صحيح.

مفاصلك وتسترخى)[1].

فعلى المصلى بعد أن يكون قد حصل على ما يجب عليه للصلاة من الشروط المتقدمة أن ينوى، والنية هى العزم على العمل المقصود لله تعالى ملاحظا فى ذلك أنه واقف أمام ربه لعمل أوجبه عليه، ويجاهد نفسه أن لا يشغل قلبه بغير ما هو فيه. والنية فريضة، ثم يرفع يديه إلى كتفيه وهو مندوب، ثم يفتتح الصلاة بتكبيرة الإحرام، ولفظها الواجب (الله أكبر) وهى فريضة، ويقولها واقفا إلا لعذر، ثم يقرأ الفاتحة واقفا فى كل ركعة وهى فريضة فيها، فإن كان فى العشاء أو الصبح أو المغرب جهر فى الركعة الأولى والثانية وأسر فى الباقى، ويسر فى الظهر والعصر، والسر أو الجهر سنة، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورة من القرآن فى الركعة الأولى والثانية قائما وهى سنة، ثم يركع والركوع فرض، فيهوى مكبرا ويسن أن يمكن كفيه من ركبتيه، ويفرج بين ذراعيه وبين شقيه إلا إذا كان المصلى امرأة فإنها تنضم، ويسن أن يجعل ظهره مستويا مع رأسه، وأن يسبح فى الركوع، والطمأنينة فى كل عمل فريضة، ثم يرفع من الركوع حتى يستوى قائما والرفع فريضة، ويسن قوله: (سمع الله لمن حمده) للإمام، و (ربنا ولك الحمد) للمأموم، والجمع بينهما للمنفرد، ثم يهوى ساجداً والسجود فريضة، والفرض فيه تمكين الجبهة من الأرض، ويسن أن يكون على سبعة أعظم، الوجه واليدين والركبتين وطرف القدمين، ويندب أن تنبسط اليدان محاذيتين الأذنين، وأن لا يضمهما لجنبيه، وأن يباعد بين فخذيه وبطنه، إلا إذا كان المصلى امرأة فإنها تنضم، ويكبرعندما يخر ساجدا ويدعو بما شاء، والرفع من السجود فريضة، والتشهد سنة، والصلاة على النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ سنة، والسلام على اليمين فريضة.

---

(1) الحديث رواه النسائى والبخارى ومسلم عن أبى هريرة.

أحب العمل فى الصلاة:

وأحب العمل فى الصلاة إلىَّ. ما ثبت عن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأخبروا عنه أنه عمل رسول الله ﴿ﷺ﴾، واستنبط من الأحاديث الواردة فى الموطأ والصحيحين وغيرهما، وما تلتقيه بالعمل عمن صحبتهم من أهل الرواية عملا، المحافظين على السنة العملية. والعمل كما أبين: أن يقف المصلى ناظرا ببصره إلى موضع قدميه، واضعا ذقنه على صدره، موجها وجهه وجسمه إلى القبلة، خاشع الظاهر لأنه دليل على خشوع الباطن، ثم بعد النية، يرفع يديه إلى شحمة الأذنين، وقد ورد أن رسول الله ﴿ﷺ﴾رفعهما إلى شحمة الأذنين، ولكتفيه، ولأعلى الأذنين، ثم يقول: الله أكبر، ويرسل يديه بخشوع ورفق ثم يضع يده اليمنى على يده اليسرى قابضا على زند كفه اليسرى تحت صدره بخشوع وذل[1]، ويتوجه إن كان منفردا قائلا: إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما وما أنا من المشركين. إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين.

ثم يقرأ الفاتحة، فإن كان وراء الإمام لا يقرأ التوجه، ولكن يقرأ الفاتحة عند سكتة الإمام، وأحب إلى أن يفتتح بالبسملة ملاحظا فى ذلك السنة[2]، وأن يختم الفاتحة بآمين، ثم يقرأ بعد الفاتحة سورة من القرآن أو ثلاث آيات من أى سورة ما، ثم ينحنى راكعا ويرفع يديه عند الركوع، ويمكن راحتيه من ركبتيه، ثم يعتدل فى ركوعه، فيسوى رأسه بظهره ويباعد يديه عن جنبيه قليلا، ويكبر فى انحطاطه للركوع،

---

(1) على أن هذه الهيئة لو تركها وأرسل يديه، كما يقول المالكية، فلا بأس (الفقه على المذاهب الأربعة للعلامة الجزيزى جـ1ص 217).

(2) التسمية سنة عند الحنفية والحنابلة ويأتى بها المصلى سراً، وفرض عند الشافعية ويأتى بها المصلى جهراً، وإن لم يأت بها بطلت صلاته، ومكروهة عند المالكية فى الفريضة، ويجوز أن يأتى بها المصلى فى النافلة.

ويسبح فيه ثلاثا إلى عشر، ثم يرفع رأسه قائلا: (سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد)، إذا كان منفردا حتى يرجع كل إلى موضعه، مطمئنا فى كل ذلك ثم يرفع يديه ويخر ساجدا فيجافى يديه عن جنبيه، ويضع راحتيه على الأرض حذاء أذنيه أو كتفيه، ويمكن جبهته وأنفه من الأرض، ويفرج بين فخذيه من غير أن يحمل بطنه على شئ من فخذيه، ويدعو الله بما شاء.

وأحب إلىَّ أن يسأل الله تعالى المغفرة، والعفو، والعافية من فتنة الدنيا، وفتنة المحيا والممات، فإذا جلس افترش رجله اليسرى، ونصب قدمه اليمنى فجعل صدره جهة القبلة، ثم يجلس على مقعدته ويضع كفه اليمنى على ركبته اليمنى، واليسرى على اليسرى، وأشار بأصبعه السبابة من يده اليمنى، ويجوز فى الجلوس الوسط أن يجلس على بطن قدمه اليسرى بعد نصب اليمنى، ويكبر فى سجوده ورفعه، ولا يرفع يديه.

وأحب إلىَّ فى الركعة الأولى والثالثة، أن يرفع من السجود جالسا ثم يقوم مكبرا، وأن يكبر بعد القيام إذا قام بعد التشهد الأول، ويسلم جهة يمينه لاويا عنقه حتى يرى من على يمينه خده الأيمن من غير أن يتحول جسمه عن القبلة، ويسلم من على يساره كذلك، والأولى للمصلى بعد السلام أن يجلس بهيئته مسبحا مكبرا حامدا الله، ثم يرفع يديه لمولاه متملقا ضارعا، وأحب إلىَّ أن يسأل ربه خير الدنيا والآخرة، وصلاح حال المسلمين.

التشهد:

التحيات لله، الزاكيات لله، الطيبات لله، السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَّمدا عبده ورسوله. وقد ورد التشهد بروايات أخرى.

الصلاة على النبى بعد التشهد:

اللهم صل على مُحَّد، وعلى آل مُحَّد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، وبارك على مُحَّد، وعلى آل مُحَّد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد[1].

الدعاء فى التشهد:

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيخ الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم، اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كبيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك، وارحمنى فإنك أنت الغفور الرحيم.

العمل فى صلاة المسبوق:

من سبقه الإمام بالقراءة وأدركه راكعا فليكبر للإحرام مطمئنا ويركع، فإن مكن كفيه من ركبتيه قبل رفع الإمام اعتد بالركعة وأتم صلاته وراء الإمام، وإن أدرك الإمام فى سجود أو جلوس كبر تكبيرة الإحرام، واتبع الإمام فيما هو عليه، فإذا قام الإمام قام بدون تكبير وإذا سلم الإمام قام بدون تكبير ولا يعتد بشىء من عمله، ومن أدرك الإمام فى الثانية أو فى الثالثة أو فى الرابعة يعمل فى صلاته بما أبينه، فمن أدركه فى الثانية يتبع الإمام حتى يسلم، فإذا سلم قام فقضى الأولى قراءة وأدى الرابعة عملا، فيقرأ الفاتحة والسورة فى رابعته سرا فى السر وجهرا فى الجهر، وتسمى الصلاة ذات الجناحين، لأن الفاتحة والسورة فى الأولى والرابعة، وإن

(1) الصلاة على النبى ﷺ فى التشهد الثانى فرض عند الشافعية والحنابلة، وقد زاد متأخروا الشافعية لفظ السيادة، فيقول: سيدنا محمد، وسيدنا إبراهيم.

أدركه فى الثالثة تابع الإمام، ثم قام بعد تسليم الإمام فقضى الأولى والثانية قراءة، بأن يقرأ فى الثالثة والرابعة الفاتحة والسورة سراً أو جهراً، ويؤدى الثالثة والرابعة عملاً، وتسمى الصلاة المقلوبة، لأن الثالثة والرابعة فاتحة وسورة، وإن أدرك الإمام فى الرابعة تابع الإمام حتى يسلم فيقوم بعد سلام الإمام، يقضى الأولى قراءة، وهى ثانية فى العمل، فيقرأ الفاتحة وسورة ثم يجلس للتشهد فتكون أولى قولا وثانية عملا، ثم يقوم للثالثة فيجعلها ثانية، قولا وثالثة عملا، يقرأ فيها الفاتحة وسورة ثم يرفع من السجود قائما، ثم يقوم للرابعة فيصليها رابعة قولا وعملا، وتسمى ذات القلب، لأن الركعة الثانية والثالثة بفاتحة وسورة، والأولى والرابعة بفاتحة.

قضاء الفوائت:

الأولى أن يقضى من عليه فوائت تساهل فيها. اليوم: فى الوقت الواحد على الأقل، وإن قصر عن ذلك فيصلى اليوم بين وقتين، بأن يصلى الصبح والظهر والعصر بعد ارتفاع الشمس، والمغرب والعشاء قبل صلاة الظهر الحاضرة، وأحب أن لا يتحرى أوقات الكراهة فى تأدية القضاء إلا لضرورة، ومن دخل فى صلاة وذكر فائتة وهو وراء الإمام. الأولى أن يتمها نافلة، ثم يصلى التى نسيها والحاضرة، وإن كان منفردا سلم من ركعتين وصلى ما عليه، ولا بأس بصلاة النوافل فى جماعة فى غير المساجد، ولا يصلى المصلى فريضة وراء نافلة، والأولى لمن صلى منفردا أن يعيد وراء الجماعة مفوضا.

السهو فى الصلاة:

السهو هو الذهول الخفيف عن سنة مؤكدة أو أكثر، أو عن ركن من الأركان أو بزيادة ركن، فمن سها عن سنة مؤكدة أو أكثر، بأن ترك قراءة السورة بعد الفاتحة

فى الركعة الأولى، أو فيها وفى الثانية، أو ترك التشهد والصلاة على النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، أو ترك التسميع والتحميد فى ركعة أو أكثر، أو ترك تكبيرتين أو أكثر -غير تكبيرة الإحرام - جبر ذلك بسجدتين قبل السلام، وإن سها عن ركن قولى كالفاتحة أو تكبيرة الإحرام، أو فعلى كالركوع أو الرفع منه أو السجود، فإن ذكر المتروك قبل تمام الركوع الذى يليه تداركه، وإن ذكره بعد تمام الركوع الذى يليه ألغى الركعة التى وقع فيها السهو، فمثال التدارك بأن سها عن الفاتحة وذكرها وهو فى السورة، فإنه يتداركها، أو ذكرها وهو منحن للركوع قبل أن يرفع من الركوع رفع بقصد التدارك وقرأ الفاتحة وأتم صلاته، فإن ذكرها بعد الرفع من الركوع أو بعد القيام من السجود وكان فى الركعة الأولى أو بعد التشهد إن كان فى الثانية، ألغى الركعة التى حصل فيها السهو، وصارت الرابعة التى هى فيها أولى أو ثانية، بحسب الركعة التى سها فيها. فإن كانت التى سها فيها الأولى صارت الثانية أولى، وإن كانت الثانية صارت الثالثة ثانية.

وإن سها فى الرفع من الركوع فإن ذكره فى السجود قام منحنيا، ثم يطمئن ويرفع ويسجد، وإن ذكر ذلك فى التشهد فعل ما تقدم، وإن ذكره بعد قيامه وهو مادام لم يركع تدارك الركوع بأن يركع ويتم الركعة بسجدتيها بحسب حكمها، إن كانت أولى أو ثانية أو غير ذلك ويلغى ما وقع منه، وإن ذكر ذلك بعد الركوع كله الذى يلى ركعة السهو ألغى ركعة السهو بأن يسقطها من العدد، وإن سها عن الركوع وذكره جالسا أو ساجدا وقف وقرأ آية قرآن ثم ركع، وإن ذكره من الركعة التى تليها وهو واقف قبل ركوعها فعل ما تقدم بأن يتدارك راكعا، وإن سها عن سجدة فإن ذكرها جالسا أتى بها، وإن ذكرها واقفا قبل الركوع جلس مطمئنا ثم سجد سجدة وقام واقفا، وإن ذكرها بعد الركوع الذى يليها أسقط تلك الركعة من العدد، ومن تلك المثل يمكن المصلى أن يستنبط الأحكام، وفى كل ذلك يسجد سجدتين بعد السلام أو قبله ما لم يكن ترك سنة مؤكدة أو أكثر فإنه يسجد قبل السلام فى كل

ذلك قال ﴿ﷺ﴾(إن أحدكم إذا قام يصلى جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدرى كم صلى، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس)[1].

السهو فى العدد:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إذا شك أحدكم فى صلاته فلم يدر كم صلى ثلاثا أو أربعا فليطرح الشك على ما استيقن، ثم يسجد سجدتين قبل أن يسلم، فإن كان صلى خمسا شفعها بهاتين السجدتين، وإن كان صلى تماما لأربع كانتا ترغيما للشيطان)[2].

عن عبد الله بن مسعود قال: (إن رسول ﴿ﷺ﴾صلى الظهر خمساً فقيل له: أزيد فى الصلاة، فقال: وما ذاك؟ قالوا: صليت خمسا، فسجد سجدتين بعدما سلم وقال: إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى، وإذا شك أحدكم فى صلاته فليتحر الصواب فليتم عليه، ثم ليسلم ثم يسجد سجدتين)[3].

فحكم من سها فى عدد صلاته أن يبنى على الأقل ثم يسجد قبل السلام سجدتين أو بعده.

حكم من سها، فقام فى الثانية قبل التشهد، أو قام فى الرابعة، أو جلس فى الأولى، أو الثالثة: حكم من قام فى الثانية أنه لا يجلس ولو ذكر أو ذكره غيره، وعليه أن يسجد سجدتين قبل السلام، ومن قام فى الرابعة فعليه أن يجلس عند ذكره أو تذكيره ويسجد بعد السلام، ومن جلس فى الأولى أو الثالثة يجب عليه أن يقوم عند ذكره أو تذكيره.

---

(1) رواه البخارى والترمذى.

(2)رواه مسلم بإسناد صحيح، وبمعناه رواه أبو سعيد الخدرى.

(3)رواه البخارى ومسلم.

ورد أن النبى ﴿ﷺ﴾صلى الظهر فقام فى الركعتين الأوليين، لم يجلس فقام الناس معه حتى إذا تم وانتظر الناس تسليمه كبر تكبيرتين، أى: سجد سجدتين، قبل أن يسلم ثم سلم.

فضل الصلاة وآدابها:

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[3]. قيل: سكارى من حب الدنيا، وقيل: من الاهتمام بها. وقال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[4]. وقال النبى ﴿ﷺ﴾(من صلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشىء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه) وقال ﴿ﷺ﴾(إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتباؤس وتنادم، وترفع يديك وتقول: اللهم، فمن لم يفعل فهى خداج -أى ناقصة-). روينا عن الله سبحانه وتعالى فى الكتب السالفة أنه قال: (ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتى ولم يتكبر علىَّ، وأطعم الفقير الجائع لوجهى).

فمن الإقبال على الصلاة أن لا تعرف من على يمينك ولا من على شمالك، من حسن القيام بين يدى القائم على كل نفس بما كسبت، وكذلك فسروا قوله تعالى:

---

(1) سورة طه الآية 14.

(2) سورة الأعراف الآية 205.

(3) سورة النساء الآية 43.

(4) سورة المعارج الآية 23.

﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.[1] وقال سعيد بن جبريل: ما عرفت من على يمينى، ولا من على شمالى فى الصلاة منذ أربعين سنة، منذ سمعت ابن عباس يقول: الخشوع فى الصلاة أن لا يعرف المصلى من على يمينه وعن شماله، وروينا عن بشر بن الحرث قال: قال سفيان: من لم يخشع فسدت صلاته. وروينا عن معاذ بن جبل: من عرف من عن يمينه وشماله فى الصلاة متعمدا فلا صلاة له، وقد أسنده إسماعيل بن أبى زياد عن بشر بن الحرث وغيره. وعن الثورى أيضا: من قرأ كلمة مكتوبة فى حائط أو بساط فى صلاته، فصلاته باطلة. وقال بشر: يعنى بذلك لأنه عمل فى الصلاة.

ومن الدوام فى الصلاة السكون فيها، وعلى ذلك فسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قيل: هو السكون والطمأنينة فى الصلاة من قولك: ماء دائم، إذا سكن. وقال بعض الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئاتهم فى الصلاة من الطمأنينة والهدوء.

ومن وجود النعيم بها واللذة، إصغاء القلب للفهم وخشوعه للتواضع، وسكون الجوارح للهيبة، ثم الترتيل فى القراءة والتدبر لمعانى الكلام، وحسن الافتقار إلى المتكلم فى الإفهام والإيقاف على المراد، وصدق الرغبة فى الطلب للاطلاع على المطلع من السر المكنون المستودع فى الكتاب، وإن مر بآية رحمة سأل ورغب، أو آية عذاب فزع واستعاذ، أو مر بتسبيح أو تعظيم حمد وسبح وعظم، فإن قال بلسانه فحسن، وإن أسره فى قلبه، ورفع به همه ناب قصده عن المقال، وكان فقره غاية السؤال، وهذا أحد الوجهين فى قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[2]. هكذا كان وصفهم فى التلاوة.

وينبغى أن يكون قلبه بوصف على ركن من أركان الصلاة، وهمه معلق بكل معنى

---

(1) سورة المؤمنون الآية 2.

(2) سورة البقرة الآية 121.

من معانى المناجاة، فإذا قال: الله أكبر أى: مما سواه، ولا يقال: أكبر من صغير، إنما يقال أكبر من كبير، فيقال هذا كبير وهذا أكبر، فإن كان همه الملك الكبير كان ذكر الله أكبر فى قلبه، فليواطئ قلبه قول مولاه فى قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]، ويواطئ لسانه قلبه فى مشاهدة الأكبر، فيكون يتلو وينظر، فإن الله تعالى قدم العين على اللسان فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ {8} وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾[2] فلا يقدم لسانه ويؤخر بصره، ويكون عقده محققا لمقاله بالوصف،حتى يكون عاملا بما يقول فى الحال، فقد أخذ عليه ذلك لما أمر به حجة عليه وتنبيها له.

ولا يكون بقوله: (الله أكبر) حاكيا ذلك عن قول غيره، ولا مخبراً به عن سواه، بل يكون هو المتحقق بالمعنى القائم بالشهادة، وهذا عند أهل المعرفة واجب، لأن الإيمان قول وعمل فى كل شئ، فإذا قلت: الله أكبر، فإن العمل بالقول أن يكون الله أكبر فى قلبك من كل شئ، وهو من رعاية العهد لتدخل تحت الثناء والمدح فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [3] فالعهد ما أعطيت بلسانك، والرعاية الوفاء بالقلب، ليستحق الأجر العظيم كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [4] ومن كان فى قلبه الملك الصغير الفانى أكبر من الملك الأكبر، فما عمل بقوله: الله أكبر، وليس هذا حقيقة الإيمان، لأنه لم يأت بعمل وقول، وإنما جاء بالقول.

وهذا قائم بنفس من مشاهدته الآخرة وكانت قرة عينه الآخرة كما قال تعالى: ﴿مَا

---

(1)سورة العنكبوت الآية 45.

(2) سورة البلد الآية 8-9.

(3) سورة المؤمنون الآية 8.

(4) سورة الفتح الآية 10.

عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾ يعنى الدنيا ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[1] يعنى الآخرة، وقد قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(جعلت قرة عينى فى الصلاة)، لأنه كان عند ربه فجعل قرة عينه به، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] فالمذكور أكبر وأكبر. وقد أخبر تعالى أن الصلاة أريد بها الذكر فى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ وروى معنى ذلك عن رسول الله ﴿ﷺ﴾إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور الذى هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك؟. وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾لأنس بن مالك: (وإذا صليت صلاة فصل صلاة مودع لنفسه، مودع لهواه، مودع لعمره، سائر إلى مولاه) كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾[3]، وكقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ﴾[4]. وقال النبى ﴿ﷺ﴾(جعلت قرة عينى فى الصلاة)، وكان يرى الأكبر فتقر عينه به. وقال: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعدا) كما قال: (من لم يترك قول الزور والخيانة فليس لله تعالى حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه) فإنما المراد من الصلاة والصيام المخالفة من الآثام.

ومن إقامة الصلاة وإتمامها الوضوء لها قبل دخول وقتها، لئلا يشغله عن أول وقت غيرها، وينبغى أن يكون قلبه فى همه، وهمه مع ربه، وربه فى قلبه، فينظر إليه من كلامه، ويكلمة بخطابه، ويتملقه بمناجاته، ويعرفه من صفاته، فإن كل

---

(1) سورة النحل الآية 96.

(2) سورة العنكبوت الآية 45.

(3) سورة الانشقاق الآية 6.

(4) سورة البقرة الآية 223.

كلمة عن معنى اسم أو وصف أو خلق أو حكم أو إرادة أو فعل، لأن الكلم ينبئ عن الأوصاف، ويدل على الموصوف، وكل كلمة من الخطاب تتوجه عشر جهات، للعارف من كل جهة مقام ومشاهدات، أول الجهات الإيمان بها، والتسليم لها، والتوبة إليها، والصبر عليها، والرضا بها، والخوف منها، والرجاء لها، والشكر عليها، والمحبة لها، والتوكل فيها، فهذه المقامات العشرة هى مقامات اليقين، لأن الكلمة هى حق اليقين، وهذه المعانى كلها منطوية فى كل كلمة يشهدها أهل التملق والمناجاة، ويعرفها أهل العلم والحياة، لأن كلام المحبوب حياة القلوب، لا ينذر به إلا حى، ولا يحيى به إلا مستجيب، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ{69} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2].

ولا يشهد هذه العشر مشاهدات إلا من نقل فى العشر مقامات المذكورة فى سورة الأحزاب، أولها مقام المسلمين وآخرها مقام الذاكرين، وبعد مقام الذكر هذه المشاهدات العشر، فعنده ألا يمل المناجاة لوجود المصافاة، ولا يثقل عليه القيام للذاذة والإفهام، ويسهل عليه الوقوف لدنو العطوف، ويتنعم بالعتاب بحلاوة الاقتراب، هنالك يندرج طول القيام فى التلاوة فلا يجده، كاندراج القبلة فى الصلاة فلا يشهدها، فيكون من ورائه القبلة وهو أمامها، كذلك القيام يحمله وهو مع حامله.

حدثت أن الموقن إذا توضأ للصلاة، تباعدت عنه الشياطين فى أقطار الأرضين خوفا منه، لأنه يتأهب للدخول على الملك، فإذا كبر حجب عنه إبليس وضرب

---

(1) سورة يس الآية 69-70.

(2) سورة الأنفال الآية 24.

بينه وبينه سرادق لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه، فإذا قال: الله أكبر، اطلع الملك فى قلبه، فإذا ليس فى قلبه أكبر من الله تعالى، فيقول: صدقت، الله تعالى فى قلبك كما تقول، قال: فيتشعشع من قلبه نور يلحق بملكوت العرش، فيكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام للوضوء احتوشته الشياطين كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، وإذا كبر اطلع الملك فى قلبه، فإذا كل شئ فى قلبه أكبر من الله تعالى عنده، فيقول له: كذبت ليس الله فى قلبك كما تقول، قال: فيثور فى قلبه دخان يلحق بعنان السماء فيكون حجابا لقلبه، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته ويلتقم الشيطان قلبه، فلا يزال ينفخ فيه وينفث ويوسوس إليه ويزين له حتى ينصرف من صلاته، ولا يعقل ما كان فيه. وقد جاء فى الخبر: لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض.

وروينا عن رسول الله ﴿ﷺ﴾أنه رأى فى القبلة نخامة فغضب غضبا شديداً، ثم حكها بعرجون كان فى يده وقال: (ائتونى بعبير) فلطخ أثرها بزعفران، ثم التفت إلينا فقال: (أيكم يحب أن يبزق فى وجهه؟ فقلنا: لا أينا، قال: فإن أحدكم إذا دخل فى صلاته فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة) وفى لفظ آخر: (واجهه الله تعالى فلا يبزقن أحدكم تلقاء وجهه، ولا عن يمينه، ولكن عن شماله، أو تحت قدمه اليسرى، فإن بدرته بادرة فليبصق فى ثوبه، وليقلبه هكذا: ودلك بعضه ببعض).

وقد روى: إذا قام العبد فى صلاته وقال: الله أكبر، قال الله لملائكته: ارفعوا الحجاب بينى وبين عبدى، فإذا التفت، يقول الله تعالى: عبدى إلى من تلتفت، أنا خير لك ممن تلتفت إليه. ثم إذا قام المقبل على صلاته شهد قلبه قيامه لرب العالمين فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم شهد وقوفه بالحضرة بين يدى الملك الجبار، إذ ليس من الغافلين، فتأخذه غيبة الحضور، ويرهقه إجلال الحاضر، ويستولى عليه تعظيم القريب، ويجمعه خشية الرقيب، فإذا تلا وقف همه مع المتكلم

ماذا أراد، واشتغل قلبه بالفهم عنه والانبساط منه، فإذا ركع وقف قلبه مع التعظيم للعظيم، فلا يكون فى قلبه أعظم من الله تعالى وحده، فإن رفع شهد الحمد للمحمود فوقف مع الشكر للودود، فاستوجب منه المزيد، وسكن قلبه بالرضا لأنه حقيقة الحمد، وإن سجد سما قلبه فى العلو فقرب من الأعلى، لقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (1).

وأهل المشاهدة فى السجود على ثلاثة مقامات: منهم من إذا سجد كوشف بالجبروت الأعلى، فيعلو إلى القريب ويدنو من القريب، وهذا مقام المقربين من المحبوبين. ومنهم من إذا سجد كوشف بملكوت العزة، فيسجد على الثرى الأسفل عند وصف من أوصاف القادر الأجل فيكسر قلبه، ويخبت تواضعا وذلا للعزيز الأعلى، وهذا مقام الخائفين من العابدين. ومنهم من إذا سجد جال قلبه فى ملكوت السموات والأرض، فآب بظرائف الفوائد، وشهد غرائب الزوائد، وهذا مقام الصادقين من الطالبين.

وهناك قسم رابع لا يذكر بشىء ليس له وصف فيستحق المدح، وهم الذين يجول همهم فى أعطية الملك وأنصبة المماليك، فهم محجوبون بالهمم الدنيئة عن الشهادة العلية، محجوبون بالهوى عن السياحة إلى الإعلام.

فإذا دعا هذا المصلى نظر إلى المدعو فكان هو المرجو، فأخذ فى التمجيد والثناء والحمد والآلاء، ونسى حاجته من الدنيا، واشتغل عن نفسه بالمولى، وعن مسألته بحسن الثناء.

وإن استغفر هذا الداعى تفكر فى أوصاف التوبة وأحكام التائب، وتفكر فيما سلف من الذنوب فعمل فى تصفية الاستغفار، وإخلاص الإنابة والاعتذار، وجد وعقد الاستقامة فيكون له بهذا الاستغفار من الله عز وجل تحية وكرامة.

ففى مثل صلاة هذا العبد وردت الأخبار أن العبد إذا قام إلى الصلاة، رفع

---

(1) سورة العلق الآية 19.

الحجاب بينه وبين الله وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى الهواء فيصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وأن المصلى لينشر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد لو علم المناجى من يناجى ما خرج، وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وأن الله تعالى يباهى ملائكته بصفوف المصلين.

وفى التوراة المكتوب: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يدى مصليا باكيا، فأنا الله تعالى الذى اقتربت من قلبك وبالغيب رأيت نورى.

قال: وكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء، وتلك الفتوح التى يجدها المصلى فى قلبه من دنو الرب تبارك وتعالى من القلب.

وقال رجل للنبى ﴿ﷺ﴾ادع الله تعالى أن يرزقنى مرافقتك فى الجنة، فقال: (أعنى بكثرة السجود)، وروينا عن النبى ﴿ﷺ﴾(ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة، ولو كان شئ أحب إليه من الصلاة لتعبد به ملائكته، منهم راكع وساجد وقائم وقاعد). أو كما قال بعض العلماء: الصلاة خدمة الله عز وجل فى أرضه، وقال آخر: المصلون خدام الله عز وجل على بساطه. ويقال: إن المصلين من الملائكة يسمون فى السموات خدام الرحمن، ويفخرون بذلك على سائر المرسلين من الملائكة.

ويقال إن المؤمن إذا صلى ركعتين عجب منه عشر صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف وباهى الله تعالى به مائة ألف ملك، وذلك العبد قد جمع فيه أركان الصلاة الأربعة من القيام والقعود والركوع والسجود، وفرق ذلك على أربعين ألف ملك، والقائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وكذلك الراكعون والقاعدون، ثم قد جمع الله له أركان الصلاة الستة، من التكبير والتلاوة والحمد والاستغفار والدعاء والصلاة على النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وفرق ذلك على ستين ألف ملك، لأن كل صف من الملائكة عبادته ذكر من الأذكار الستة، فإذا رأت الأملاك ما جمع فيه من الأركان الستة

والأذكار فى ركعتين، عجبت منه وباهاهم الله تعالى به، لأنه قد فرق تلك الأعمال والأركان على مائة ألف ملك، وبذلك فضل المؤمن على الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب على الأملاك، بالتنقيل فى المقامات، بأن جمعت فيه ورفع منها.

والملائكة لا ينقلون، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم، لا ينقل عنه إلى غيره، مثل الشكر والخوف والرجاء والشوق والأنين والمحبة، بل كل ملك له مزيد وعلو من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله فى قلب الموقن، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين فى صفات أوليائه المؤمنين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ {2}وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[1] فمدحهم بالصلاة كما ذكرهم بالإيمان، ثم مدح صلاتهم بالخشوع، كما افتتح بالصلاة أوصافهم، ثم قال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2] فختم بها نعوتهم، وقال فى نعت عباده المصلين الذين استثناهم من الذين يجزعون من المصائب والفقر والمانعين للمال والخير: : ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ {22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[3] ثم نسق النعوت وقال فى آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4] فلولا أنها أحب الأعمال إليه، ما جعلها مفتاح صفات أحبائه وختامها، ولما وصفهم بالدوام والمحافظة عليها، ومدحهم بالخشوع فيها.

والخشوع هو انكسار القلب وإخباته، وتواضعه وذلته، ثم لين الجانب وكف

---

(1) سورة المؤمنون الآية1-3.

(2) سورة المؤمنون الآية 9.

(3) سورة المعارج الآية 22-23.

(4) سورة المعارج الآية 34.

الجوارح، وحسن صمت وإقبال، والمداومة والمواظبة عليها، وسكون القلب والجوارح فيها. والمحافظة هى حضور القلب وإصغاؤه، وصفاء الفهم وإفراده، من مراعاة الأوقات، وإكمال طهارة الأدوات.

ثم قال تعالى فى عاقبة المصلين: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ {10} الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. فجعل أول عطائهم الفلاح، وهو الظفر والبقاء، وآخره الفردوس هو خير المستقر والمأوى، وقال فى أضدادهم من أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ {42} قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [2]. وقال موبخا لآخر منهم: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى﴾[3].

ونهى رسول الله ﴿ﷺ﴾عن طاعة من نهاه عن الصلاة، ثم أمره بها وأخبره أن فيها القرب والزلفى فى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى {9} عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾ [4]ثم قال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [5].

فالمصلون بقيته من خلقه، وورثة جنته من عباده، وأهل النجاة من دار غضبه وإبعاده، جعلنا الله منهم بعطفه ورحمته.

الجماعة وفضلها:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين مرة)،

---

(1) سورة المؤمنون الآية 10-11.

(2) سورة المدثر الآية 42-43.

(3) سورة القيامة الآية 31.

(4) سورة العلق الآية 9-10.

(5) سورة العلق الآية 19.

وفى رواية: (صلاة الجماعة تسبق صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة)[1].

تسوية الصف:

قال أبو مسعود الأنصارى ﵁: (كان رسول الله ﴿ﷺ﴾يمسح مناكبنا فى الصلاة ويقول استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[2].

الموقف:

يصلى الواحد على يمين الإمام والأكثر وراءه، فإن كان رجلا وامرأة وقف الرجل يمين الإمام والمرأة خلفهما، وإن صلى رجال ونساء وصبيان تقدم الرجال، وتأخر النساء وتوسط الصبيان، ولا يقف الإمام فى مقام أرفع من مقام المصلين وراءه، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إذا أم الرجل فلا يقف فى مقام أرفع من مقامهم أو نحو ذلك).

الإمامة:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، قال: فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنا، ولا يؤم الرجل الرجل فى سلطانه- ويروى فى أهله- ولا يقعد فى بيته على تكرمته إلا بإذنه، وإذا كانوا ثلاثة فليؤمهم أحدهم وأحقهم

---

(1) ذكره النووى عن ابن عمر متفق عليه.

(2) رواه مسلم.

بالإمامة أقرؤهم)[1].
وقال ﷺ(إذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا).
وقال ﷺ(ليؤذن لكم خياركم وليؤمكم أقرؤكم)، وقد استخلف رسول الله ﷺابن أم مكتوم يؤم الناس وهو أعمى، والصلاة جائزة خلف كل مسلم، باراً كان أو فاجراً وإن عمل الكبائر.

تخفيف الإمام:

قال ﷺ(إذا صلى أحدكم للناس فليخفف فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول)[2].

المتابعة:

كان أصحاب رسول الله ﷺإذا قال: سمع الله لمن حمده، لا ينحنون للسجود حتى يضع النبي ﷺجبهته على الأرض. فحكم الله تعالى أن المأمومين إذا كبر إمامهم كبروا، وإذا قال: ولا الضالين، يقولون: آمين، وإذا ركع يركعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، قالوا: ربنا ولك الحمد. قال رسول الله ﷺ(إنما جعل الإمام ليؤتم به، فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده، فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد، وإذا سجد فاسجدوا)[3].

---

(1) رواه أبو مسعود الأنصارى وأخرجه الترمذى ومسلم.
(2) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.
(3) أخرجه مسلم عن أبى هريرة.

الجمعة:

قال رسول الله ﷺ(إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه)[1].

والجمعة لها شروط خاصة بها زيادة على شروط الصلاة المتقدمة: منها أنها لا تصلح إلا فى المسجد، ولا تصح إلا فى جماعة، وأقل عددهم إثنا عشر رجلا من أهل الوطن[2]، ولابد فيها من الخطبة قبل الصلاة، ومن تركها مرة لغير عذر اسود ثلث قلبه، والأولى أن تكون فى المسجد العتيق، إلا إذا تعددت المساجد لضيق العتيق، وإلا لا تصح إلا فيه، ومن ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه، وتجب الجمعة على كل مسلم، إلا امرأة أو صبيا أو مملوكا، ولا تجب على مسافر يقصر الصلاة، وتصح منهم جميعا.

النظافة والتبكير للجمعة:

قال ﷺ(لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه، أو يمس من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين، ثم يصلى ما كتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)[3]. وقال ﷺ(إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول) وقال ﷺ(ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنة، ثم كالذى يهدى بقرة، ثم كبشا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون

---

(1) أخرجه مسلم عن أبى هريرة.

(2) العدد عند الشافعية والحنابلة لا يقل عن أربعين ولو بالإمام، وعند الأحناف ثلاثة غير الإمام.

(3) أخرجه البخارى عن سلمان الفارسى.

الذكر)[1]. والمهجر: هو الذى يخرج مبكرا إلى صلاة الجمعة.

أدب المصلى:

لا يقول لأخيه: لغوت عند الخطبة، ولا يقيم أخاه ويجلس موضعه، ولكن يقول تفسحوا، ولا يتخطى الناس فإذا كان أمامه فرجة سعى إليها من بين الصفوف، أو من جوار الجدران، والأولى أن يأتى مبكراً حتى يتمكن من الجلوس فى الصفوف الأولى، فإذا تأخر جلس حيث أفضى به المجلس، ولا يأكل الثوم أو البصل قبل الصلاة، وأن يجلس مستحضرا أنه فى بيت ربه، وأن ربه أمامه فى قبلته، مستحضرا عظمة ربه بقلبه، ويجعل لسانه رطبا بذكره، ويفسح لأخيه فى المجلس ويغض بصره وصوته خشية من الله تعالى، لأن ذلك من آداب الجمعة ودليل على يقظة قلب المصلى، ويصلى ركعتين تحية المسجد عند دخوله، ويباح له أن يسأل العالم قبل الخطبة بما شاء، ويباح للعالم أن يجلس للناس قبل الجمعة وبعدها يسألونه فى أمور دينهم.

وقت الجمعة:

وقت الجمعة هو وقت الظهر، إلا أن السنة أن الإمام يصليها فى أول وقت الظهر فى أيام البرد، ويؤخرها إلى نصف القامة فى أيام الحر حتى يأتى الناس مستظلين.

أذان الجمعة:

كان الأذان للجمعة فى عهد رسول الله ﷺ إذا ارتقى ﷺ المنبر، ودام هذا العمل فى زمن أبى بكر وعمر رضى الله عنهما، فلما كثر الناس فى زمن عثمان

(1) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

ﷺ، أمر بأذان ثان وعليه العمل للآن.

الخطبة:

كان ﷺ يخطب يوم الجمعة خطبتين، يجلس بينهما، والخطبة الواجبة يجب أن تجمع حمد الله تعالى، والصلاة على نبيه ﷺ، والشهادتين، والبشارة، والنذارة. ومن السنة تقصير الخطبة بحسب مناسبة الوقت، وإطالة الصلاة.
وكان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه، وارتفع صوته، واشتد غضبه كأنه منذر جيش، وكان يقرأ القرآن فى كل خطبة، وكان يكثر من قراءة (ق والقرآن المجيد) فى خطبه.

المسبوق فى الجمعة:

إذا أدرك المسبوق ركعة من الصلاة أتم جمعته، وإذا أدرك الإمام فى التشهد أو السجود قام مصليا للظهر.

فضائل يوم الجمعة:

يوم الجمعة خير أيام الأسبوع، فإذا سلم سلم الأسبوع، ليله ونهاره بركة، وهو اليوم الذى كتبه الله على موسى وعيسى، ولكن أخطأه اليهود والنصارى ووفقنا الله له، فعلى المريد الصادق إحياء ليلها ونهارها بنوافل البر وقربات الخير.

الصلوات المسنونة:

إما مؤكدة أو غير مؤكدة. السنن المؤكدة خمس: الوتر، والعيدان، والخسوف،

والكسوف، والاستسقاء.

الوتر وهو ختام صلاة الليل:

وأكثر صلاة صلاها رسول الله ﴿ﷺ﴾على ما ورد ثلاث عشرة ركعة أو إحدى عشرة، وورد أنه ﴿ﷺ﴾صلى الوتر فى أول الليل، وفى وسطه، وفى آخره، وهو واسع فمن صلى فى أول الليل أربعا، ثم قام فى وسط الليل فصلى ست ركعات كل ذلك مثنى مثنى ثم أوتر بواحدة فقد أتى بالسنة، ومن صلى قبل نومه ثلاث أو خمسا أو سبعا أو تسعا أو إحدى عشرة أو ثلاث عشرة أو بعد نومه فى وسط الليل أو آخره فقد أتى بالسنة.

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(من خاف أن لا يقوم فى آخر الليل فليوتر أوله، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل، فإن صلاة آخر الليل مشهودة)[1]، وذلك أفضل. وقال ﴿ﷺ﴾(إن الله تعالى وتر يحب الوتر فأوتروا يا أهل القرآن)[2].

وكان ﴿ﷺ﴾يقرأ فى الركعة الأولى، بـ سبح اسم ربك الأعلى، وفى الثانية بـ قل يا أيها الكافرون، ويوتر بـ قل هو الله أحد والمعوذتين. وكان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾بعد الوتر يقول: سبحان الملك القدوس، ثلاثا يرفع صوته فى الثالثة. وكان ﴿ﷺ﴾فى آخر وتره يقول: (اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

---

(1) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب ورواه مسلم وابن ماجة والترمذى.

(2) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن خديج وأخرجه المنذرى.

صلاة العيدين:

سنة مؤكدة، وقتها: حل النافلة. أى: وقت صحة صلاة السنن، والسنة المجمع عليها أن تصلى العيد بدون أذان وإقامة، وهى كالجمعة وتختلف عنها بأن وقتها ضحوة، وأن الخطبة بعد الصلاة، وأن خطبتها تفتتح بالتكبير، وأن التكبير فى الركعة الأولى سبع تكبيرات بتكبيرة الإحرام[1]، وفى الثانية ست بتكبيرة القيام[2]، والسنة أن تصلى فى الصحراء[3]، ما لم يكن مطر، والسنة أن الإمام لا يخرج من بيته إلى الصلاة إلا إذا حلت الصلاة، والمصلى الأولى له أن يمكث بعد صلاته حتى يسمع الخطبة، ويسن أن يفطر قبل خروجه للصلاة فى عيد الفطر، وبعد رجوعه من الصلاة فى العيد الأضحى، ويسن له أن يغتسل ويتطيب، ويتجمل لشهود الصلاة، وما يباح فى غير يوم العيد فهو سنة فيه من اللعب والأغانى، والتردد على الإخوان، والأكل والشرب، وإدخال السرور على المسلمين.

مشاهد فى العيد:

جدد العامة فى هذا اليوم ثيابهم، وطهروا أجسامهم، وجدد الخاصة من السالكين نواياهم وطهروا قلوبهم، وجدد خاصة الخاصة من الواصلين تفريدهم حبيبهم ﷻ تفريدا أنساهم أطوارهم الكونية فى النشأة الأولى، وتنقلاتهم البرزخية والأخروية فى النشأة الآخرة حتى كأنهم أعيدوا إلى ما كانوا عليه تحقيقا لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[4].

---

(1) التكبير عند الأحناف ثلاث، وعند الشافعية سبع بعد تكبيرة الإحرام.

(2) التكبير عند الأحناف ثلاث بعد قراءة الفاتحة والسورة.

(3) قال الشافعية: فعلها بالمسجد أفضل لشرفه.

(4) سورة الأنبياء الآية 104.

وجدد خاصة خاصة الخاصة من أهل التمكين رعايتهم لعظمة الله المقدسة حضوراً فى مقام لدن، وغيبة عن كل ما سواه ﷻ، تجملا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[1].

أما أهل القرب فى القرب، وأهل العيان فى الحب فجددوا العهد الوثيق احتفاء بنفخة القدس إلى القدوس العلى، تلقت تلك النفخة من الحق بالحق: (يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ) والكل مواجه بكلمات يتلقاها، وهذا هو العيد عند أهل المقامات التى يمكن أن تبين بالعبارة أو يرمز إليها بالإشارة.

أما من أحضرهم لديه، وأطلعهم به عليه، وأحبهم فجذبهم إليه، فلهم من المواجهات ما لا يباح ولا يلاح إلا لهم عند ربهم، فهم المطهرون من منازعة صفات الربوبية، الذين أقبل الله عليهم بوجهه وأقبل بهم عليه، فكان سمعهم وبصرهم ولسانهم ويدهم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2] به له فى مظهره. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.هذا هو العيد عند من ذاقوا حلاوة الإعادة.

صلاة كسوف الشمس:

إذا كسفت الشمس أو بعضها يسن صلاة ركعتين فى جماعة كل ركعة بركوعين يطيل القراءة والركوع بقدرها، ثم بعد أن يركع الركعتين يسجد سجدتين طويلتين كالركوع، ثم يقوم للركعة الثانية فيركع ركعتين كالأولى، ثم يسجد سجدتين ثم

(1) سورة الذاريات الآية 50.

(2) سورة السجدة الآية 17.

يخطب بعد السلام يفهم الناس فيها تلك الآية وقدرة الله والخوف من عقوبته.

صلاة خسوف القمر:

إذا خسف القمر أو بعضه يسن على من تجب عليه الصلاة أن يصلى منفردا وفى بيته أفضل، ركعتين ركعتين حتى ينجلى.

صلاة الاستسقاء:

إذا حبس المطر، أو تأخرت زيادة النيل، يسن على المسلمين أن يخرجوا، والأولى أن يشهد هذا المشهد الرجال والنساء، والعبيد والإماء، والأولى أن يكونوا بهيئة رثة وخشوع وذل، ثم يصلون ركعتين فى الصحراء، ثم بعد الصلاة يستقبل الإمام القبلة ويحول رداءه، ويستقبل الجماعة القبلة ويحولون أرديتهم، ويرفع يديه، ويدعو، مبتهلا ويؤمنون، ثم يخطب لهم خطبة ويعظهم ويحثهم على التعاطف، والتراحم، والتواصل، والتوبة، ويكرر هذا العمل فى أيام متعددة حتى يمطرهم الله الغيث.

نوافل البر:

ركعتا الفجر قبل صلاة الصبح، ركعتا الإشراق، ركعتا الضحى أو ثمان ركعات، ركعتا الهاجرة أو أربع قبل الظهر، وركعتان بعده أو أربع، وركعتان قبل العصر أو أربع، وركعتان خفيفتان قبل المغرب، وركعتان أو ست بعده، وركعتان قبل العشاء، وركعتا القيام بعد صلاة العشاء قبل النوم أو أكثر، وركعتا التهجد بعد النوم أو أكثر كما تقدم فى صلاة الوتر. والسنن التى رغب فيها رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ سبع عشرة ركعة بما فيها الوتر.

صلاة الجنازة:

يقف الإمام تجاه رأس الرجل، وتجاه صدر المرأة، ويكبر أربع تكبيرات بين كل تكبيرة وتكبيرة يحمد الله تعالى، ويصلى على النبى ﴿ﷺ﴾، ويدعو للميت بما شاء، وأحب الدعاء ما ورد عن رسول الله ﴿ﷺ﴾بالسند الصحيح وهو: (اللهم إنه عبدك وابن عبدك وابن أمتك كان يشهد أن لا إله إلا أنت، وأن مُحَّداً عبدك ورسولك وأنت أعلم به، اللهم إن كان محسنا فزد فى إحسانه، وإن كان مسيئا فتجاوز عن سيآته، اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده). وتؤنث الضمائر، فيقال: (اللهم إنها أمتك وبنت أمتك، كانت تشهد أن لا إله إلا أنت، وأن مُحَّداً عبدك ورسولك، وأنت أعلم بها، اللهم إن كانت محسنة فزد فى إحسانها، وإن كانت مسيئة فتجاوز عن سيآتها، اللهم لا تحرمنا أجرها، ولا تفتنا بعدها).

المشى أمام الجنائز:

السنة أن يمشى الناس أمام الجنازة، وقد فعل ذلك رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأبو بكر، وعمر رضى الله عنهما، والخلفاء رضى الله عنهم، والأولى أن الناس يمشون أمامها، والذين يتنافسون فى الأجر ممن يتبادلون حملها يمشون خلفها، وعن يمينها وعن شمالها وأمامها، والراكب يمشى خلفها.

البكاء على الميت:

أما دمع العين وحزن القلب فمن الرحمة التى أودعها الله فى القلوب، وإنما يرحم الله من يرحم، وليس فى ذلك إثم، وإنما الإثم قول الجاهلية، ولطم الخدود، وشق الجيوب، وتسويد الأيدى والثياب.

وفى الحديث اشتكى سعد بن عبادة شكوى فأتاه النبى ﴿ﷺ﴾يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود، رضى الله عنهم، فلما دخل وجده فى غاشية، فبكى النبى ﴿ﷺ﴾فلما رأى القوم بكاء النبى ﴿ﷺ﴾بكوا، فقال: (ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه. أو يرحم، وأن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه)[1]. وقال ﴿ﷺ﴾(ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية)[2] وقال: (أنا برئ ممن حلق وسلق وخرق)[3]. أى أنه برئ ممن أزال شعر رأسه، وصاح ورفع صوته، وشق ثوبه ومزقه.

فالبكاء على المريض عند الموت رحمة، وبعد الموت الأولى الاسترجاع والصبر إلا ما كان من دمع العين، وحزن القلب فإنه مشهد عبرة وذكرى للآخرة يجعل كل حى يتأهب له ويستعد. ومن السنة صنع الطعام لأهل الميت لشغلهم به، وتخرج الصدقات التى وصى بها من ماله، ولا يتصدق من ماله بعد موته من غير وصيته إذا كان له ورثة قصر فإنها نار لمن أخذها، ولا بأس بأن يتصدق عليه من مال والده أو ولده الرشيد.

ومن البدع المضلة التى تملأ القبور نارا، ما يعمله النساء من البكاء عند القبور صباحا ومساء ومن لطم الخدود، وما يعمله الرجال من إعداد الفرش الفاخرة والأنوار الكثيرة، وإحياء الليالى الكثيرة رياء وفخرا وضياعا لمال الأيتام[4].

---

(1) أخرجه البخارى عن ابن عمر وابن عباس والمعنى إن أوصى الميت أهله بالبكاء والنواح عليه.

(2) أخرجه البخارى عن مسروق عن عبد الله.

(3) أخرجه البخارى.

(4) يكره لأهل المصيبة أن يجلسوا لقبول العزاء عند الشافعية والحنابلة، وقال الحنفية: إنه خلاف الأولى، وقال المالكية: إنه مباح.

والأولى أن يكفن الميت بالثياب البيضاء بعد تغسيله ثلاث مرات، أو خمس مرات بالماء والسدر، والأولى أن لا تتبع الجنائز بالنار كالمباخر، والسنة الصمت أمام الجنائز والتوجه إلى الله بالقلوب أن يقبل الميت ويغفر له، ويتفكر معتبرا فى عاقبة الدنيا ويجعل نفسه شفيعا عند الله للمتوفى، والسنة أن يلحد الميت فى حد مسنما، ومن البدع بناء القبور[1] وتجصيصها وعمل الشرافة عليها، ولو أن القبور المجصصة هدمت وسويت بالأرض لكان خيراً، وإنى لأحب أن يحفر لى ويعمق ويوسع، ثم ألحد وينصب على اللبن ثم تسوى الأرض فوقى وتزرع، وأرجو أن يكون روضة من رياض الجنة[2].

قصر الصلاة:

لما كان المسلم مطالبا بحقوق كثيرة يحتاج للقيام بها إلى الأسفار، كالحج وطلب العلم، وصلة الرحم، والإصلاح بين المتخاصمين، وعيادة المريض، وزيارة الإخوان، والمسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان، وجلب المتاجر من الثغور الأجنبية إلى بلاد الإسلام، وكالرحلة فى تعليم الصنائع النافعة، وكالسياحة فى مشاهدة آثار الله تعالى، وكالسفر معاونة على البر والتقوى، لتلك الحكم ولغيرها مما هو فروع عنها رخص الله تعالى للمسلمين أن يقصروا الصلاة.

القصر سنة بشرط أن يكون فى الصلاة الرباعية التى وجبت عليه بعد مفارقته بساتين البلد لأهل الحضر، ولأهل الخيم بعد مفارقة البيوت، وبشرط أن يكون

(1) إذا كانت أرض الدفن طينية ويخشى وصول الماء إلى جسد المتوفى فيجوز دفنه فوق الأرض والبناء عليه.

(2) قال الشافعية: يجوز الكتابة على قبر العالم أو الصالح تعريفا باسمه وما يميزه.

السفر سفر طاعة من الأنواع المذكورة، وأن تكون المسافة قصر وهى أربعة برد تقدر بثمانية وأربعين ميلا، وهذه المسافة تساوى ثمانين كيلو ونصف كيلو ومائة وأربعين متراً، ويقضى الرباعية إذا فاتته فى السفر، إذا صلاها بعد رجوعه صلاة سفرية، ويتم من وصل إلى داره أو وصل إلى بلد ينوى بها إقامة أربعة أيام. وبدخوله محل زوجة دخل بها ولو كان فى نصف طريقه، ولا يتم إذا نزل ببلد ينوى السفر منها ولم ينو الإقامة أربعة أيام، وحبسه فى البلد حاجة ينتظر تسهيلها ولو مكث شهور، وكره اقتداء مسافر بمقيم، فمن نوى القصر وأتم ساهيا بطلت عليه وبالأولى عامدا، أما إن سها فى الصلاة، بأن زاد ركعة فأحكامه أحكام السهو المتقدم. والأولى للمسافر أن يدخل على أهله نهارا، وأن يتحفهم بهدية، وأن يسرع فى الرجوع بعد قضاء حاجته، وتلك الرخصة لكل مسافر، براً وبحراً وجواً.

صلاة الخوف:

لما كان الجهاد إنما شرع لإعلاء كلمة الدين، والمحافظة على أركانه، فإن وجبت الصلاة فى وقت الجهاد، فإما أن يكون المسلمون فى ملحمة كبرى، وهو امتزاج جيش المسلمين بجيش العدو، فالصلاة على ظهور الخيل، وبالإيماء، والمصلى يضرب بسيفه وهو فى صلاته ويهجم على العدو وهو فى صلاته، وإن كان الجيش فى استعداد فالصلاة أن يقسم الإمام الجيش إلى قسمين يأخذ قسما يصلى به، فإن كانت الصلاة سفرية، أو كان فى الصبح، صلى بهم ركعة ثم وقف وصلى الجماعة الثانية وهو واقف، ثم انصرفوا إلى إخوانهم فاحتلوا أماكنهم وجاء النصف الثانى فأدرك الإمام واقفا فنووا الصلاة معه وكبروا وقرأ الإمام وصلى بهم الركعة الثانية له التى هى أولى لهم ثم سلم الإمام، وقاموا فأتوا بالثانية وسلموا وأتوا إخوانهم، وفى صلاة المغرب يقسم الإمام الجيش نصفين نصف يقف أمام العدو، والنصف الآخر يصلى ركعتين من المغرب، ثم يقومون مع الإمام للثالثة، فيقف

الإمام ويتم الجماعة من غير الإمام ثم يسلمون وينصرفون فيحلون محل إخوانهم أمام العدو، وينصرف من كان أمام العدو إلى الإمام وهو واقف فيصلى بهم ركعة ويسلم ويتمون بعد سلامه المغرب. وإن كانت الصلاة رباعية قسم الجيش كما تقدم وعمل كما عمل فى الصلاة الثنائية، إلا أنه يصلى بالقسم الأول ركعتين ويقف وهم يتمون، ويصلى بالقسم الثانى الركعتين ويسلم وهم يتمون.

سجود التلاوة:

لما كان الاقتداء بمن هداهم الله مشروعا فى العقيدة والأخلاق الجميلة، سن رسول الله ﴿ﷺ﴾ الاقتداء به فى الأعمال الفاضلة، فسن رسول الله ﴿ﷺ﴾ سجود التلاوة ويتأكد لقارئ أو سامع توفرت فيه شروط الصلاة ولو كان فى صلاة فريضة أو نافلة عند تلاوة الآى التى تأكد السجود عندها، والآى التى يسن السجود عند تلاوتها أو سماعها يسجد الإنسان بتكبيرة إحرام، والأولى تركها ويكبر حال سجوده، ثم يرفع بتكبير من غير تسليم، والأولى تلاوة هذا الدعاء فى السجود: (سجد وجهى للذى خلقه، وشق سمعه وبصره، اللهم اكتب لى بها عندك أجرا، وامح عنى بها وزرا، واغفر لى بها كما غفرت لعبدك داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام).

الآى التى يتأكد السجود عندها إحدى عشرة آية:

آخر الأعراف عند قوله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾، وعند قوله تعالى: ﴿وَالآصَالِ﴾ فى الرعد، وعند قوله تعالى: ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ فى النحل، وعند قوله تعالى: ﴿خُشُوعاً﴾ فى الإسراء، وعند قوله تعالى: ﴿وَبُكِيّاً﴾ فى مريم، وعند قوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾ فى الحج، وعند قوله تعالى: ﴿نُفُوراً﴾ فى الفرقان، وعند قوله تعالى: ﴿الْعَظِيمِ﴾ فى النمل، وعند قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فى السجدة، وعند قوله

تعالى:﴿وَأَنَابَ﴾ فى ص، وعند قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ فى فصلت، وكره لمحصل الشروط تركها[1].

صلاة التسابيح:

عن ابن عباس رضى الله عنهما: (أن النبى ﴿ﷺ﴾قال للعباس بن عبد المطلب: يا عماه، ألا أعلمك، ألا أمنحك ألا أفعل بك عشر خصال، إذا أنت فعلت ذلك غفر لك ذنبك أوله وآخره، خطؤه وعمده، صغيره وكبيره، سره وعلانيته، أن تصلى أربع ركعات، تقرأ فى كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة قلت وأنت قائم: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة، ثم تركع فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا، ثم تهوى ساجداً فتقولها عشرا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً قبل أن تقوم، فذلك خمس وسبعون فى كل ركعة إن استطعت أن تصليها فى كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل فكل جمعة، فإن لم تفعل ففى كل شهر، فإن لم تفعل ففى كل سنة، فإن لم تفعل ففى عمرك مرة)[2].

---

(1) وهناك ثلاث آيات لا يتأكد السجود عندها عند المالكية وهى: قوله تعالى: ﴿واعبدوا﴾ فى النجم، وقوله تعالى: ﴿لا يسجدون﴾ فى الانشقاق، وقوله تعالى: ﴿واقترب﴾ فى العلق. وآية (ص) لا يتأكد السجود عندها عند الشافعية والحنابلة، وزاد الشافعية والحنابلة سجدة فى آخر الحج عند قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أركعوا واسجدوا﴾ إلى قوله: ﴿لعلكم تفلحون﴾.

(2) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب عن عكرمة عن ابن عباس.

الخواطر فى الصلاة:

اعلم أن المصلى يناجى ربه فعليه ما استطاع أن يوجه قلبه إلى صوب القدس الأعلى لترد عواطف اللطائف وأنوار العوارف، وعلىّ الواردات حتى يتلقى بقلبه عن ربه سبحانه حكم الصلوات، وجمال القرب.

ولما كان القلب يلم به لمة من الملك، ولمة من النفس، ولمة من الشيطان، فعلى المصلى إذا أورد الله عليه واردا ذكره بخير من علم أو حال أو عمل فعليه أن يسارع لفهمه فى العلم، ويتحلى به فى الحال، ويسارع إلى عمله فى العمل، فوارد العلم كفهم الآيات التى يتلوها، وكشف حكم الصلاة، ووارد الحال كوارد الحق بانكشاف أسرار عظمة الذى وجه وجهه له، فيحصل له الخشوع والخشية، ووارد العمل كوارد الحق الذى يذكره بحق عليه لله أو للخلق، أو بعمل من أعمال البر، كان ناسيا له.. إلخ.

فى هذا كله يجب عليه المسارعة إلى العمل لأن الله تعالى واجهه بها وهو فى أحب الأعمال إليه، وذكره بها وهو فى أجمل الأحوال.

وما خطر على قلبه مما يكرهه الله تعالى ويمقت المصلى عليه، فعليه أن يتباعد عنه لأنه سبحانه وتعالى ما أورده عليه فى وقت الصلاة وهو فى مواطن القرب إلا ليوبخه أو يعاتبه، فالتباعد عنه قربة من الله جلت قدرته، وعلامة على عناية الله بالعبد.

وما خطر على قلبه من خواطر التمنى والهوى، أو ذكر ما مضى من الحظوظ، أو ما سيأتى فإن ذلك من وسوسة الشيطان، كره أن يفوز المصلى بالأنس بربه وبكمال فراغ قلبه وقالبه لجنابه العلى، ليحرمه بذلك أن يشهد عند كل ذكر من أذكار الصلاة ما يوجبه الذكر من تدبير، أو تعظيم، أو حمد، أو دعاء، أو استغفار.

وما خطر على قلبه من أمر معاشه، وتصريف أحواله، وتدبير شأنه من المناجاة، فذلك من قبل النفس وفكرها بما توسوس به من أمور الدنيا. أما إن خطرت على

قلبه همة محظورة، أو فكرة فى معصية مأزورة، فهذا هو الهلاك. والبعد يكون عن وصف النفس الأمارة باستحواذ العدو المغوى فهو علامة الإبعاد، والحجاب دليل المقت، والإبعاد والإعراض، فإذا ابتلى المصلى فى صلاته بهذه المعانى فقد اختبر بذلك، فعليه أن يعمل فى نفيه مع نفس بدوه، أى: وقت ظهوره، ولا يمكنه من الظهور من قلبه فيملكه، ولا يصغى إليه بعقله فيستولى عليه، ولا يحادثه ولا يطاوله فيخرجه من حد الذكر واليقظة إلى مسامرة الجهل والغفلة، وكل عمل محظور فالهمة به محظورة، وفيه نقص، وكل عمل مباح فالهمة به مباحة، وفيها فضيلة.

وما خطر على قلبه من الخيرات المتأخر فعلها فليعقد النية بذلك، فإنه قد ذكر به وأريد منه، ثم ليمض فى صلاته، ولا يشتغل بتدبيره كيف يكون، ومتى يكون، أو كيف أكون فيه وعنده إذا كان، فيفوته الإقبال فى الحال بتدبير شأنه فى المآل، وهذا هو استراق من العدو عليه، وإلقاء من خدعوه إليه، أى: استعباد الشيطان وغوايته له، فإن جاهد هذا المصلى نفسه عن مسامرة الفكر، وقابل عدوه فى قطع وسوسة الصدر كان مجاهدا فى سبيل الله تعالى، مقاتلا لمن يليه من أعداء الله تعالى له أجران. أجر الصلاة للتقرب إلى الكريم، وأجر المصارمة والمحاربة لعدوه الرجيم.

الفصل الثانى: الصيام

الصيام وفرضيته وإثباته وسننه وأركانه

تعريف الصيام:

الصيام هو الفريضة التى هى ترك فى الحقيقة، وهو العمل الروحانى الذى يصير الإنسان فيه كالملائكة الروحانيين، لأن الإنسان يترك فيه ضروريات الحياة الجسمانية ولوازم النفس الحيوانية. والصوم رمز يشير إلى أن الإنسان (حيوان وملك) فهو بقوته الحيوانية يعمل أعمال البهائم. وبقوته الملكية يعرف الله ويعبده، ويتشبه بسكان ملكوته الأعلى، فيترك لوازم قواه الحيوانية بالصوم ليتذكر قوته الملكية، وليطهر نفسه من كثافة التوسع فى الأعمال الحيوانية، فإن النفس يقوى طمعها وميلها إلى الحرص والأمل والحماقة والخيانة وبغض بنى قومه كلما توسعت فى كل ما يقوى الجانب الحيوانى منها، ويكون بذلك عن رتبة الإنسان قريباً من الأنعام لتشبهه بها، فإذا قلل من ضروريات حياته الحيوانية وتشبه بحياته الملكية من الصوم والتفقه كان أشبه بالملائكة منه بالحيوان، وكان الصيام تزكية لنفسه وشفاء لها من أمراضها وصفاء لجوهرها، حتى تتكمل بكمالها الحقيقى، الذى تكون به فى مقعد صدق عند مليك مقتدر تخدمها الملائكة.

فالصوم عبادة من حيث إنه فرض فرضه الله، وشفاء من حيث إنه يرد للنفس صحتها، وتزكية من حيث إنه جلاء للنفس من التطرف عن الحالة الوسطى التى هى الفضيلة، وبه تتجمل النفس بالرحمة والصلة والبر والإحسان والتواضع، فيكون الصائم عبداً عاملاً لله بتركه ما نهاه الله عنه من الأكل والشرب وملامسة النساء، مما أباحه الله له فى غير رمضان، وبذلك يكون متجملاً بجمال الروحانيين، ومتخلقاً بأخلاق الله من الرحمة والعطف والإحسان والود والشفقة، ويكون مجاهداً

نفسه فى ذات الله لحبسها عن شهواتها، فيكون له- بإطاعة الأمر- النعيم المقيم، ويحظى بالتشبه بالروحانيين فى مشاهدة ملكوت الله، وبالتخلق بأخلاق الله بنعيم النظر إلى وجهه الكريم سبحانه.
فما أيسر ما ترك، وما أعظم ما نال!!

من معانى الصيام:

الصيام جهاد الجسم، وسياحة العقل، ومشاهدة الروح ومن صام بتلك الحقائق فقد نفذ من أقطار السموات والأرض بسلطان الحق، ومن صام صيام أهل العادة فترك الأكل والشرب وملامسة النساء، ولم يجاهد جسمه ولم يسح بعقله ولم يشهد بروحه، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ولا من قيامه إلا العناء والسهر.
والصيام التجرد من الإنسانية بعد التجرد من الحيوانية، وكيف لا يكون كذلك وأنه تعالى يقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ [1]، لأن الصيام خروج عن مرتبة الإنسانية، للاتحاد بالمكانة الملكوتية، فالصائم لا يتكلم مع الإنسان مع أنه مجانسه ومشاكله، وقال سبحانه: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾[2]، فنفت الآية الأولى كلام الأناسى ولم تنف الكلام مع الملائكة، وفى الآية الثانية نفت كلام الأناسى وأثبتت الكلام مع الملائكة، وذلك لأن الحقائق الحيوانية أمسكت عما تقتضيه المجانسة، مجاهدة لتفوز بالمشاهدة، رزقنا الله الصيام الذى به نجانس العالم الأعلى إنه مجيب الدعاء رب العالمين.
والصيام تجريد مما يناسب الإنسانية، وتخلية عما يناسب الملكية، واتصال بعالم

---

(1) سورة مريم الآية 26.
(2) سورة مريم الآية 10.

اللاهوت[1] فى صور الناسوت[2] وهو العجب العجاب.

والصيام ترك ما تحب، مسارعة إلى ما يحب سبحانه، وخروج من سور الحيطة[3] والتحديد وباعث الشهوة [4] والتجديد، بل ولوازم الحياة الإنسانية تشبهاً بأخلاق رب البرية.

---

(1) الروح.

(2) الجسم.

(3) الكون.

(4) الغرائز

الصيام فريضة على كل مسلم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {183} أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أى: يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ أى: فرض، والصيام لغة مصدر صام وهو الترك، والصيام شرعاً هو الإمساك، ومن تدبر الصوم فعلم أن الله تعالى حرم علينا فى الفطر من صغيرة وكبيرة.

فقول الفقهاء الإمساك عن شهوتى البطن والفرج يقتضى حبس جميع الجوارح عن الاستطالة فيما أباحه الله تعالى من الضروريات، فلا يسمع ما يكره سماعه شرعاً، ولا يتكلم ولا يشم ولا يمس إلا بقدر الضرورة، مع مراقبة أنفاس الصوم واستحضار أنه صائم. ومن أمسك عن شهوتى البطن والفرج وتوسع بالجوارح فيما أباحه الله أو تعدى حدود الله تعالى فقد انتهك حرمة الصوم. وفاته من أجر الصيام بقدر ما أفرط به من جوارحه وهذا هو الصيام شرعاً.

(1) سورة البقرة الآية 183، 184.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ووجه الشبه جائز أن يكون فى حكم الفرضية فقط، وجائز أن يكون فيها وفى تعيين الزمان والعمل، فإن كان الأول فيكون تعيين زمان صيامنا وبيان مقداره فى كل يوم خاصاً. وهذا ما يظهر بدليل قوله: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ وبما ورد أن الصيام كان أول فرضه ثلاثة أيام من كل شهر ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ وبدليل الفدية التى جعلها الله رحمة بنا فى أول عهدنا بالصيام بعد أن أباح للمريض والمسافر القضاء فى هذه الآية، ثم نسخ هذا الحكم بآية قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ وذكر المريض والمسافر أيضاً بياناً للناسخ والمنسوخ، وإن كان الحكم الثانى- وهو أن وجه الشبه المطابقة فى كل معانى الصيام- يكون الذى فرض علينا هو ما فرض على الذين من قبلنا وهو شهر رمضان، وكان الصائم يترك الأكل والنكاح من صلاة العشاء إلى صلاة العشاء، حتى خفف الله علنا بقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ وبقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ﴾..إلى آخر الآية. وقد ورد هذان التأويلان عن أفراد من الصحابة.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أى: تتقون من الوقوع فى المفطرات فتنالوا بتقواكم رضوان الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ منصوبة على الظرفية بنزع الخافض، أو أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أن تصوموا أياماً معدودات، وتأولها عطاء أنها صيام ثلاثة من كل شهر بحجة أن الشهر لا يقال له أياماً معدودات، وقال بعضهم: إن الأيام المعدودات هى شهر رمضان وأن الثلاثة أيام التى كان يصومها ﴿ﷺ﴾قبل نزل الآية كانت تطوعاً، وهذا هو الأولى لسياق الآية، لأنه لم يرد نص صريح ولا برهان

على أن الله فرض علينا أولاً صيام ثلاثة أيام وعليه عمل الأمة سلفاً وخلفاً.

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يبين الله لنا أن المريض الذى لا يقوى على الصيام خوفاً من تأخير برء أو زيادة مرض، فالحكم أنه يفطر ويقضى عدة الأيام التى أفطرها بعد شفائه، وأن المسافر الذى لا يقوى على مشقة السفر يفطر ويقضى عدد الأيام التى أفطرها، ملاحظاً حرمة الشهر فى بقية الجوارح، حتى يكون من أهل التقوى الصائمين بكل الجوارح إلا البطن.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ رفع الله تعالى عن المريض وعن المسافر مشقة الصوم رحمة بهما، وخفف عمن امتحنهم بفرض الصيام فرخص لهم فى الفدية عن الصيام حتى نسخ هذا الحكم بالآية التالية. وجائز أن يكون طاق يطيق قام به بسهولة، وأطاق يطيق كعسر عليه أو صعب كالشيخ الهرم وكالمرأة الحامل والمرضع، إن طال حملها ورضاعها وظهر ضعفها، أو كمن لا يجد محلة يأوى إليها عند فطره وسحوره حتى يجد، فإن وجد صام بقية الشهر وقضى عدد الأيام التى أفطرها، ويكون حكم هذه الآية لم ينسخ بالنسبة لمن ذكرناهم.

﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ الفدية هى ما يفديه المفطر، بدلاً من صومه للمسكين طاعة لحكم الله تعالى، والفدية هى صاع من بر أو شعير أو طعام، ولفظة فدية مرفوعة على أنها خبر لمبتدأ، محذوف أى: فحكمه فدية، أو مبتدأ لخبر محذوف تقديره فعليه فدية.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ والتطوع هو نوافل البر، والمعنى أن الله يرغبنا فى عمل الخير فى رمضان، بأن من أطعم مسكينين عن اليوم أو أكثر كان ذلك تطوعاً

منه مقبولاً. وقد بشر المتطوعين أن التطوع خير لهم عند الله، ووعد الله العبد بخير لا تعلم نفس قدره.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾يبين الله تعالى لنا العمل الأفضل لديه بعد أن رخص للمريض والمسافر فى الفطر وكلفهما بالقضاء، لأن القضاء يسقط العقوبة، ثم رغبنا فى الأفضل فقال، وصيام المريض والمسافر خير له، لينال فضل صيام رمضان فى رمضان ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: تعلمون خير الخيرين فتسارعون إليه وهو الصيام.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (1).

عين الله لنا زمان فريضة الصوم بعد أن قال سبحانه: ﴿أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ﴾ فشهر رمضان بدل من الصيام فى قوله سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ ولك أن تقول أنه خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ لخبر محذوف ومعنى ﴿شهر﴾ الشهرة، لأن الشهر مواقيت لمصالح الناس وقضاء حوائجهم. ومعنى رمضان مأخوذ من الرمضاء التى ترمض فيه الفصال من حرارة الصيف، وسمى بهذا الاسم لأنه جاء فى زمن الصيف حال التسمية، وجائز أن تقول: ترمض فيه معاصى العباد، أى: تزول بالصيام.

﴿الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أى: الموصوف بإنزال القرآن. ومعلوم أن القرآن أنزل نجوماً متفرقة، فكيف يصح أن يكون أنزل فى رمضان؟!

---

(1) سورة البقرة الآية 185.

والجواب: أن القرآن نسخته السفرة الكرام من أم الكتاب ليلة النصف من شعبان إلى ليلة الرابع والعشرين من شهر رمضان، وأنزل إلى سماء الدنيا فى الليلة الخامسة والعشرين منه، وجائز أن يفتتح الله إنزال بعضه فى رمضان فيكون كإنزال الكل.

﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أى: بياناً لما فيه سعادة العالم فى دينهم وأخراهم وفى مصالحهم الدنيوية.

﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ أى: مبينة للحقائق التى بها تزكية النفوس، وتثقيف العقول، وعمارة القلوب بالغيب المصون، الذى ترتسم أسراره على جواهر النفوس. وهذا معنى ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ أى: الآيات الفارقة بين الحق والباطل، فيما يتعلق بالأخلاق والآداب الاجتماعية المنزلية وبالمجتمعات فى المدن وبالمجتمع العام الإسلامى، وما يتعلق بتلك من أحكام فى المعاملات التى تقتضى المعارضات والمفاوضات، وقد ينتج منها المعارضات، فبهذا الفرقان العدل والميزان. فهذا الكتاب الذى أنزله الله على نبيه ﴿ﷺ﴾ جامع لما يلزم الفرد والمجتمع من عقائد التوحيد، ومن عبادة الله تعالى، ومن أخلاق ومعاملات، من أول وضع النطفة فى رحم الأم إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، قال على عليه السلام: (لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله).

وإنما سعد سلف الأمة بالعمل بما أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام، وما ذل من ذل من الخلف حتى تمكن منهم من كانوا بالأمس عبيداً يباعون فى أسواقهم من بنى الأصفر إلا بمخالفة هذا الكتاب المجيد، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما يسعد آخر هذه الأمة بما سعد أولها).

قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أى: من أدركه الشهر وهو بين أهله فالحكم صيامه، وقد تعينت فريضة صوم رمضان بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وبقوله تعالى: ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾ فى تلك الآية إشارة روحانية وهى أن تلقى

هذا الكتاب المجيد لا يكون إلا بالروح المجردة من ملابسة مقتضيات الهيكل الإنسانى. وإنما تحجب الروح بميل هذا الهيكل إلى لوازمه الضرورية والكمالية، وحرصها على تحصيلها، وبذلك تحجب الروح عن مكاشفة الغيوب، بشغل الجوارح فيما يدعو إليه الجسم، يأمرنا الله بصوم الشهر الذى أنزل فيه الكتاب، لأن الصيام رياضة تصفو بها النفس فتتلقى أسرار القدس، لأن تلك الأسرار العلية لا تجانس المادة ولوازمها، ففرض الله علينا تزكية النفس بالصيام لتتأهل لقبول تلك الأسرار، ومن هذا نعلم أن السالك إلى الله تعالى يجب أن يجعل له رياضة خاصة بجهاد قاهر يكبح جماح النفس، من الطمع فى غير مطمع مما أباحه الله تعالى لنا مما يقوى به الدم، وتنفتح به العروق ويجعل الإنسان كالسبع الضارى لا يتسلى عن مألوفه، وقد عين الله تعالى زمن الصيام محدوداً بعد أن أخبر عنه فى الآية السابقة بأيام معدودات ولم يرد حكم صريح يعين عددها وزمانها إلا هذه الآية.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تقدم تأويلها، ولم تأت هذه الآية هنا تكراراً لأنها بيان وتفسير للآية السابقة فى التأويل الذى أولناه أن الآية السابقة المراد بها رمضان، ولم يذكر هنا سبحانه: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ على هذا التأويل ببقائها على حكمها. وقد بينت ذلك محصوراً فى الرجل الكهل والمرأة العجوز وفى المرضع والحبلى كما قررنا.

﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وقبل أن نكتب تأويل هذه الآية نبين سراً يجب رعايته. يقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ﴾ لفظة (يُرِيدُ) هنا ليست من الإرادة الواجبة الوقوع بل هى من الإرادة المحبوبة لله التى هى الأمر. فإن الإرادة قسمان: قسم واجب الوقوع وهى بمعنى أمر ورغب كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ

عَنكُمْ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾[2] أى: لا يأمر الله بالجهر بالسوء من القول إلا من ظلم، وهنا يأمركم الله بالإفطار فى حالة المرض والسفر تخفيفاً عنكم بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنها لو كانت من الإرادات الواجبة الوقوع لم يقل تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وبهذه الآية يظهر لنا جلياً أن الله تعالى لم يكلفنا بهذه الأحكام ليشق علينا أو يكلفنا ما لا نطيق، إنما ذلك لتظهر محبتنا له، وإيثارنا لأوامره العلية، وإخلاصنا لذاته فى معاملاتنا وعباداتنا وأقوالنا وأحوالنا.

فرائض الصوم عند آل العزائم:

دوام رعاية القلب: لأن الصوم واجب لله تعالى وأنه يتقرب إلى الله تعالى به، لا رغبة فى جنته ولا خوفاً من ناره، لأنه بالصيام ترك شهوته وملاذه التى هى كالجنة. ومن ارتفعت همته فترك الجنة فهمته متعلقة بالله تعالى. ثم كمال الإخلاص فى العمل بحيث يشهد معونة الله له فى الصوم وتوفيقه معتقداً بالصوم سقوط ما فرض الله عليه طاعة لأمره. ويتجنب الأكل والشرب والجماع إقبالاً على الله تعالى ورغبة فى نيل القبول منه سبحانه وهذه فرائض الصيام عند آل العزائم. وهذا الصائم يباهى الله به ملائكته وهو السائح فى ملكوت الله تعالى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ [3] يعنى بالصوم، ومن وفقه الله لتلك الفرائض لا يسهو عن صيامه نفساً.

---

(1) سورة النساء الآية 28.

(2) سورة النساء الآية 148.

(3) سورة البقرة الآية 45.

إثبات الصيام

قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ معنى هذه الآية من حضر فى بلد وثبتت عنده رؤية الهلال شرعاً وجب عليه أن يصوم ما لم يكن لديه مانع من مرض أو حيض أو نفاس.

إثبات الرؤية:

إن الله فرض علينا صوم شهر، والشهر إنما يعرف بالهلال.
والإجماع أن الصيام لا يثبت إلا برؤية الهلال، أو بكمال عدة شعبان ثلاثين يوماً بعد تعيين أوله برؤية الهلال، ولا يعتمد بقول المنجم إلا فى البلاد التى بها جبال شاهقة تمنع العبد عن رؤية الهلال أول ليلة عادة. أما فى البلاد الممكن رؤية الهلال فيها فالأولى للمسلمين أن يحتاطوا لرمضان فى كل شهر بتعيين أول الشهر وآخره، فإن مثل هذا العمل من أعمال البر التى تدل على عناية المسلمين بما فرض الله عليهم، وكل واحد من المسلمين مطالب شرعاً ببيان أوقات الفرائض كما هو مطالب شرعاً بالسعى على نفقة من فوض الله عليه نفقتهم، فالمعتنى بقوة الأشباح المتساهل فى قوت الأرواح غافل، والحرص على الدنيا مع التساهل فى أمور الدين دليل على بعد الإنسان عن الله تعالى وحرمانه من مراقبته سبحانه وتعالى. رؤية الهلال لا تتعين على كل مسلم وتثبت بما تثبت به الحقوق، يعنى برؤية عدلين من المسلمين، والمعتبر فى الرؤية الأفق أفق الصائمين لا أفق غيرهم. فلو رئى الهلال فى الهند، ولم ير فى مصر فلا يجب الصوم على أهل مصر حتى يروه ما لم يتكاثف الغيم على محل رؤية الهلال. فعلى المسلمين أن يكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً، أو يقدروا له أن يثبت إن تم ثلاثين بالرؤية الصحيحة فيكون شعبان تسعة وعشرين، أو يكون القمر تسرى مقداره المعلوم فى كل شهر، أى: اختفى قبل الفجر، أو

يسمع أن بلداً من بلاد الأفق رأته فى خلال الغيم أو بعد انصراف الغيم، عندهم، وشهد عدلان فيتعين الصيام وهو من معانى فأقدروا له.

وفى المثل (المقصد يبرر الوسيلة)، ومن ذلك ما يقوم به الناس فى آخر يوم من شعبان من الاجتماع والمرور فى الشوارع بنظام حتى يصلوا إلى محل الرؤية، فيرى بعض من لا ينظرون إلى الأشياء بعين الحكمة أن هذا من البدع المضلة، التى لم يكن عليها فى زمن السلف الصالح، ونعم لم تكن تعمل فى زمن السلف لأن كل مسلم فى زمن السلف الصالح كان يتحرى من رجب ليثبت لديه رمضان، أما الآن فقد أصبحنا فى حاجة إلى ما ينبه الناس إلى إثبات هلال رمضان، فالوسيلة وإن كانت بدعة إلا أن المقصود يبررها، وإنما الأعمال بالنيات.

ما ورد فى إثبات رمضان:

عن ابن عمر رضى الله عنهما: (أن رسول الله ﷺ ذكر رمضان فقال لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فإن غم عليكم فاقدروا له) [1].

وفى رواية: (فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً)[2]. وعن أبى هريرة: (فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوماً)[3].

بمن تثبت الرؤية:

تثبت بعدلين، وقد ورد أن رسول الله ﷺ أثبت الصيام بشهادة عدل واحد، وأخذ به الشافعى رضي الله عنه، وآل العزائم يأخذون بالأحوط فيصومون برؤية عدل واحد

---

(1) أخرجه الستة إلا الترمذى.

(2) أخرجه البخارى.

(3) أخرجه مسلم والنسائى.

ولا يفطرون شوال إلا برؤية عدلين أخذاً بالعزائم، والذى يعتبر العدل الواجب يرى خبر البرق الواصل على السلك كشهادة العدل، إذا كان هذا الخبر ورد من أفقه كمن فى الوجه البحرى من مصر إذا بلغه رؤية الهلال فى الصعيد فثبت به الصيام إذا كان خبر البرق ورد فى أفق آخر لمن يحتاطون لرمضان فلا يتعين الصيام عليهم حتى يروا الهلال.

ويحرم صوم يوم الشك على من اعتقد أنه من رمضان بغير حجة.

سنن الصوم:

من سنن الصوم تعجيل الفطر وتأخير السحور، لقوله ﷺ(لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر)[1]. ومن سننه السحور لقوله ﷺ(تسحروا فإن فى السحور بركة)[2].

ومن السنة أن يقول الصائم عند فطره (اللهم إنى لك صمت وعلى رزقك أفطرت). وقال ﷺ(من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله تعالى حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه).

أركان الصوم

الركن الأول – النية:

عن حفصة رضى الله عنها: (من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له)[3].

والنية يجب أن تكون قبل الفجر، وقولنا قبل الفجر صادق من أول الليل إلى قبل طلوع الفجر، والصوم إما فريضة أو نافلة، فصوم الفرض لا يصح إلا بتبييت النية إجماعاً. أما فى صوم النافلة فعند الشافعية تجوز النية بعد طلوع الفجر لما روى أن النبى ﷺنوى الصيام ضحوة، بعد أن سأل عن طعام فلم يجد، وشدد قوم لعدم ثبوت هذا الحديث بطريق مقبول فأوجبوا تبييت الأعمال بالنيات. ومن ثبت

(1) أخرجه البخارى ومسلم.

(2) أخرجه البخارى ومسلم.

(3) أخرجه الإمام أحمد والسيوطى فى الجامع الصغير.

عنده رمضان فنوى صيام الشهر فقد نوى، ومن قام للسحور فقد نوى، لأن محل النية القلب، وأهل العزائم يشددون فى مراقبة النية فى كل أنفاسهم حتى لا يغفلوا عن الصيام فيقعون فى غفلة تؤدى إلى توسعة فى مباح أو وقوع فى معصية.
ومحل النية القلب، ويكفى أن ينوى الإنسان صيام رمضان من أول ليلة كما ذكرنا والقيام للسحور فيه، والمناسب أن يستحضر الصائم أنه يصوم طاعة لأمر الله، وتقرباً إليه سبحانه ابتغاء نيل فضله سبحانه وتعالى.

الركن الثانى – الإمساك:

الإمساك عن شهوتى البطن والفرج من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، فلا ينوى رفض الصيام فى النهار، وهنا يجب عليه أن يراعى بقدر استطاعته المحافظة على جوارحه من الوقوع فى مكروه أو محرم، فإن الله أمرنا فى رمضان بترك المباحات لنعلم وجوب ترك المكروهات ومن باب أولى المحرمات التى تظن أنها لا تفطر، وهى فى الحقيقة تفطر، وقد أخبرنا الله تعالى بقوله: ﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ [1]، أن الغيبة تفطر الصائم.
وكثير من أهل الغفلة يتركون ما أباحه الله لهم ويقعون فيما حرمه الله عليهم من الحماقة والغيبة والنميمة والكذب والغش والخيانة والحسد وغير ذلك، لعدم مراقبتهم لأحكام الله، وعدم خوفهم عقاب الله تعالى.

ما يفطر وما لا يفطر:

الذى يفطر معلوم، أما الذى لا يفطر القىء قهراً، وقبلة الرجل امرأته أو نومه معها فى فراش واحد، إذا كان متمكناً لا يخشى على نفسه حصول ما يفطر، أما إذا

---

(1) سورة الحجرات الآية 12.

كـان شـاباً أو عـاجزاً عـن ملك نفسـه، فـالأولى ترك ذلـك. قـال ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَوآلـه﴾: (من ذرعه القيء فليس عليه قضاء. ومن استقاء عمداً فليقض) وقـال ﴿صلى الله عليه وآلـه وسـلم﴾(ثلاثة لا يفطـرن الصـائم، الحجامـة والقـيء والاحـتلام) وإنمـا كرهـت الحجامة للصائم خوفاً عليه من الضعف.

ما ورد فى فضائل الصوم:

1- عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى إلا الصوم، فإنه لى وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى. للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[1].

2- وفى رواية: (الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم إنى صائم)[2].

3- وعن سهل بن سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن فى الجنة باباً يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد)[3].

4- وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(من فطر صائماً كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئاً)[4].

5- وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار، وسلسلت الشياطين)[5] وفى أخرى للنسائى: (وينادى منادى كل ليلة يا باغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر).

---

(1) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن خزيمة والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح.

(2) أخرجه البخارى ومسلم.

(3) أخرجه البخارى ومسلم وابن خزيمة والحافظ الدمياطى.

(4) أخرجه الترمذى وابن ماجة وابن حبان والحافظ الدمياطى.

(5) أخرجه مسلم والدمياطى.

ويقول ﷺ(لكل شىء باب، وباب العبادة الصوم)[1].
وإنما كان الصوم مخصوصاً به لأن له عملان عظيمان:
- أحدهما: كف النفس، وهو عمل سرى، لا يطلع عليه أحد غير الله تعالى، وليس كالصلاة والزكاة وغيرهما.
- الثانى: أن الصوم قهر لعدو الله فإن الشيطان هو العدو ولن يقوى العدو إلا بواسطة الشهوات، والجوع يكسر جميع الشهوات التى هى آلة الشيطان، ولذلك يقول ﷺ(إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجارى الشيطان بالجوع)[2].

ما ورد فى فضائل الصوم عن الأئمة:

قال الإمام أبو طالب المكى رضي الله عنه فى كتابه (قوت القلوب) فى ذكر فضائل الصوم ووصف الصائمين:
صوم الخصوص حفظ الجوارح الست: غض البصر عن الاتساع فى النظر، وصون السمع عن الإصغاء إلى محرم، أو الوزر أو القعود مع أهل الباطل، وحفظ اللسان عن الخوض فيما لا يعنى جملة، مما إن كتب عنه كان عليه، وإن حفظ له لم يكن له، ومراعاة القلب فعكوف الهم عليه وقطع الخواطر والأفكار التى كف عن فعلها، وترك التمنى الذى لا يجدى، وكف اليد عن البطش إلى محرم من مكسب أو فاحشة.

---

(1) أخرجه ابن المبارك فى الزهد وأبو الشيخ فى الثواب، والغزالى فى الإحياء ج1 ص 231.

(2) أخرجه البخارى ومسلم.

وحبس الرجل عن السعى فيما لم يؤمر به ولم يندب إليه من غير أعمال البر.
فمن صام تطوعاً بهذه الجوارح الست وأفطر بجارحتى الأكل والشرب والجماع فهو عند الله من الصائمين فى الفضل لأنه من الموقنين الحافظين للحدود، ومن أفطر بهذه الست أو ببعضها وصام بجارحتى البطن والفرج فما ضيع أكثر مما حفظ، فهذا مفطر عند العلماء، صائم عند نفسه.
وقد قال أبو الدرداء: يا حبذا نوم الأكياس كيف يعيبون قيام الحمقى وصومهم، ولذرة من تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين. ومثل من صام عن الأكل وأفطر بمخالفة الأمر مثل من مسح كل عضو فصلاته مردودة عليه لجهله، ومثل من أفطر بالأكل والجماع وصام بجوارحه عن النهى، مثل من غسل كل عضو مرة واحدة وصلى، فهو تارك للفضل فى العدد إلا أنه مكمل للفرض بحسن العمل، فصلاته متقبلة لإحكامه للأصل وهو مفطر للسعة، صائم فى الفضل، ومثل من صام عن الأكل والجماع وصام بجوارحه الست عن الآثام، كمثل من غسل كل عضو ثلاثاً ثلاثاً، فقد جمع الفرض وأكمل الأمر والندب، فهو من المحسنين وعند العلماء من الصائمين، وهذا صوم الممدوحين فى الكتاب الموصوفين بالذكرى من أولى الألباب.
ومن فضائل الصوم أن يجتنب حظوظ الجوارح والشبهات من الأشياء، ويفضل الحلال ويرفض الشهوات الداعية إلى العادات، ولا يفطر إلا على حلال متقللاً منه، فبذلك يزكو الصيام، ولا يقبل امرأته فى صومه ولا يباشرها بظاهر جسمه، فإن ذلك إن لم يبطل صومه فإنه ينقصه وتركه أفضل إلا لقوى متمكن مالك لأربه، وليقل نومه بالنهار ليعقل صومه بعمارة الأذكار، وليجد إحساس جوعه وعطشه، وقد كانوا يتسحرون بالتمرتين والثلاث، وبالحبات من الزبيب والجرعة من الماء، ومنهم من كان يقضم من شعير دابته التماساً لبركة السحور، وليكثر ذكر الله تعالى وليقلل ذكر الخلق بلسانه، ويسقط الاهتمام بهم عن قلبه، فذلك أزكى

لصومه، ولا يجادل ولا يخاصم، وإن شتم أو ضرب، لم يكافئ على ذلك لأجل حرمة الصوم، ولا يهتم لعشائه قبل محل وقته، يقال إن الصائم إذا اهتم بعشائه قبل محل وقته أو من أول النهار كتبت عليه خطيئة، وليرضى باليسير مما قسم له أن يفطر عليه، ويشكر الله تعالى كثيراً عليه.

ومن فضائل الصوم التقلل من الطعام والشراب.. وتعجيل الفطور وتأخير السحور، ويفطر على رطب إن كان، وإلا على تمر إن وجد فإنه بركة، أو على شربة من ماء فإنه طهور.

هكذا روى عن رسول الله ﷺ(إنه كان يفطر على جرعة ماء، أو مذقة من لبن، أو تمرات قبل أن يصلى) وفى الخبر: (كم من صائم حظه من صيامه الجوع والعطش).

قيل: هو الذى يجوع بالنهار ويفطر على حرام، وقيل هو الذى يصوم عن الحلال من الطعام، ويفطر بالغيبة من لحوم الناس، وقيل: هو الذى لا يغض بصره، ولا يحفظ لسانه عن الآثام، ويقال: إن العبد إذا كذب أو اغتاب أو سعى فى معصية فى ساعة من صومه خرق صومه. وفى الحديث: (الصوم جنة ما لم يخرقها بكذب أو بغيبة). وكانوا يقولون الغيبة تفطر الصائم، وكانوا يتوضأون من أذى المسلم.

وروى عن بشر بن الحارث عن سفيان: (من اغتاب فسد صومه).

وروينا عن ليث عن مجاهد: (خصلتان تفسدان الصوم الغيبة والكذب). وروى عن جابر عن رسول الله ﷺ(خمس يفطرن الصائم: الكذب، والغيبة، والنميمة، واليمين الكاذب، والنظر بشهوة).

ويقال إن من الناس من يكمل له صوم رمضان واحد فى عشر رمضانات أو فى عشرين مثل سائر الفرائض من الصلاة والزكاة التى يحاسب عليها العبد، فإن وجدت كاملة وإلا تممت من سائر تطوعه.

وفى الخبر: (من اغتاب خرق صومه فليرقعه بالاستغفار). والمراد من الصيام مجانبة

الآثام لا الجوع والعطش، كما أن المراد من الأمر بالصلاة الانتهاء عن الفحشاء والمنكر كما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(من لم يترك قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه).

فضائل الصوم عند آل العزائم:

من فضائل الصوم أن يحفظ جميع جوارحه مما يوقع فى هفوة أو مكروه أو محرم، والتفصيل معلوم فإن الصائم متشبه بعالم الملكوت الأعلى الذين قال الله فيهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾[1] فكيف يغفلون أو يقعون فى محرم. وشر تلك الجوارح على الصائم اللسان والفرج، فإن كلمة قبيحة من الصائم تفسد صيامه. وقصد الشهوة أو وجودها يفسد الصيام، والأولى لضعاف آل العزائم أن يتباعدوا عن مجالس الغافلين وعن طول الإقامة مع الزوجات صوناً للصيام من المفسد، وإنما هو شهر لا يدرى الإنسان أيعود له أم لا، فالأولى أن يتحصن بلباس التقوى ويعمر أوقات الشهر بخير القربات ليغتنم عظيم الأجر، ويحرص أن يقلل الطعام والشراب والنوم، ولا يفطر إلا على ما يتحقق حله بعد الاجتهاد.
وخير عمل الصائم تلاوة القرآن بعد الفرائض، ونوم الصائم فى الصيام خير من قيام الأحمق. قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(نوم الصائم عبادة، وصمته تسبيح، ودعاؤه مستجاب). وآل العزائم لهم فى رمضان مشاهد ملكوتية فى نومهم بالرؤيا الصالحة وفى يقظتهم بدوام المراقبة.

---

(1) سورة التحريم الآية 6.

الصائمون

الصائمون أربعة أنواع:

تارك لشهوته، وتارك لرغبته، وتارك لوجوده، وتارك لشهوده. فالسالك يصوم بترك شهواته، والواصل يصوم بترك رغباته من كرامة وولاية وشهوة وحظ عاجل وآجل، والمتمكن يصوم مشاهداً أكمل مشاهد التوحيد فيرى الصيام بالله ولله ومن الله، فيفنى عن شهود عمله فإذا لحظه استغفر.
والمتحد[1] يترك فى صيامه شهود تلك المعانى وهو وارث مقام ﴿قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [2] وهذا هو صيام ورثة رسول الله ﴿ﷺ﴾ولأبداله من الصديقين والشهداء شميم من هذا العبير. وفى هذا المقام صيام أهل (لا حول ولا قوة إلا بالله). بذوقك-الذى صورك هو الذى وفقك، والذى جملك بمعانى الصفات هو الذى أقامك - فمن أنت إذا تحققت؟!!.
والصيام سر من أسرار الصمدية، فاحفظ السر عن غير أهله، منحنى الله وإياك صيام أهل الاتحاد إنه مجيب الدعاء.

آداب الصوم:

ثم نذكر خاتمة بها يكمل الصيام ويتم وهو أن يفطر على طعام حلال لا شبهة فيه، وأن لا يستكثر من أكل الحلال بحيث يتدارك ما فاته ضحوة، فيكون قد جمع بين أكلتيه دفعة واحدة فتثقل معدته، وتقوى شهوته، ويبطل سر الصوم وفائدته ويفضى إلى التكاسل عن التهجد، وربما لم يستيقظ قبل الصبح، وكل ذلك خسران، وربما لا توازيه فائدة الصوم.

---

(1) السالك والواصل والمتمكن والمتحد مراتب يترقى فيها العبد مقاماً فوق مقام
(2) سورة الأنعام الآية 91.

القيام:

القيام فى الشريعة، الصلاة فى النهار قبل الليل والتهجد بالصلاة فى الليل بعد النوم، والقيام فى رمضان سنة ويتأكد فى العشر الأواخر من رمضان خصوصاً فى الليالى الوترية فإنه ﷺ قام فيها، قال ﷺ (من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[1].

(1) أخرجه البخارى ومسلم.

الحكمة الأولى:

وتشمل حكمة صحية. وحكمة اجتماعية. وحكمة شرعية.

1- حكمة الصيام الصحية:

معلوم أن المعدة بين الداء، والحمية رأس الدواء، وأن أكثر الأمراض سببه المعدة، ولذلك فإن الطبيب يأمر المريض بترك الأكل والشرب فى كل الأمراض، والخلاق العظيم أرحم بخلقه من أنفسهم، ومن رحمته بهم أمرهم بترك الأكل والشراب وملامسة النساء نهاراً فى رمضان، لتقوى المعدة وتصح الجوارح ويتوفر الدم، رحمة بهم وعناية منه سبحانه، وقبل منهم هذا العمل عبادة له سبحانه ووعدهم عليه بالنعيم المقيم، فسبحان من أمرنا بما هو خير لنا وهو الغنى عنا وعن أعمالنا وأثابنا عليه بالجنة، وعبد يكرمه مولاه فيأمره بما هو صحة وعافية وخير، ثم يتفضل فيعطيه الجنة جزاء للعبد على ما هو نفع له، والعبد اللئيم يظلم نفسه فيخالف ربه فيقع فى بلايا الأمراض فى الدنيا وشديد العذاب يوم القيامة، أسأله سبحانه أن يعلمنا حكمة العبادة ويعيننا عليها حتى نسعد فى الدنيا والآخرة. بينت حكمة الصيام الصحية ليعلم الصائم أنه إنما يصوم لصحته وعافيته ولأن كل عضو من أعضاء الجسم يستريح عند النوم إلا المعدة والقلب فجعل الله الصيام راحة للقلب وراحة للمعدة، لأن الصائم لا يحتاج إلى حركة تجهد المعدة للهضم، ولا يتولد دم غليظ من كثرة الأكل يتعب القلب.

2- حكمة الصيام الاجتماعية:

معلوم أن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بنفسه بجميع لوازمها كالحيوانات التى لا يحتاج فرد من أنواعها إلى مساعدة غيره فى جميع لوازمه، فالإنسان الواحد يحتاج إلى كثير من الأناس والحيوانات والآلات البخارية والكهربائية فى نيل ما لابد له منه قال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى﴾[1]، إذا تقرر ذلك فالصيام يكسب قلب الأغنياء رحمة بالفقراء، وقلب الرؤساء عطفاً على العمال، وقلب الملوك شفقة بالرعية فيصبح المجتمع كما قال سبحانه: ﴿رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [2]، وغنى لم يذق ألم الجوع والعطش كيف يرحم الفقراء؟ ورئيس لم يحس بفقد مشتهياته خضوعاً لسلطان الشريعة كيف يحسن إلى من ولاهم عمله؟! وملك لا يجاهد نفسه بالصيام كيف يعدل فى رعيته ويمنح الأمة الحرية والمساواة؟ فالصيام هو العمل الذى يزكى النفس ويهذبها، ويجعل الإنسان يحس بأنه عبد مقهور لقهار قادر، وعابد لمعبود قوى، لا فرق بين الغنى والفقير عنده والملك والمملوك لديه. فإذا نحن تركنا الصيام انقلبت النفس الإنسانية فصارت نفساً إبليسية أو وحشية، فأفسدت المجتمع بقدر ما تطيقه من تنفيذ أغراضها لنيل شهواتها. فالمسلم تارك الصيام شر على الأمة، شر على الوطن، شر على أسرته وعلى نفسه.

وأمة ترى مسلماً يفطر رمضان ولا تقوم فى وجهه مشنعة عليه ليرتدع، فتحت على نفسها أبواب غضب الله تعالى، لأن المفطر فى رمضان دون عذر شرعى أغضب ربه سبحانه بمخالفة أمره ونبيه ﴿ﷺ وآله﴾ بترك التشبه به - ورجل يغضب ربه كيف يرضى والديه أو قومه؟ ولعل الذين بحوا حناجرهم بقولهم يحيا الوطن وهم يحاربون الشريعة ويعقون الوالدين ويقطعون الأرحام- ظهرت لهم نتيجة أعماله

(1) سورة المائدة الآية 2.

(2) سورة الفتح الآية 29.

بتسليط الأعداء عليهم، ولو عملوا بأوامر دينهم وبوصايا نبيهم لجمعهم سبحانه على الحق، وأعزهم وأذل أعداءهم.. قال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾ [1].

فالصيام عمل يكسب الصائم رحمة وعزة واستجابة للدعاء، وبذلك يسعد المجتمع وتتحد الكلمة وتصبح الأمة كالأسرة يكون رئيسها والداً عطوفاً رحيماً واثقاً ببنيه، وتكون الأمة أبناء بررة واثقين بوالدهم وتلك النتائج مقدماتها القيام بأحكام الشرع الحنيف.

3- حكمة الصيام الشرعية:

معلوم شرعاً أن الإنسان هو المخلوق الوسط بين عالم الأرواح المجردة وعالم الحيوان، وهو خليفة ربه فى الأرض منحه ما به يسخر كل الأنواع التى تحيط به فهى مخلوقة له، لا فرق بين ما فى السماوات من الأفلاك والأملاك والجنة وغيرها، وما فى الأرض من الجمادات والنبات والمعادن والحيوانات، وما فى الأجواء من الهواء والأمطار والسحب.. فالإنسان فى الحقيقة ونفس الأمر له كل شىء، لأنه سبحانه خلق الأشياء وهو غنى عنها، ومن نظر بعقله فى العالم أعلاه وأسفله يظهر له أنه خلق لنفع الإنسان، وبقدر ما يناله الإنسان من العلم تكون له القدرة على تسخير جميع الكائنات، فقد يبلغ الإنسان بعقله أن يقهر كل شىء لينتفع به، وقد يبلغ بتزكية نفسه مقاماً تخدمه فيه الملائكة، ولو علم الإنسان نفسه علماً مؤيداً بنور الكشف لتضاءلت فى عينه أكمل مراتب الدنيا، واضمحل فى نظره كل خير فيها، وفر بهمة لنيل كماله الروحانى ليفوز بالخير الحقيقى فى جوار الأطهار حيث البقاء فى مسرات الحياة، وصفاء العيشة، آنسة روحه بما يجانسها من عالم الطهر، وعقله

---

(1) سورة آل عمران الآية 126.

بما يشاكله من جمال الآيات، وجسمه بما يطيب به من ملذات ومسرات، من غير شوب عناء أو جهاد، ولا كدر انقطاع وزوال.
الصيام: اقتضته حكمة إيجاد الإنسان ممتعاً بكل الحقائق، ومعلوم أن شكر النعمة متعين على كل منعم عليه فعرض الله تعالى الصيام لنشكره سبحانه على نعمته علينا بتسخيره ما فى السماوات لنا من الأفلاك والأملاك والآيات والأسرار، وتسخير السحاب وتصريف الرياح، ولما كانت الملائكة التى سخرها الله لنا أرواحاً مجردة لا تأكل ولا تشرب ولا تلامس النساء، تقوم لنا بما لا غنى لنا عنه، وكذلك الأفلاك، لزمنا أن نتقرب إلى الله المنعم المتفضل علينا بترك الأكل والشرب عباده له سبحانه، فإننا نشكره على تسخير ملائكته وأفلاكه لنا وهى أول حكمة من حكم الصيام.

الحكمة الثانية:

أن الصائم يتحقق أنه عبد مملوك لله بطبعه، إذا أمره يترك ضرورياته لأن العبد لا يتصرف ولا فى نفسه إلا بأمر سيده، وفى ذلك من السعادة للعبد التى من أجلها رضوان سيده عنه، وإسباغ إحسانه عليه، مما لا يمكن للأرواح أن تشهده وهى فى عالم الأشباح.

الحكمة الثالثة:

أن الصائم أشبه الملائكة، فتكون لروحه ملكوتية تقتبس فيها نفسه قبساً نورانياً ملكوتياً تجمل به العقل والحس والجسم، فيلحظ الصائم أنواراً من الحكمة العلية، وأسراراً من الآيات المنبلجة فى نفسه وفى الآفاق، فيميل بكليته إلى الفضائل التى تجعله قريباً من ربه، متخلقاً بأخلاقه، متصفاً بصفاته من الرحمة والعطف والحنان،

والإحسان والعلم والعرفان، مسارعاً إلى نيل كماله الروحانى، لينفع نفسه وأهل عصره بما يناله من هذا الخير.

الحكمة الرابعة:

أن الصائم يشعر من نفسه أنه تشبه بأفضل الرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام، فيكون له من الفرح والبهجة وعلو الهمة ما يجعله يكره المعاصى، ويتباعد عن ضرر الخلق، ويحسن إلى من أساء إليه، وبذلك يعيش عزيزاً فى الدنيا، آنساً بمعية الأخيار يوم القيامة.

الحكمة الخامسة:

هى أن الصائم بإمساكه عن لوازم الحيوانية، يقل نومه وينشط لعمارة الأوقات بالعبادة وتحصيل العلم، وتلاوة القرآن، وتزهد نفسه فى شهوات الحيوانات، وملاذ البشرية ومقتضيات الإبليسية، حتى يكون فى نومه مشاهداً لما تقتبسه روحه من العالم الأعلى، وفى يقظته مراقباً ربه، وبذلك تنكشف له غيوب بما يرد على قلبه من الروح لصفائها وراحتها من عناء تدبير الجسم الشهوانى، فيكون الجسم مجانساً للروح، وفى هذا المقام يكون الإنسان أفضل من الملائكة، لأنه مجاهد، والملائكة مفطورون على الخير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أولاً – صوم العامة:

ترك الأكل والشرب وملامسة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ثانياً – صوم العلماء:

ترك شهوتى البطن والفرج، مع حفظ الجوارح من الاستطالة، فإن الصوم إذا أطلق أريد منه الترك مطلقاً.
ولكل عضو صيام بحسبه، فصيام اللسان ترك الكلام إلا فى ذكر الله أو ما لا بد منه، وصيام الأذن ترك الإصغاء إلا إلى علم أو ما لا بد منه، قال سبحانه: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ [1].
والعلماء يمتازون عن العامة بصيام كل جوارحهم، ولكن العامة يصومون بترك شهوتى البطن والفرج، وشتان بين الصيامين.

ثالثا – صوم العارفين بالله:

وصيام العارفين بالله عمارة الأنفاس فى اليقظة بمراقبة الله تعالى، وعمارتها فى النوم بسياحة الروح فى ملكوت الله الأعلى، لتقتبس لطائف العوارف من عالم الطهر والصفاء، وتعود إلى الهيكل الإنسانى بتحف الروحانيين من حملة العرش والحافين حوله، لأنهم تركوا لوازم الحيوانية نهاراً، فتشبهوا بالملائكة الكرام، وقاموا بين يدى مولاهم ركعاً سجداً يبتغون فضله ورضوانه، فتشبهوا بعالم الطهر من عليين وأعلى

---

(1) سورة مريم الآية 26.

عليين، فإذا ناموا ليلاً سرت أرواحهم الطاهرة إلى فضاء هذا العالم لأنها مجانسة له، هذا مقام فوق العبارة، بل فوق الإشارة وقد ألمعت إلى غوامض هذا المقام فى كتاب "معارج المقربين" و "النور المبين" وكتاب "الإسلام دين الله".

رابعاً – صوم المقربين:

أما صيام المقربين ممن أخلصهم الله لذاته، فهو تنزيه سر الصائم عن خطور ما سوى الله عليه، لأنهم شغلوا بالمعروف عن المعرفة، وبالمعلوم عن العلم بعد تحصيل العلم والمعرفة، وأهل هذا المقام عمرهم كله رمضان، إلا أنهم فى هذا الشهر المبارك يتركون ما أباحه الله لهم نهاراً، قياماً بالفرض والسنة ورعاية لواجب الوقت، الذى لا يشغلهم عنه أعظم شأن من شئون المشاهدة، فإن القيام بفرائض الله تعالى فوق كل مقام، ومن ظن أن الشهود يسقط الفرائض التى فرضها الله وقام بها رسول الله ﷺ أوقع نفسه فى مهاوى الهلكة. قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى الطويل: (وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه)[1].

وأهل هذا المقام فى صيام طول عمرهم ولو أكلوا وشربوا فى غير رمضان نهاراً، لأنهم صاموا بست جوارح فى غير رمضان، وصاموا فى رمضان بثمانى جوارح، وغيرهم يصوم فى رمضان بجارحتين، وربما يفطر بالجوارح الباقية، فيكون صائماً عند نفسه فقط، وإن أسقط بعمله ما فرضه الله عليه، وطلب العلم فريضة على كل مسلم، وأول ما يسأل عنه المسلم يوم القيامة (هل تعلمت أم لا؟).

خامساً – صوم المحبوبين:

وهؤلاء يعلمون أن رمضان شهر الله تعالى، ونسبة هذا الشهر إليه سبحانه دليل

(1) أخرجه البخارى.

على أنه يقرب من أوليائه فيؤنسهم فيه كما نسب إليه الكعبة فسميت بيت الله، فسارعوا إلى أن يعمروا الأنفاس بالحضور مع مولاهم، فحرصوا عليه كل الحرص، ونظروا إلى أمر الله فى رمضان، فظهر لهم أنه حرم عليهم المباح فى نهاره، ورغبهم فى إحياء ليله بالقيام، فظهرت لهم حكمة عناية الله بهذا الشهر من التشبه بالعالم الأعلى، عالم الأرواح النورانية المجردة من العناصر السفلية، عالم اللطائف الروحانية الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فساحوا بأرواحهم فى فسيح الملكوت حضوراً أو استحضاراً وفكراً، وتجردوا عن وجودهم الباطل بالوجود الحق، وتخلقوا بأخلاق الله حلماً ورحمة ورأفة وعطفاً وكرماً وإحساناً وفضلاً، أحسنوا إلى من أساء إليهم ووصلوا من قطعهم، واستحضروا عظمة الله وجلاله، فانكسرت قلوبهم بين يديه، فكان سبحانه عندهم بما هو أهله من جمال وقرب وحب وولاية وعناية، أوحشهم أنسه عن كل أنس من سواه، وآنسهم بجماله ففروا ممن سواه وما سواه، وأقبلوا بكليتهم به سبحانه عليه، فكانوا كأنهم فى ضيافة الله على بسائط مؤانسته وموائد كرامته، أرواحهم سائحة فى ملكوته، وسرهم مشرف على قدس عزته وجبروته، فهم بين الناس بأجسامهم ومع الله بأرواحهم، اجتباهم لحضرته فأفردهم له، وواجههم به بجمال وجهه العلى، ففروا به إليه سبحانه، تلذذوا بما يتألم به أهل الجهالة، وفرحوا بما يحزن منه أهل الغرور، تصعد أنفاسهم إلى الملكوت فتضىء عوالم عليين، يناجون الله تعالى بكلامه حتى كأنهم يسمعونه منه سبحانه، ويضعون وجههم ليلاً على تراب الذل، تملقاً بين يدى مولاهم، أمنيتهم أن يكون الدهر كله رمضان، وحزنهم أن يمضى نفس منهم فى غير الحضور مع الملك الديان، انكشفت لهم حقيقة الدنيا والآخرة، ففارقوا ما يزول بقلوبهم وزهدته أجسامهم، وسارعوا إلى ما يبقى طمعاً فى شهود الوجه العلى الكريم فى النعيم المقيم.

سادساً – صوم الصوفية:

الصيام لغة الصمت، والصيام عند الصوفية صولة الروح على الجوارح، صولة تجعلها تجانسها مجانسة ما. فتجاهد فى سبيل الاتحاد بها من حيث ما تقتضيه الروح فى حقيقتها، وبكمال تلك الحقيقة تمنح الجوارح قبساً من الملكوت الأعلى تنال به الرفعة عند ردها إلى أسفل سافلين، وبتلك الرفعة تتلقى من ربها كلمات الإنابة الموصلة إلى المقام الذى أكرمها ربها به فى المرتبة الآدمية، إلا أن آدم أسكن فى مقام الزوجية النفسانية الجنة متمتعاً بنعيمها، وهذا الصائم يكرم بدخول جنة الرضا متنعماً بأسرارها لتجرده عن مقتضيات الجوارح المجترحة بترك ما أبيح له مما لا بد منه، والإقامة فى محاب الله ومراضيه، فيكون صائماً بكل جوارحه مع وجود المقتضى لا فقده، وهو الجهاد الأكبر جهاد الحس والنفس والعقل والجسم، معنى قوله ﷺ (الصيام جنة)[1]. وليس بصائم من ترك ما أبيح له ووقع فيما حرم عليه، وعلامة قبول الصيام تخلق الصائم بأخلاق الله، أو على الأقل بأخلاق عالم الطهر الروحانى من عوالم الملكوت.

والصيام سياحة عظمى قال تعالى: ﴿السَّائِحُونَ﴾[2] بمعنى الصائمين، والصيام صبر على خرق العادة من طبعه، وهو الذى بشره الله بمعيته قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3]، والصابرون من معناها الصائمون. فجاهد نفسك فى الصيام أن تتخلق بتلك الأخلاق مهما ضحيت بكل غال ورخيص فى سبيل ذلك، لتفوز بمعية الله لك. وبقدر نزوع النفس إلى ما يخالف تلك الآداب وقهرها عليها تكون

(1) أخرجه البخارى ومسلم.

(2) سورة التوبة الآية 112.

(3) سورة البقرة الآية 153.

رفعتك وقربك ونيلك وحظك، ولعلك فهمت إشاراتى وأنت فى فاتحة الشهر، فاستعن بالله وقل لا حول ولا قوة إلا بالله.

وهناك تقسيمان لدرجات الصوم باعتبارين مختلفين، من ناحية مقداره، ومن ناحية أسراره.

أولاً – من ناحية مقداره فدرجاته ثلاث:

1- أعلاها: وهو صوم داود ﵇، وهو أن تصوم يوماً وتفطر يوماً، ففى الخبر الصحيح: (أن ذلك أفضل من صوم الدهر وأنه أفضل الصيام).
وسر ذلك: أن من صام الدهر صار الصوم له عادة، فلا يحس بوقعه فى نفسه بالانكسار، وفى قلبه بالصفاء، وفى شهواته بالضعف، فإن النفس تتأثر بما يرد عليها،لا بما مرنت عليه- فلا يبعد هذا- وأن الأطباء أيضاً ينهون عن اعتياد شرب الدواء، وقالوا: من تعود هذا لم ينتفع به إذا مرض، إذ يأنفه مزاجه فلا يتأثر به.
واعلم أن طب القلوب قريب من طب الأبدان، وهو سر قوله ﴿ﷺ﴾لعبد الله بن عمرو- رضى الله عنهما- حينما سأله عن الصوم فقال ﴿ﷺ﴾(صم يوماً وافطر يوماً) فقال ابن عمرو: (أريد أفضل من ذلك) فقال ﴿ﷺ﴾(لا أفضل من ذلك)[1]. ولذلك لما قيل لرسول الله ﴿ﷺ﴾إن فلاناً صام الدهر، فقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(لا صام ولا أفطر)[2]. وكما قالت السيدة عائشة- رضوان الله عليها- لرجل كان يقرأ القرآن بهذرمة: (إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت).

---

(1) أخرجه البخارى ومسلم والحافظ الدمياطى.

(2) أخرجه مسلم والنسائى.

2- أوسطها: فهو أن يصوم ثلث الدهر، فلو أنك صمت الاثنين والخميس وأضفت إلى ذلك صوم رمضان، فقد صمت من السنة أربعة أشهر وأربعة أيام وهذا زيادة عن الثلث، ولكن لا بد أن ينكسر يوم من أيام التشريق، وترجع الزيادة حينئذ إلى ثلاثة أيام فقط، فإذا تصورت أن ينكسر فى العيدين يومان فقد بقيت الزيادة بيوم واحد فقط، فتأمل حسابه تعرفه، فلا ينبغى أن ينقص عن هذا القدر صومك فإنه خفيف على النفس وجزيل ثوابه.

3- أدناها: فهو الاقتصار على شهر رمضان فحسب، فهذه درجات الصوم من حيث المقدار.

ثانياً – من ناحية أسراره فدرجاته ثلاث:

1- أدناها: أن يقتصر على الكف عن المفطرات، ولا يكف جوارحه عن المكاره وذلك صوم العموم، وهو اقتناعهم بالاسم فقط.

2- أوسطها: أن يضيف إلى الدرجة السابقة كل الجوارح، فيحفظ اللسان عن الغيبة، ويحفظ العين عن النظر إلى الزينة، وكذا سائر الأعضاء الأخرى وهذا هو صوم الخصوص.

3- أعلاها: فهى أن تضيف إلى ما سبق صيانة القلب عن الفكر والوساوس، وتجعله مقصوراً على ذكر الله عز وجل. وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال.

الذى يترك المباح له مما هو ضرورى لحياته، الأولى له أن يترك ما لا ينفعه ولا يضره، مما تعود فى غير رمضان ليتمكن من عمارة أوقات الشهر بالقربات، فيعمل بالنهار بعد فراغه مما لابد منه من عمل لمعاشه، بتلاوة القرآن وعلم نافع، ويذكر الله تعالى بأعمال البر من الإصلاح بين الناس، ومن إدخال السرور على الفقراء، ومن إغاثة الملهوف وبر الوالدين وصلة الرحم، ويعمر الليل بالقيام والتهجد، وعمل الرغائب من مجالسة الصالحين، وزيارة المتقين، وإطعام الفقراء، وغشيان مجالس الذكر والعلم، وتلاوة القرآن المجيد وسماعه، ومسارعته إلى حفظ قلبه لترد عليه واردات الصوم، فإنه تشبه بالملائكة الكرام، ومن تشبه بقوم كان منهم.

الأوقات التى يجاب فيها الدعاء

كل أوقات رمضان مؤكداً فيها الإجابة والقبول، ولكن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بشرنا بأن ربنا ﷻ ينزل فى آخر كل ليلة من ليالى رمضان، لإجابة السائلين وقبول توبة التائبين وللعفو والإحسان، فتعين من هذا أن آخر الليل من كل ليالى شهر رمضان مرغب فيه.

وعلى كل مقبل على الله تعالى أن يكون حاضر القلب والجسم مع الله تعالى فى رمضان ليفوز بما يبتغيه من فضل الله ورضوانه الأكبر. وخير دعاء عينه رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن يقول: (اللهم أنى أسألك العفو والعافية).

والسالك فى طريق الله أعلم بحاجته، فله أن يرفعها بعد حمد الله، والثناء عليه والصلاة والسلام على أفضل رسله، فقد ورد أن هذا يحقق الإجابة والقبول، وإذا دعا الداعى فالأولى أن يعمم الدعاء موقناً بالإجابة.

وهناك ليلتان يجاب فيهما الدعاء وهما: ليلة بدر الكبرى، وليلة القدر.

أولاً: ليلة بدر الكبرى

هى السابعة عشر من رمضان، وهى الليلة التى ينظر الله تعالى فيها إلى المسلمين فينصرهم ويهلك عدوهم، ولأهل الإيمان بالله عناية كبرى بهذه الليلة يلتمسون فيها الخير والنصرة، ويحيونها بالقربات والطاعات والتضرع إلى الله تعالى.

آدابها وأدعيتها:

آداب الدعاء فى ليلة الفرقان بعد شرب الماء وصلاة المغرب أن يصلى ركعتى التسابيح، ثم يستحضر نعم الله التى لا تحصى وذنوب نفسه التى لا تعد، ويعتقد أن سبب الشدائد المعاصى فيتوب إلى الله بصدق، ثم يوجه قلبه وقالبه إلى الله تعالى ويرفع يديه قائلاً: (اللهم لك الحمد ولك الشكر ولك الثناء الحسن الجميل، أسألك أن تصلى وتسلم على سيدنا مُحَمَّد وآله، وأن تغيثنا يا غياث المستغيثين بما أنت أهله، لا إله إلا أنت، أسألك يا من أنت قلت: إنى أنا الله لا إله إلا أنا أمرى كلمح بالبصر أو هو أقرب، أن تدفع عنا مالا قبل لنا به، وأن تهب لنا من الخير ما أنت أهل له، وأن تصلح أحوالنا وتحفظنا من الذنوب التى توجب النقم، ومن الذنوب التى تغير النعم، ومن الذنوب التى تهتك الحرم، ومن الذنوب التى تحبس غيث السماء، ومن الذنوب التى تديل الأعداء، أنصرنا على من ظلمنا، وأهلك الكافرين بالكافرين وأخرجنا من بينهم سالمين غانمين، وأجل أعداءك عن بلادنا ومكنا منهم بالحق، وأيد أنصارك المجاهدين فى سبيلك بالنصر والفتح المبين يا رب العالمين.

ثم يقول: يا باسط يا ودود يا معطى يا وهاب يا غفور يا تواب يا رقيب يا مجيب أغثنا يا الله عدد 100 مرة، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين

فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وسلم).

ثم إذا صلى التراويح عقب صلاة العشاء يتوجه إلى بيته ويصلى ركعتى التسابيح فى حجرته ويدعو الدعاء السابق، ويذكر هذه الأسماء المذكورة قبل خمسمائة مرة يتلو الدعاء عقب كل مائة مرة، ويكرر هذا العمل فى ليلة التاسعة عشر والليالى الآحاد من العشرة الأواخر من رمضان، ويكثر من استغاثة الله، ويسأل الله ما يحبه، فإن الله يستجيب لمن دعا بهذه الأسماء.

ثانياً: ليلة القدر

عظم الله فى القرآن تلك الليلة المباركة فذكرها فى موضعين عظيمين:

1 – قال تعالى: ﴿حم {1} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ {2} إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1]، وأكثر العلماء على أنها ليلة القدر، وبعض العلماء يقول: إن السفرة الكرام ابتدأوا بنسخ القرآن فى الليلة الخامسة عشر من شعبان ثم أتموا نسخه وأنزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر فى رمضان.

2 – وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]، فعظمها الله سبحانه وتعالى بإنزال القرآن فيها، وبأنها خير من ألف شهر، وبأن الملائكة تنزل إلى الأرض للسلام على المسلين فيها، ويبين أن هذا الفضل العظيم يدوم حتى مطلع الفجر. ولم يعين لنا رسول الله ﴿ﷺ﴾وقتها إلا بحالة لا تجعل العامل يحكم أنها ليلة كذا من الشهر، ولكنه حصرها فى الليالى الفردية من العشر الأواخر، لينال العامل أجر

(1) سورة الدخان الآية 1 – 3.

(2) سورة القدر الآية 1.

إحياء تلك الليالى، ويفوز بقيامه فى ليلة القدر ضمنا.
وكان أئمة السلف يعتكفون تلك الليالى فى المساجد، اقتداء بعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾، وكثيراً من العمال المخلصين يرون الملائكة بعيون أرواحهم عند صفائها من لوازم الجسم، لأنهم تشبهوا بصفات العالم الأعلى من الصيام والقيام والتسبيح، ومن تلاوة القرآن والذكر، وقد يرى بعض الحاضرين فى المجلس الملائكة وغيره لا يراها، لأن الرؤيا كانت بعيون الروح لا بعيون الرأس، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

وسواء فى الأجر من رأى الملائكة ومن لم يرهم إذا وفق لإحياء تلك الليلة، ورؤية الملائكة لأهل الصفا فضل يعجله الله لهم لا يقتضى نقص أجر العاملين، الذين لم يروا، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

دعاء ليلة القدر:

خير ما يدعو به الإنسان لتفريج الكروب ولوفاء الديون وللنجاة من الخطوب ما ورد بالسند الصحيح عن رسول الله ﴿ﷺ﴾من الأدعية، علمها رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾لأفراد من الصحابة كانوا فى شدة وضيق ففرج الله كروبهم، ووفى ديونهم، وشرح صدورهم ويسر أمورهم.

(اللهم اغننى بحلالك عن حرامك، اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر

---

(1) سورة العنكبوت الآية 69.

(2) سورة الزمر الآية 10.

الرجال، اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء، وتمنعهما ممن تشاء، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك، اللهم فارج الهم وكاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنى برحمة تغنينى بها عن من سواك، اللهم إنى عبدك، ابن عبدك وابن أمتك، ناصيتى بيدك، عدل فىَّ حكمك، ماض فىَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور بصرى، وانشراح صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى، وشكايتى يا الله).

هى الطهرة والنمو والبركة، والحجة الدالة على أنك بعت مالك ونفسك لله سر قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[1]، فهو سبحانه يملك النفس والمال، فيتصرف فى ماله الذى هو فى خزانته التى أقامك خليفة عنه فى تنفيذ أوامره، بأن تعطى لعياله الفقراء منها ما حكم به لهم وتبقى الباقى فى خزانة الله عندك تتصرف فيه بأمره وحكمه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صفحت له صفائح من نار، فأحمى عليها فى نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالإبل؟ قال: ولا صاحب الإبل لا يؤدى منها حقها، من حقها، حلبها يوم وردها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحداً تطؤه بأخفافها، وتعضه بأفواهها كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالبقر والغنم، قال: ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر لا يفقد منها شئ، ليس منها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها فى يوم كان مقداره

---

(1) سورة التوبة الآية 111.

خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار، قيل: يا رسول الله فالخيل؟ قال: الخيل ثلاثة هى لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر، فأما الذى له أجر، فرجل ربطها فى سبيل الله فأطال لها فى مرج أو روضة، فما أصابت فى طيلها ذلك من المرج أو الروضة كان له حسنات، ولو أنه قطع طيلها فاستنت شرفا أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يسقيها كان ذلك حسنات له. وأما الذى هى له ستر، فرجل ربطها تغنيا وتعففا ثم لم ينس حق الله تعالى فى رقابها ولا ظهورها فهى له ستر. وأما الذى هى عليه وزر، فرجل ربطها فخرا ورياء ونواء لأهل الإسلام فهى على ذلك وزر)[1]. وسئل رسول الله ﴿ﷺ﴾عن الحمر فقال: (ما أنزل الله على فيها شئ إلا هذه الآية الفاذة الجامعة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ {7} وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)[2].

فرائض الزكاة أربع:

الحرية، صحة الملك، وجوب النصاب (وهو مائتا درهم من الفضة، ومن الذهب عشرون ديناراً)[3] واستكمال الحول، وهو من شهر إلى مثله.

---

(1) أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

(2) سورة الزلزلة الآية 7،8.

(3) ما يزم 595 جراما من الفضة، وما يزن 85 جراما من الذهب وجبت عليه الزكاة 2.5%.

الأنواع التى تجب فيها الزكاة:

العين وهى الذهب والفضة والنقدان منهما، والماشية وهى الإبل والبقر، ويدخل فيه الجواميس والغنم ويدخل فيها المعز، والحرث وهو الحبوب المأكولة، ومن الثمار الزيتون والتمر والزبيب.

النصاب من كل نوع:

لا زكاة فى العين من الذهب فى أقل من عشرين دينارا، ومن الفضة لا زكاة فى أقل من مائتى درهم.

نصاب الإبل والغنم والبقر:

لا زكاة فى أقل من خمسة من الإبل، ومن الغنم لا زكاة فى أقل من أربعين شاة، ومن البقر لا زكاة فى أقل من ثلاثين.

ما يخرج من كل نوع:

أما ما يخرج من العين فربع العشر، وأما ما يخرج من الحبوب المأكولة فالعشر إن كانت سقياها بغير آلة، ونصف العشر إن كانت بآلة، أما الماشية فزكاة الإبل على كل خمسة من الإبل شاة إلى تسع، وعلى العشرة منها شاتان إلى أربع عشرة، وعلى خمس عشرة ثلاث إلى تسع عشرة، وعلى عشرين أربع إلى أربع وعشرين، وهذا الخارج من الزكاة من غير نوع المزكى، ومن خمس وعشرين إلى خمس وثلاثين ابنة مخاض[1]، فإن لم توجد ابنة مخاض فابن لبون ذكر، ومن ست وثلاثين إلى خمس وأربعين ابنة لبون[2]، ومن ست وأربعين إلى ستين حقة[1] طروقة الفحل،

---

(1) ولد الناقة إذا استكمل السنة ودخل فى الثانية.

(2) ولد الناقة إذا استكمل السنة الثانية ودخل فى الثالثة.

ومـــــــن إحـــــــدى وســـــــتين إلى خمـــــــس وســـــــبعين جذعة[2]، ومن ست وسبعين إلى تسعين ابنتا لبون، ومن إحدى وتسعين إلى مائة وعشرين حقتان طروقتا الفحل، فما زاد عن عشرين ومائة من الإبل ففى كل أربعين ابنة لبون، وفى كل خمسين حقة.

ما يخرج من الغنم:

إنما تزكى الغنم السائمة فإذا بلغت أربعين ففيها شاة إلى مائة وعشرين، ومن مائة وإحدى وعشرين شاتان حتى تبلغ مائتين، وفى إحدى ومائتين إلى ثلاثمائة ثلاث شياه.

فإذا زادت عن ذلك ففى كل مائة شاة، ويتحرى عامل الزكاة أن لا يأخذ الفحل، ولا كرامها، ولا يقبل هرمة، ولا عوراء ، ولا عجفاء، ولا يجمع المالك بين مفترق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة، وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية.

ما يؤخذ من البقر:

لا تزكى إلا البقر السائمة[3]لا العاملة، فيؤخذ منها من كل ثلاثين عجلا تبيعا إلى تسع وثلاثين، وفى الأربعين مسنة.

---

(1) ما دخل فى السنة الرابعة وأمكن ركوبه أو الحمل عليه.

(2) ما استكمل أربعة أعوام ودخل فى السنة الخامسة.

(3) البقر التى ترسل للرعى ولا تعلف.

زكاة التجار:

التاجر المحتكر يزكى ماله يوم بيع عروضه، أى: بضاعته عن سنة واحدة، ولو حبسها أكثر، أما التاجر المدير فإنه يقوم ماله فى كل سنة ويزكيه ولو كان متفرقا فى أيدى العمال، ولا يزكى الدين إلا بعد قبضه عن سنة واحدة، ولو تأخر أكثر، ومن أودع وديعة فعليه أن يزكيها عن كل سنة، ومن فقد مالا ثم رد عليه فعليه زكاة سنة واحدة، ولو تأخر عنه أكثر، وإذا أخرج من زيت الزيتون فعليه نصف العشر.

حكم الخليطين فى الماشية:

أن يؤخذ منهما الزكاة ثم يعود كل منهما على صاحبه بقدر ماشيته، بشرط أن يكون الماء والفحل والراعى واحدا، هذا إذا كان لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة، أو كان لكل واحد منهما ما لا تجب فيه الصدقة، فإن كان لأحدهما ما تجب فيه الصدقة وللآخر ما لا تجب فيه، بأن كان لأحدهما أربعين شاة وللآخر أقل من الأربعين فالزكاة على الأول.

نصاب الحرث:

لا زكاة فى الحرث فى أقل من خمسة أوسق، والوسق ستون صاعا، والصاع أربعة أمداد، والمدُّ رطل وثلث[1].

---

(1) الوسق يساوى 130.6 كجم، والصاع يساوى 2176 جراما، والمد يساوى 544 جراماً، والرطل يساوى 409 جراما.

الوجوه التى تصرف فيها الصدقة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [1].

والأمر عند العلماء أن الوالى أو مالك المال له أن يجتهد فى أن يدفع صدقته فى أى نوع إذا رأى المصلحة فى ذلك بحسب الاجتهاد، ومقتضيات الاجتهاد.

من لا تحل له الصدقة:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(لا تحل الصدقة لغنى. إلا لخمسة: لغاز فى سبيل الله، أو لعامل عليها، أو لغارم، أو لرجل اشتراها بماله، أو لرجل له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغنى، ولا تحل الصدقة لآل مُحَّد، ولا لمواليهم).

زكاة الفطر:

فرض رسول الله ﴿ﷺ﴾زكاة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة، فعلى أهل كل بلد أن يخرجوا زكاة صومهم صاعا من الحبوب المأكولة غالبا فى بلدهم، أو من الزبيب أو التمر أو اللبن[2].

فضل الصدقة:

قال رسول الله ﷺ: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً،

---

(1) سورة التوبة الآية 60.

(2) أجاز الأحناف إخراج زكاة الفطر نقداً.

وما تواضع أحد لله إلا رفعه)[1]. ومن حسن معاملة الله فى إعطاء الصدقة أن تتحقق بأنك أخذت بإعطائك أكثر مما أعطيت، فضلا عن أن الله أغناك وأفقر الآخر، والأولى لك أن تنزل نفسك منزلة الفقير وتنزله منزلة الغنى، وبدل أن يسألك تسأله، فتسأله أن يقبل منك، والأفضل فى المعروف أن يؤثر الرجل إخوانه من الفقراء على غيرهم من الأجانب.

روى عن على عليه السلام: لأن أصل أخا من إخوانى بدرهم أحب إلىَّ من أن أتصدق بعشرين درهما، ولأن أصله بعشرين درهما أحب إلىَّ من أن أتصدق بمائة درهم، ولأن أصله بمائة درهم أحب إلىَّ من أن أعتق رقبة. ولأن الله تعالى ضم الأصدقاء إلى الأقارب فكان فضل الصدقة على الصديق دون البعيد كفضل الصدقة على الأقارب دون الأباعد، لأنه ليس بعد صلة الرحم فى معناها أفضل من صلة الإخوان.

وكان بعض السلف يقول: أفضل الأعمال صلة الإخوان، وإعطاء الزكاة لفقراء الصوفية وصلتهم بالهدايا مما يقرب إلى الله تعالى، لأن قلوبهم مشغولة بالله وبذكره وأبدانهم عاكفة على الله، وإذا أصابهم جوع أو حاجة شغلتهم عن إقبالهم فمن أعانهم فكأنه أعان على خير عظيم، ولأنهم إذا وصلهم أحد بهدية أو بصدقة شكروا الله تعالى ورأوا النعمة منه سبحانه وتعالى، فيكون المعطى أعان على شكر الله الخالص، ومن أعان على خير فله مثله ثم يجعل زكاة ماله فى أرحامه الذين لا تجب عليه نفقتهم. الأقرب فالأقرب من أخ وأخت وخال وعم وفروعهم، ثم جيرانه من الفقراء، ثم أهل ود والديه الفقراء، كل ذلك يجعل المنفق على مزيد من فضل الله تعالى محبوبا عند الله تعالى، مطمئن القلب على ماله ونفسه من آفة وبلية حتى لو قدرها الله تعالى يتداركه باللطف.

---

(1) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب.

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾[1]، وقال ﴿ﷺ﴾(حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدعاء)[2]، وقال ﴿ﷺ﴾(هلك الأكثرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا)، ومعلوم أن إنفاق المال فى الخيرات أحد أركان الدين، والتكليف به بعد القيام بما يرتبط به من مصالح البلاد والعباد وبعد الخلات والفاقات، ومعلوم أن المال محبوب الخلق، وهم مأمورون بحب الله عز وجل، ويدعون الحب بنفس الإيمان، فجعل بذل المال معياراً لحبهم، وامتحاناً لصدقهم فى دعواهم، فإن المحبوبات كلها تبذل لأجل المحبوب الأغلب حبه على القلب، فانقسم الخلق فيه على قدر مراتبهم:

1 – فمنهم الأقوياء: وهم الذين أنفقوا جميع ما ملكوا ولم يدخروا لأنفسهم شيئاً، فهؤلاء صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الحب، كما فعل سيدنا أبو بكر الصديق إذ جاء بماله كله فقال له ﴿ﷺ﴾(ماذا أبقيت لنفسك؟ فقال: الله ورسوله)، وقال لسيدنا عمر رضي الله عنه: (ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: مثله) أى: مثل ما أتيت به، فقال ﴿ﷺ﴾(بينكما مثل ما بين كلمتيكما).

2 – ومنهم المتوسطون: وهم الذين لم يقدروا على إخلاء اليد عن المال دفعة

---

(1) سورة البقرة الآية 261.

(2) هذا الحديث رواه الطبرانى، وأبو نعيم والعسكرى والقضاعى عن ابن مسعود مرفوعاً، ورواه البيهقى فى الشعب عن أبى أمامة مرفوعاً هكذا: (حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء) وله روايات أخرى عن عبادة بن الصامت، وعن سمرة بن جندب.

واحدة، ولكن أمسكوه لا للتنعم بل للإنفاق عند ظهور محتاج إليه، فهم يقنعون فى حق أنفسهم بما يقويهم على العبادة، وإذا عرض محتاج بادروا إلى سد خلته وحاجته، ولم يقتصروا على قدر الواجب من الزكاة وإنما غرضهم الأظهر فى الإمساك ترصد الحاجات.

3 – ومنهم الضعفاء: وهم المقتصرون على أداء الزكاة الواجبة، فلا يزيدون عنها ولا ينقصون منها.

فهذه درجاتهم، وبذل كل واحد منهم على مقدار حبه لله، ومن لا يقدر إلا على أداء الواجب فليجتهد حتى يزيد الواجب ولو شيئاً يسيراً، فإن مجرد الواجب حد البخلاء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾[1]، فجاهد نفسك يا أخى حتى لا ينقضى عليك وقت إلا تتصدق فيه بشئ وراء الواجب ولو بكسرة خبز لترفع بذلك عن درجة البخلاء، فإن لم تملك شيئاً فليست الصدقة كلها فى المال؛ لكن كل كلمة طيبة، وشفاعة، ومعونة فى حاجة، وعيادة مريض، وتشييع جنازة، وكل ما تقدر عليه من جاه ونفس وكلام لتطييب قلب مسلم؛ يكتب لك صدقة.

المحافظة على الزكاة والصدقة:

وحافظ فى زكاتك وصدقتك على خمسة أمور هى:

الأول: الإسرار، فإن فى الخبر: (إن صدقة السر تطفئ غضب الرب)[2]، والذى يتصدق بيمينه بحيث لا تعلم شماله هو أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل

---

(1) سورة محمد الآية 37.

(2) هذا الحديث أخرجه الطبرانى من حديث أبى أمامة، ورواه البيهقى فى الشعب من

إلا ظله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ﴾[1]، وبذلك تتخلص من الرياء فإنه غالب على النفس، وهو مهلك ينقلب فى القلب إذا وضع الإنسان فى قبره فى صورة حية، أى: يؤلم إيلام الحية، والبخل ينقلب فى صورة عقرب، والمقصود فى كل الإنفاق الخلاص من رذيلة البخل، فإذا امتزج به الرياء كان كأنه جعل العقرب غذاء الحية، فما تخلص من العقرب ولكن زاد فى قوة الحية، إذاً كل صفة من الصفات المهلكات فى القلب إنما غذاؤها وقوتها فى إجابتها إلى مقتضاها.

الثانى: أن تحذر من المن، وحقيقته أن ترى نفسك محسناً إلى الفقير متفضلاً عليه، وعلامته أن تتوقع منه شكراً، أو تستنكر تقصيره فى حقك وممالأته عدوك استنكاراً يزيد على ما كان قبل الصدقة، فذلك يدل على أنك رأيت لنفسك عليه فضلاً، وعلاجه أن تعرف أنه هو المحسن إليك بقبول حق الله منك، فإن من أسرار الزكاة تطهير القلب وتزكيته عن رذيلة البخل وخبث الشح، ولذلك كانت الزكاة مطهرة، إذ بها حصلت الطهارة، فكأنها غسالة نجاسة، ولذلك ترفع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾وأهل بيته عن أخذ الزكاة، وقال ﴿ﷺ﴾(إنها أوساخ أموال الناس)[2]، وإذا أخذ الفقير منك ما هو طهرة لك فله الفضل عليك، أرأيت لو كان فصاداً فصدك مجاناً وأخرج من باطنك الدم الذى تخشى ضرره فى الحياة

حديث أبى سعيد، ورواه الترمذى وحسنه من حديث أبى هريرة: (إن الصدقة لتطفئ غضب الرب) ورواه أيضاً ابن حبان من حديث أنس.

(1) سورة البقرة الآية 271.

(2) هذا الحديث رواه مسلم عن ربيعة بن الحارث بلفظ: (الصدقة أوساخ الناس)، وأيضاً رواه مسلم عن حديث المطلب بن ربيعة بلفظ: (لا تحل الصدقة لآل محمد، إنما هى أوساخ الناس).

الدنيا كان الفضل لك أم له؟ فالذى يخرج من باطنك رذيلة البخل وضررها فى الحياة الدنيا والآخرة أولى بأن تراه متفضلاً.

الثالث: أن تخرجه من أطيب أموالك وأجودها، قال الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُواْ الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2]، وقال ﴿ﷺ﴾(إن الله طيب ولا يقبل إلا الطيب) يعنى الحلال، فإن المقصود من هذا إظهار درجة الحب، والإنسان يؤثر الأحب إليه والأنفس دون الأخس.

الرابع: أن تعطى بوجه طلق مستبشر وأنت به فرحان غير مستكره، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(سبق درهم مائة ألف)[3]، وإنما أراد ما يعطيه عن بشاشة وطيب نفس من أنفس ماله وأجوده، فذلك أفضل من مائة ألف مع الكراهة.

الخامس: أن تتخير لصدقتك محلاً تزكو به الصدقة، وهو المتقى العالم الذى يستعين بها على طاعة الله عز وجل وتقواه، أو الصالح الفقير ذا الرحم، فإن لم تجتمع هذه الأوصاف، فتزكو الصدقة بآحادها أيضاً، ورعاية الصلاح أصل الأمور، فما الدنيا إلا البلغة للعباد وزاد لهم إلى المعاد، فليصرف إلى المسافرين إليه المتخذين هذه الدار منزلاً من منازل الطريق، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(لا تأكل إلا طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلا تقى).

---

(1) سورة النحل الآية 62.

(2) سورة البقرة: الآية 267.

(3) هذا الحديث أخرجه النسائى وابن حبان وقال حديث صحيح- من حديث أبى هريرة.

هذا الركن الذى هو الزكاة هو العبادة المالية الصرفة، ولم تكن الزكاة بهذا التفصيل فى أنواع الأموال والمستحقين فريضة- على ما أعلم- فى غير ديننا، وذلك لأن الإسلام جعل كل فرد من المسلمين لكل فرد ككل عضو من الجسد لكل عضو، قال ﴿ﷺ﴾(مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه اشتكى كله)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]، فجعل لنا سبحانه الأرض مسجداً وترابها طهوراً، وأحل لنا الغنائم، وجعل الزكاة من كل أنواع الأموال، وعمم النفع بها لأنواع من الناس حتى ظهر سر قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾[3].

من كلام الله سبحانه وكلام رسول الله ﴿ﷺ﴾يظهر لنا مكانة كل مسلم من المجتمع الإسلامى، ومكانة كل فرد من المسلمين، ومن فتح الله قفل قلبه ففقه سر فرضية الزكاة يعلم حق العلم أن العمل فى الدنيا عمل لله تعالى، وقيام بفرض عليه لاخوته المسلمين.

كشف شئ من رموز الزكاة:

وإليك كشف شئ من رموز الزكاة:

1- الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن المجتمع الإسلامى عائلة واحدة، يدلى نسبهم إلى أب واحد هو رسول الله ﴿ﷺ﴾، وأزواجه رضى الله عنهن أمهاتهم، وكما

(1) سورة الحج الآية 78.

(2) سورة الحجرات الآية 10.

(3) سورة آل عمران الآية 134.

تجب النفقة على الغنى للفقير من والديه إذا عاقه عن العمل مرض ظاهر أو فساد فى قوة العقل، فكذلك يجب على الغنى أن ينفق على أخيه فى النسب الإسلامى بقدر ما أمره الله سبحانه وتعالى، فيكون الغنى يبر والده الأعظم رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فى ابنه الذى هو أخوه المسلم، قال ﴿ﷺ﴾(أدخل الإسلام بلالاً فى نسبى وأخرج الكفر أبا لهب من نسبى)، وقال ﴿ﷺ﴾(سلمان منا أهل البيت)[1]، فالمسلمون أبناء رجل واحد هو رسول الله ﴿ﷺ﴾، والغنى من المسلمين هو أخ الفقير وكنزه وخزينته، فلا يرضى أن يجوع أخوه وهو شبعان لأن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين، فإن الغنى عارية فلعله يأتى عليه يوم- وهو فقير- فيتمنى أن يعينه إخوانه، وما كان يتمنى الفقير منه المعونة.

2- إن تأدية الزكاة تلقى المحبة فى قلوب الفقراء، فينال منه عواطف تلك القلوب المتوجهة إلى علام الغيوب، ومقبول دعاء تلك الألسنة المبتهلة إلى الله تعالى، وحب تلك النفوس التى ترى أنك يا أخى بإعطائك الزكاة إياهم نجيتهم من آلام الجوع والعرى، فيكون الفقراء لك زينة فى الرخاء، ودروعاً وسيوفاً فى الشدة.

3- إنك يا أخى إذا أخرجت الزكاة طيبة بها نفسك، وعلمت أن هذا العمل فرض عليك اعتقدت أن المال لله يتصرف فيه كيف يشاء، فتكون وفيت بالبيع الذى بعته لله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[2]، وتكون بنص تلك الآية الشريفة ممن بشرهم الله تعالى بالجنة.

4- بإخراجك الزكاة طيبة بها نفسك تعيش مطمئن القلب من خوف مصيبة أو بلية، صحيح البدن من خوف ألم أو من مرض، وذلك لأنك بإخراجك الزكاة

(1) هذا الحديث رواه الطبرانى والحاكم عن عمرو بن عوف.

(2) سورة التوبة الآية 111.

يحصل لك انشراح صدر لاعتقادك أنك طهرت مالك، وحصنت نفسك بتأدية الزكاة، ومن يؤدى الزكاة على الوجه الذى أمر الله شاعراً بالفقراء والعطف على المسكين، فلا شك أنه يكون رحمانياً لا يظلم الناس لا فى بيع ولا فى شراء، ولا يسئ جاراً له، ولا يقطع ذا رحمه، ولا يعق والديه، ولا يسعى فى سوء أو فساد بين الناس.

وللزكاة أسرار غامضة يشهدها من أقامه الرب سبحانه خليفة عنه، حتى يكون المشاهد فى إخراج الزكاة خليفة عن ربه فى الإعطاء، عبداً مطيعاً لمولاه، وعاملاً مخلصاً من عمال الله، وعبداً مسكيناً فقيراً وهبه الله خير مواهبه، وواجهه بأجمل مواجهاته العلية، وتلك الأسرار لا تفى بها عبارة المعبرين، ولكنها نعمة من الله تعالى سر قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ﴾[1]، وقوله ﴿ﷺ﴾(من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم)[2]، والعارف إذا أشار للمريد السالك كانت الإشارة أفصح من العبارة له، قال ﴿ﷺ﴾(المؤمن يكفيه قليل الحكمة).

تزكية النفس:

وهناك نوع آخر من أنواع الزكاة وهى تزكية النفس: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى {14} وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ

---

(1) سورة البقرة الآية 282.

(2) ذكره أبو نعيم فى الحلية من حديث أنس بن مالك، ورواه الغزالى فى الإحياء ج1 ص71.

(3) سورة المؤمنون الآية 4.

فَصَلَّى﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {7} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {8} قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[2].

تزكية النفس فى الحقيقة الأصل الذى تؤسس عليه الأصول وتقوم به الفروع، ومن جاهد نفسه وهواه فى ذات الله بلغ غاية مناه، ومن أهمل تزكية نفسه كان كالحيوان الأعجم وإن عمل كل القربات، فهو إنما يقلد غيره كالقردة أو النسانيس ما دام لم يجتهد فى صفاء جوهر نفسه وتطهيرها من نجاستها، ومن زكى نفسه عرفها، ومن عرف نفسه عرف ربه.

وقد فصلت طرق تزكية النفس وتصفية جوهرها وعلاجها من أمراضها لإعادة الصحة عليها، والمعدات التى تحفظ الصحة عليها فى كتاب: (الإسلام دين الله)، وفى كتاب: (معارج المقربين) فى قسم علوم النفس، وفى كتاب: (شراب الأرواح).. إلى آخره، فأكتفى هنا بتنبيه أخى إلى العناية بتزكية نفسه حتى يمكنه أن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويحج البيت ويصوم رمضان، ويقوم لله فى كل ما أوجبه عليه مشاهداً أسرار حكمة أحكامه، وغوامض ما تعبدنا سبحانه وتعالى به، والله أسأل أن يمنحنا الفقه والحكمة والمعونة على طاعته وشكره وذكره إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الاعتكاف:

هو لزوم المسلم مسجدا مباحا عكوفا على طاعة الله تعالى، وفراغا لقلبه وبدنه لعبادته، ولا يكون إلا بالصيام لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي

---

(1) سورة الأعلى الآية 14-15

(2) سورة الشمس الآية 7-9

الْمَسَاجِدِ﴾[1]، بعد إباحة المباشرة فى ليالى رمضان. فذكر الاعتكاف عند ذكر الصيام، يؤخذ منه أن الصيام ركن فيه، وعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾يعين ذلك حيث كان يعتكف فى رمضان.

والأولى للمعتكف أن لا يخرج من المسجد إلا لحاجة الإنسان، فلا يخرج لعيادة المريض إلا مارا مسلما، ولا يشيع الجنازة ولو جنازة أبيه، والاعتكاف مندوب فى كل مسجد إلا من نوى أياما يدخل فيها الجمعة، فالأولى له أن يعتكف بمسجد الجمعة.

لأنه بخروجه يفسد الاعتكاف، والأحب أن يدخل قبل غروب الشمس من الليلة التى يريد أن يعتكف فيها، والمعتكف مشتغل بالعكوف على ربه لا يشتغل بغيره من التجارات وغيرها، ويجوز له أن يأمر بأعماله ومصلحة أهله من الأعمال التى لا تشغله فى نفسه، وكان ﴿ﷺ﴾يعتكف فى العشر الأواخر من رمضان، وعمل المعتكف قراءة القرآن، وذكر الله تعالى، والتبتل، والتضرع، والابتهال لجنابه العلى، وبه تزكو النفس، ويصفو القلب.

النذر:

هو التزام مسلم مكلف عاقل عملا أو بذلا، قال ﴿ﷺ﴾(من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه)[2] ومعنى قوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(من نذر أن يعصى الله فلا يعصه) كأن ينذر الرجل أن يمشى إلى الشام أو إلى مصر أو ما أشبه ذلك مما ليس لله بطاعة، بأن يقول: إن كلمت فلانا فلله على أن أمشى إلى الشام أو إلى مصر أو ما أشبه ذلك، وإنما يوفى لله بما فيه

---

(1) سورة البقرة الآية 187.

(2) أخرجه البخارى عن عائشة.

طاعة، والأولى لمن أراد أن ينذر أن يجعل النذر لله ويعين مصرفه، ومن البدع المضلة نذر النذور لتذبح عند القبور وهى جاهلية[1]، وإنما يكون النذر خالصا لله تعالى، ولك أن تعين مصرفه كيف شئت.

اليمين:

هو القسم بالله أو باسم من أسمائه سبحانه أن يعمل أو لا يعمل، والإيمان ثلاثة أقسام: يمين غموس، وهو الذى يغمس صاحبه فى النار، وذلك أن يفعل الشىء ويقسم أنه لم يفعل، وهذا يغمس صاحبه فى النار، ويمين حنث: أن يقسم أن يفعل كذا فهو على حنث حتى يفعل، ويمين بر: وهو أن يقسم أن لا يفعل فهو على بر حتى يفعل، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: أكثر ما كان النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾يحلف (لا ومقلب القلوب). وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)[2]. وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(من حلف فقال فى حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليتصدق)[3]. ومن أقسم على شئ لا يفعله ورأى فعله خيرا فعل وكفر عن يمينه، ومن أقسم أن يفعل ورأى الترك خيراً ترك وكفر عن يمينه.

---

(1) إن كان النذر لله وذكر النبى والولى لبيان المصرف، أو بطريق التوسل، أو إهداء ثواب النذر لصاحب القبر فالنذر فى هذه الصور كلها جائز.

(2) أخرجه البخارى عن ابن عمر، والمعنى: من حلف بغير الله على اعتقاده الغير إلهاً، لأن النبى ﷺ فى حديث صحيح رواه مسلم والبخارى وأبو داود والنسائى والدارمى ومالك قال: (أفلح وأبيه إن صدق).. وهذا قسم بالأب.

(3)أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

كفارة اليمين:

صيام ثلاثة أيام، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وأتيت الذى هو خير)[1].

(1)أخرجه البخارى عن أبى موسى الأشعرى.

هو قصد بيت الله تعالى الحرام، تأدية لشعائر الله، وتعظيما لحرماته سبحانه وتعالى. والحج كمال الشريعة، وتمام الملة، لقوله تعالى فى القرآن الشريف ورسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بالموقف الأكبر: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[1] ومن مكنه الله تعالى بفضله ونعمته أن يقصده ويزوره فى بيته، ويقف لمناجاته ولم ينشرح صدره لذلك وتهاون فقد قطع ما بينه وبين ربه. وفى الخبر: (من لم يمنعه من الحج مرض قاطع، أو سلطان جائر ومات ولم يحج، فلا يبالى مات يهوديا أو نصرانياً) [2].وقال عمر ﷺ: لقد هممت أن أكتب إلى الأمصار بضرب الجزية على من لم يحج ممن يستطيع إليه سبيلا.

وعن سعيد بن جبير، وإبراهيم النخعى، ومجاهد، وطاووس: لو علمت رجلا غنيا وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يحج ما صليت عليه، وبعضهم كان له جار موسر فمات قبل أن يحج فلم يصلّ عليه. وقال ابن عباس: من مات ولم يزك ولم يحج سأل الرجعة إلى الدنيا وفسره فى الآية ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ {99} لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾[3]،قال: أحج، ومثله فيقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[4] قال: أزكى وأحج.

---

(1) سورة المائدة الآية 3.

(2)رواه الترمذى عن أبى هريرة.

(3) سورة المؤمنون الآية 99-100.

(4) سورة المنافقون الآية 11.

شروط الحج:

الإسلام، البلوغ، العقل، الحرية، الاستطاعة (الزاد والراحلة، وأمن الطريق، وبدل الزاد الحرفة أو الصنعة النافعة فى الطريق، وبدل الراحلة القوة على المشى، وبدل أمن الطريق الرفقة التى تدفع عن نفسها).

فرائض الحج:

أجمع أكثر العلماء على أن فرائض الحج أربعة: الإحرام بالحج، والوقوف بعرفة إلى ما بعد غروب الشمس من يوم عرفة ومدته من غروب الشمس إلى طلوع الفجر. وطواف الإفاضة أو الزيارة الذى يقع بعد وقوف عرفة وبعد رمى جمرة العقبة الأولى، والسعى بين الصفا والمروة بعد الإحرام بالحج سواء كان قبل الوقوف أو بعده، وغير هذه من الأعمال، فإما واجب يجبر تركه بنسك، أو سنة لا شئ عليه فى تركها، أما هذه الأعمال الأربعة فتركها أو أحدها مبطل للحج.

فضائل الحج:

قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾[1]. وأشهر الحج شوال، وذو القعدة، وثلاث عشر من ذى الحجة.

الرفث والفسوق:

فالرفث اسم جامع لكل لغو وخنا وخبث وهجر من الكلام، ومغازلة النساء وملاعبتهن والتحدث فى شأن الجماع. والفسوق جمع فسق وهو اسم جامع لكل

(1) سورة البقرة الآية 197.

خروج من طاعة، ولكل تعدى حد من حدود الله تعالى.

الجدال:

هو وصف مبالغ للخصومة، والمراء فيما يورث الضغائن، وفيما لا نفع فيه، فهذه ثلاثة أقسام مختصرة لهذه المعانى المثبتة لأمر الله تعالى لتنزيه شعائره ومناسكه منها، لأنها مشتملة على الآثام وهن أصول الخطايا والإجرام.

أول فضائله:

حقيقة الإخلاص به لوجه الله تعالى، وأن تكون النفقة حلالا، واليد فارغة من تجارة تشغل القلب، وتفرق الهم، ويكون الهم مجردا، والقلب ساكنا مطمئنا مملوءا بالذكر، فارغا من الهوى، ناظرا أمامه غير ملتفت إلى ورائه، وصحة القصد بحسن الصدق ثم طيب النفس بالبذل والإنفاق والتوسع فى النفقة والزاد وبذل ذلك، لأن النفقة فى الحج بمنزلة النفقة فى سبيل الله تعالى، والدرهم بسبعمائة درهم، والحج من سبيل الله روى ذلك عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ وكان ابن عمر وغيره يقول: من كرم الرجل طيب زاده فى سفر أى حله، وكان يقول: أفضل الحجاج أخلصهم نية، وأزكاهم نفقة، وأحسنهم يقينا. قال ﴿ﷺ﴾(الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[1] وسئل ﴿ﷺ﴾ما بر الحج؟ قال: طيب الكلام وإطعام الطعام.

(1) أخرجه مسلم والترمذى عن أبى هريرة.

الحج وآدابه

تعريف الحج:

الحج لغة: القصد، ولا يقال حج إلا إذا قصد عظيماً.
وفى الاصطلاح: حضور بعرفة وطواف وسعى بعد إحرام، وهو الحجة القائمة للعبد على كمال إيمانه وتعظيمه للشريعة المطهرة، ومحبته الخالصة لله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1] فالحج فريضة يتعين على الفور متى توفرت الاستطاعة وخصوصاً إذا بلغ الستين من عمره.

ومن كمل إيمانه فاشتاق إلى الحج ولم يستطع، كان شوقه هذا دليلاً على محبته لله تعالى وكمال إيمانه، ومن استطاع وأخر الحج حتى مات فيلمت على أى دين شاء، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[2].

آداب من عزم على الحج:

1- يجب عليه أن يجاهد نفسه فى تجريد نيته من الشوب حتى ينوى بالحج وجه الله تعالى.
2- أن يحصل زاده ونفقته من حل، وأن تكون النفقة زائدة على من تجب عليه نفقتهم.
3- أن يكون طاهراً من الدين ومن حقوق العباد.
4- يسن له أن يزور إخوانه قبل سفره ملتمساً منهم الرضا والدعاء والعفو.

---

(1) سورة آل عمران الآية 97.

(2) سورة آل عمران الآية 97.

5- أن يحرص على صحبة الأتقياء أهل الورع من العلماء، خصوصاً فى سفر الحج فإذا صحح نيته بلغ أمنيته.

6- يستحب له عند خروجه من داره ومفارقته لأهله وأولاده أن يخرجهم من قلبه كما فارقهم بجسمه، تفريداً لله تعالى بالقصد دون غيره، حتى لا يشغله مال ولا أهل ولا ولد.

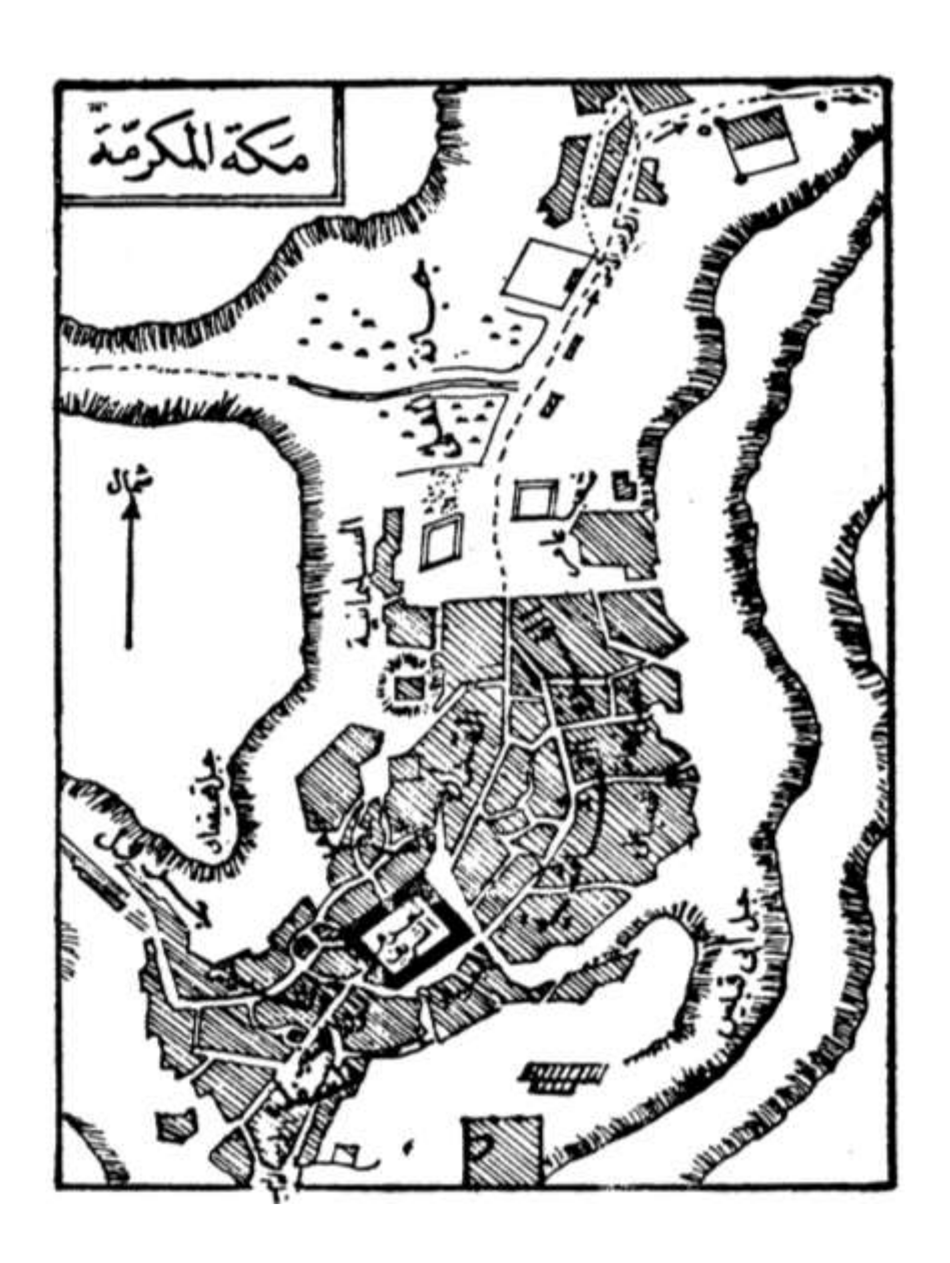
7- يستغرق كل أنفاسه من خروجه من بيته إلى أن يتم حجه فى حضور مع الله، واستحضار للفوز بمقصده الأعظم الذى هو قبول الله عمله، وإقبال الله تعالى بوجهه الكريم عليه.

8- يعلم حق العلم أنه ما خرج لرياضة وتنزه ومشاهدة البر والبحر، ولكنه خرج ليقبل بكليته على الله ليزوره سبحانه فى بيته، ليريه ملكوت السماوات والأرض، بشهود الآيات فى الكائنات، لأنه خرج ليدخل مقام إبراهيم عليه السلام حساً ومعنى. ومن تفضل الله عليه بالدخول فى المقام حساً ومعنى أشهده ملكوته الأعلى كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1].

الفرض والواجب فى الحج:

لا فرق عند المالكية والشافعية والحنابلة بين الفرض والواجب إلا فى الحج: فالفرض مالا يقبل الحج إلا به فيبطل بتركه. أما الواجب فهو الذى يجبر بالدم إذا ترك ولا يبطل الحج بتركه.

(1) سورة الأنعام آية 75.


مكة المكرمة
شمال

ميقات الإحرام المكانى:

ميقات الحج والعمرة المكانى للمدينة وما والاها (ذو الحليفة)[1]، وللشام وما والاها (الجحفة)[2].

ومن سافر بالبحر من مصر وما والاها فميقاته (رابغ)[3].

وميقات اليمن وما والاها (يلملم)[4]، وميقات العراق وما والاها (ذات عرق)[5]، وميقات نجد وما والاها (قرن)[6].

ميقات الإحرام الزمانى:

الإحرام كناية عن أن يحرم من وجد فى حرم الله من المقبلين على بيته، ما لا يليق بأدب من أقبل على الله فى حرمه، قال سبحانه وتعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾[7] وهى شوال وذو القعدة وثلاثة عشر من ذى الحجة على أرجح الأقوال ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [8]

---

(1) شمال مكة بـ 450 كيلو مترا.

(2) شمال غرب مكة بـ 187 كيلو مترا.

(3) بينها وبين مكة 204 كيلو مترا.

(4) جنوب مكة بـ 54 كيلو مترا.

(5) شمال شرقى مكة بـ 94 كيلو مترا.

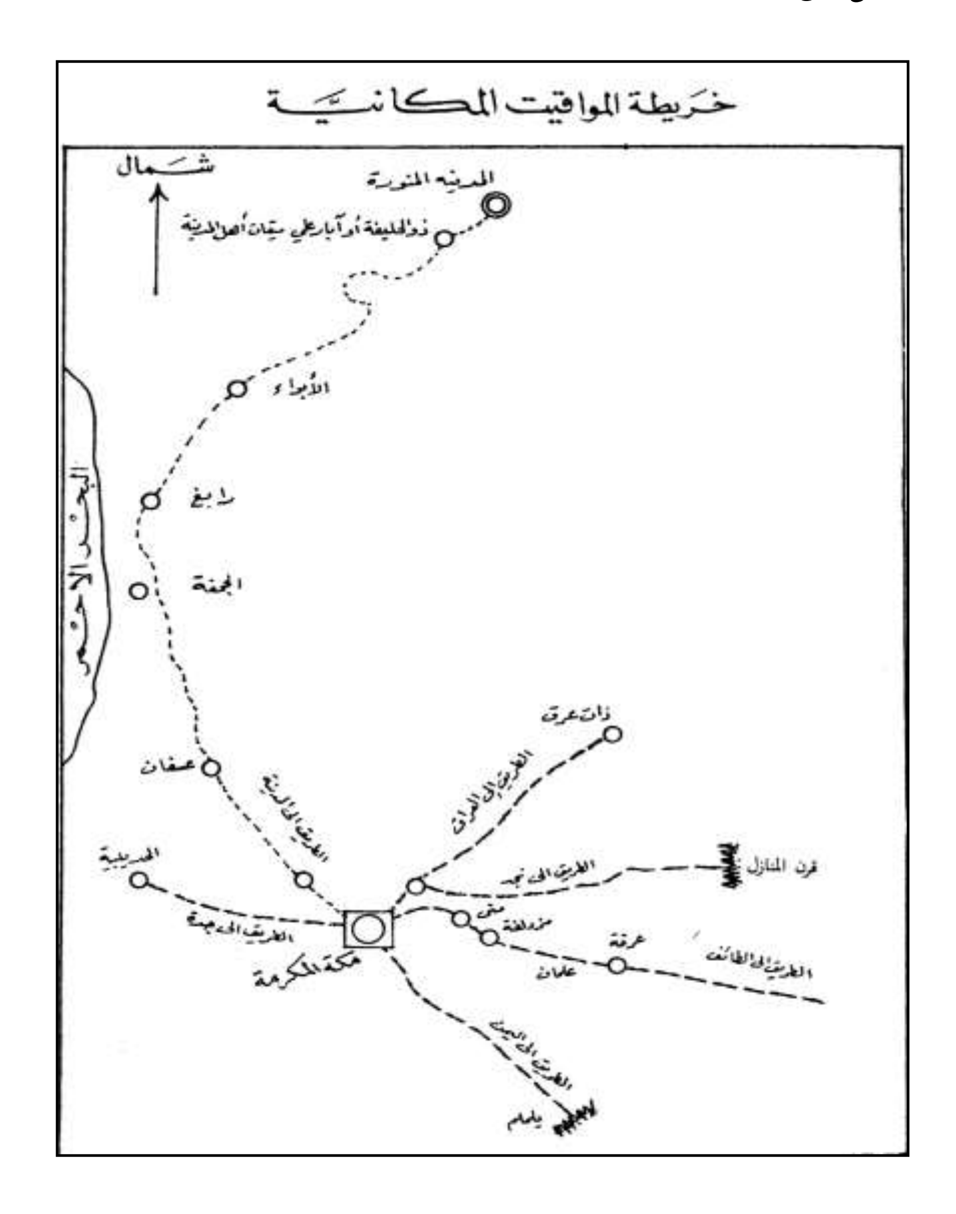
(6) شرق مكة بـ 94 كيلو مترا.

(7) سورة البقرة الآية 197.

(8) سورة البقرة الآية 197.

تعريف الإحرام:

الإحرام هو تحريم الحاج عمل ما لا يباح له شرعاً، بمجرد دخوله فى ميقات الإحرام، فإنه عاهد الله تعالى أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل ولا يصطاد، وأن يتجرد من المحيط والمخيط، وأن يحضر بقلبه حتى يصغى إلى دعاء الله تعالى فيلبيه، فلا يغفل عن ذكر الله ولا ينساه سبحانه.



والإحرام كتكبيرة الإحرام التى يحرم بها على المصلى ما يبطل الصلاة أو ينقصها تعظيماً لله تعالى ولشعائره.

تفصيل مجمل الإحرام:

الفرض فى الإحرام هو النية التى يعين بها المقصد، ويسمى فى اصطلاح الفقهاء بالإهلال، ولا يلزم النطق بها لأن محلها القلب، ومن ترك النية فلا حج له، والغسل للإحرام سنة، وصلاة الركعتين سنة، والتجرد من المحيط والمخيط واجب، وكشف الرأس واجب، والتلبية واجبة، وتجديد التلبية للمقتضيات سنة: كاليقظة من النوم، والصعود والهبوط، وعند ملاقاة الرفاق، وبعد السلام من الصلاة. فمن تركها زمناً طويلاً فعليه دم.

إحرام الصبى والمجنون:

يحرم عنهما الولى أباً أو وصياً ويجردهما قرب الحرم، والأولى أن يكون فى التنعيم عند مسجد عائشة.

لباس المحرم:

لا يلبس المحرم قميصاً ولا عمامة ولا سراويل، ويحرم عليه ما فوق ذلك من قفطان وجبة، ولباسه إزار يستر به من السرة إلى أسفل الركبة، وكساء يستر به من كتفه إلى أسفل الإزار، ويكشف رأسه، والرأس تبتدىء من الشعر النازل منها على الصدغين إلى منتهى منابت الشعر من العنق، ومن منابت الشعر من مقدم الرأس إلى منتهى الرأس من الخلف، فلو ستر وجهه بعد ذلك لا شىء عليه.

وأكمل الألوان الأبيض، والمكروه اللون الزعفرانى والورس، وترك غسل ثياب الإحرام

أولى خوفاً من قتل الحيوانات بها، ولا بأس بتغييرها عند الضرورة، وكلما كان المحرم تفث الثياب والجسم كلما كان أجمل عند الله تعالى، والتفث الأوساخ. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[1]. وقضاء التفث تقليم الظفر وتقصير الشعر ونتف الإبط وإزالة الأوساخ البدنية، لأن المحرم مقبل على الله تعالى متجمل بحلة المسكنة والخشية والفقر والاضطرار أمام ربه، ليكون مقبولاً لديه سبحانه، فالأجمل به عدم العناية بالنظافة والترف والخيلاء، ويلبس نعلين من نعال أهل البادية، فإن لم يجدهما لبس نعلين من النعال التى يلبسها المصريون على فراشهم (الشباشب).

آداب الإحرام:

1- والمحرم يبتدىء بالغسل، وصلاة ركعتين، والنية، وهى تعيين حج أو عمرة أو جمع بين الحج والعمرة وهى النية.

2- ثم يتجرد من المحيط والمخيط، بعد تقليم ظفره ونتف إبطه، وحلق عانته وحلق الرأس إن كان ممن اعتاده ولم يضره، وإن لم يكن معتاداً لبد شعر رأسه بما اعتاده الناس إن خاف ضرراً.

3- ثم يهل ملبياً عقب الصلاة المفروضة، أو عقب ركعتين، وإن أخر إحرامه للعصر عدل التلبية عقب صلاة العصر، خشية من أن يؤخر الإحرام فيقع فى كراهية صلاة الركعتين التى يكون الإهلال بعدهما، ويلبى بما أحب أن يلبى به، والأولى أن يلبى بتلبية رسول الله ﷺ ولفظها: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك).

4- ولا يجاوز الحل داخلاً فى الحرم إلا محرماً، ملاحظاً أنه دخل فى حرم الله الذى ميقاته لمصر وما والاها (رابغ) فى البحر، فيتجرد جسماً وروحاً إعظاماً وإجلالاً لله

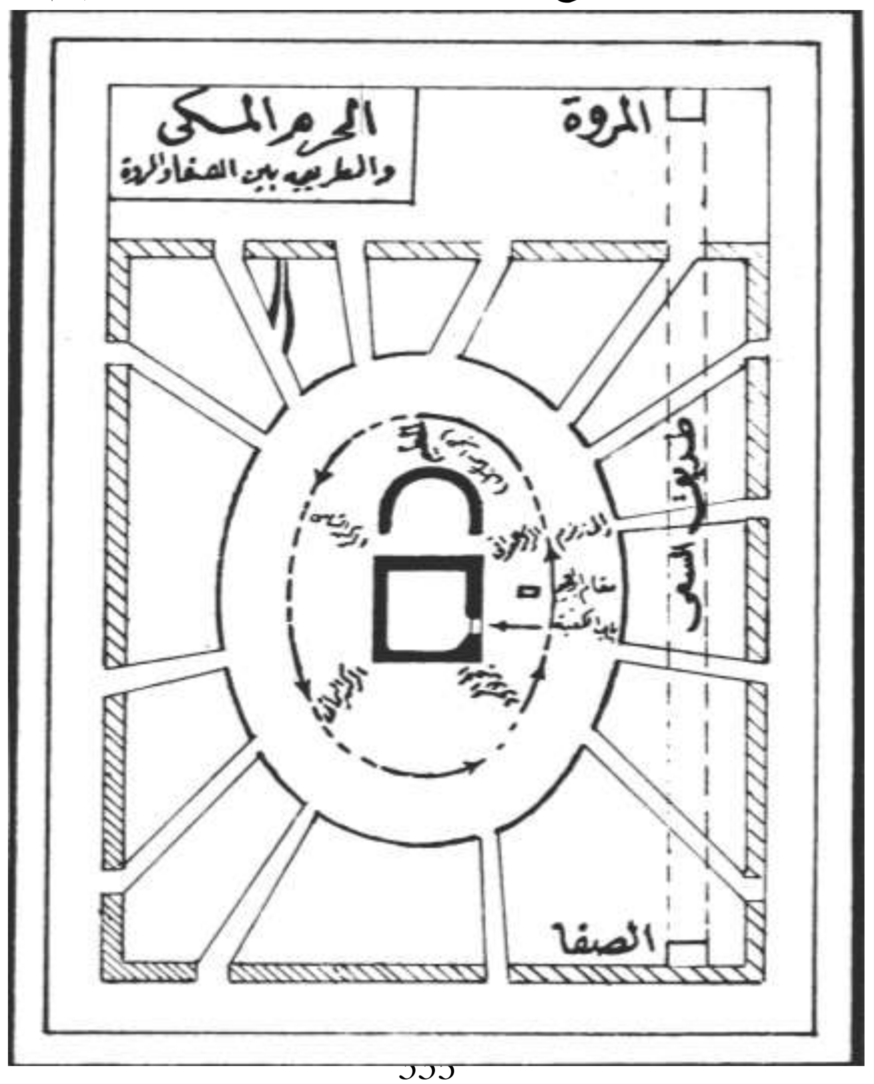
---

(1) سورة الحج الآية 29.

تعالى ولحرمه الشريف، واقتداء بعمل الحبيب المحبوب ﴿ﷺ﴾ حتى يكون حاجاً حقاً عزماً وصدقاً، ويديم التلبية عقب الصلوات وعند تغيير الشئون من صعود أو نزول، بصوت متوسط لا يحصل له منه الضرر، لا خافتاً ولا جاهراً به جهراً يؤلم.

تجدد التلبية:

يديم التلبية كما قررنا حتى يدخل الحرم، فيشتغل بالطواف ويترك التلبية حتى يتم الطواف والسعى ثم يعود للتلبية بعد زوال يوم عرفة، فإن وصل عرفة قبل الزوال لبى حتى يصلى الظهر، وإن زالت عليه الشمس قبل وصوله لبى حتى يصلى وترك التلبية اشتغالاً بالدعاء والتضرع والابتهال. والمهل بالعمرة يلبى إلى الحرم ثم يتركها.



دخول مكة:

يتعين الإحرام على الداخل مكة من الآفاقيين إذا دخلها لنسك من حج أو عمرة، ويحرم من دخلها لحاجة غير النسك ما لم يكن ممن يترددون عليها لبيع الخضر والحطب وغيره من البلاد القريبة منها كالطائف وجدة وقديد فإنهم لا يطالبون بالإحرام، ومن خرج من مكة لبلد أخرى فلم يتمكن من الوصول إليها ورجع إليها يدخل حلالاً كما فعل سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما. والأولى أن يدخل الإنسان مكة من (كداء) خصوصاً إذا قدم من طريق المدينة، وله أن يدخل مكة من أى باب شاء.

ولما كان الحاج فى الحقيقة إنما يقصد الله تعالى ليزوه فى بيته وكان البيت مقام الخليل الجسمانى، والخلة مقامه الروحانى، فمن قصد الله تعالى حجاً ورغب أن يدخل مقام الخليل جسماً وروحاً، لزمه لدخول المقام الجسمانى أن يحرم بالزهد فى لذته وشهواته، وأن يتجرد من محيط الثياب ومخيطها، كما يتجرد الميت للغسل، ويلبس ثياب الإحرام المشيرة إلى كفن الميت، ويمتنع عن الصيد، ويجاهد جميع جوارحه حتى تخضع لسلطان الشريعة، فيحرم على نفسه فى الحج ما أباحته الشريعة له فى غيره، ويتم الحج حتى يؤهل كما بينت فى هذه الرسالة للدخول فى مقامه الجسمانى.

وللدخول فى مقامه الروحانى يحرم بتوديع حظه وهواه، وبزهده فى الاجتماعات على غير الله تعالى، وتفريده الله تعالى بالقصد دون سواه، ويتم الحج كما يأتى حتى يسعد بالدخول فى مقامه الروحانى، ومن قصد الله تعالى حجاً يحرم بالتبرئة من حوله وقوته، ومن الغرض والمرض والعلة، ومن قصد الله من الأفراد المحبوبين يفرده الله تعالى، ومن أفرده الله جمله بجمال العبودة الخالصة لوجهه الجميل سبحانه، وأشهده فى بيته جماله العلى، وبهاءه وضياءه ونوره، ولديها يرى البيت وربه، وهو الحج الأكبر، قال سيدنا عبد الله بن عمر: (كنا نتراءى ربنا ليلة عرفة) ومن نظر

إلى جمال الملكوت، أو إلى جمال الملك فى الإحرام، الذى يحج الله تعالى فيه قصداً فتن.

والإحرام بينا مكانه فيما سبق، إلا أن مكانه لمكى ولمقيم بها بالحج للحج بيته والأولى الحرم، وللعمرة الحل، ولمن أحرم بحج وعمرة الأولى له أن يحرم من الحل، وتقدم ميقات الحج والعمرة للآفاقيين.

دخول الحائض مكة:

تدخل الحائض مكة ولكن لا تطوف ولا تسعى حتى تطهر وإن كانت الطهارة ليست شرطاً فى السعى، ولكن السعى متوقف على الطواف، والطواف متوقف على الطهارة، والمرأة إذا حاضت بمكة قبل العمرة أو حاضت قبل دخول مكة لها أن تنقض رأسها وتمتشط وتهل بالحج.

بسند مالك عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﴿ﷺ﴾عام حجة الوداع، فأهللنا بعمرة ثم قال ﴿ﷺ﴾(من كان معه هدى فليهل بالحج مع العمرة ثم لا يحل حتى يحل منهما جميعاً. قالت: فقدمت مكة وأنا حائض فلم أطف بالبيت ولا بين الصفا والمروة، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾، فقال: انقضى رأسك أو تمشطى وأهلى بالحج ودعى العمرة. قالت: ففعلت، فلما قضيت الحج أرسلنى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾مع عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق إلى التنعيم). وظاهر ذلك استبدال الحج بالعمرة ولم يكن ذلك معهوداً.

وقد تأوله الإمام الشافعى رضي الله عنه بأن مراد رسول الله ﴿ﷺ﴾أن تردف الحج على العمرة، ثم تعتمر بعد الحج بدليل خروجها مع أخيها رضى الله عنهما إلى التنعيم للإحرام بالعمرة، والمعهود استبدال الحج بالعمرة كما حصل فى حجة الوداع لكثير من الصحابة رضى الله عنهم وعنا بهم آمين.

في الغسل:

إنما سن الغسل هنا ليتطهر المحرم من عوائده التى اقتضتها حياته الاجتماعية بين إخوانه، لأنه مسافر من الملك إلى الملكوت لتكون له مجانسة بالعالم العلوى، تجعله يدخل فى مقام الخليل عليه السلام الروحانى بمفارقته لمألوفاته وعوائده، ومن لم يفارق بغسله ما اعتاده مما يلائمه لم يلحظ بفكره جانب الملكوت الأعلى، ولم يسح بنفسه فى رياض حكمة أحكام الشريعة المطهرة.

فى الإهلال:

وإنما وجب الإهلال والتلبية بعد صلاة مكتوبة أو غير مكتوبة ليرتقى من مقام العبودية والطلب إلى مقام العبدية والمطلوبية، فيصلى طالباً الله تعالى. فإذا أتم صلاته طلبه الله تعالى ودعاه إلى حضرته، فسمعت أذن روحه فلبى سامعاً أو مستحضراً.

فى التلبية:

وإنما وجبت التلبية وإن كانت المشاهد روحانية ليقظة القلب لحكمة التلبية، التى هى إجابة الداعى. وإن لم تصغ أذن روحه لمن دعاه سبحانه، استحضر أنها إجابة لأذان الخليل ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ بالحج، أو تصديق برسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ واقتداء به فى عمله، ومن قصرت به روحه عن أن تحضر معه فتحضره، على نفسه فليبك، وليتطهر من

رجس الحيوانية ونجاسة النفس الإبليسية، وقاذورات الهمم واللمم الإنسانية حتى يتجلى له ربه ﷻ فيكشف له الحجاب عن جماله العلى، ويشهد أنوار آياته فى هذا الكون الدنى ليفقه حكمة الأحكام، أو يحتسى من طهور هذا المدام.

فى التجرد من المحيط والمخيط:

وإنما وجب على المحرم التجريد من المحيط والمخيط حتى يتمثل أنه ميت أدرج فى كفنه فارق الحس الذى يشغل قلبه بالكائنات، فإما أن يكون محل نظره آيات الله تعالى، أو يحيطه الله بنور وجهه كما قال سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾[1]، فلا يرى تجاهه إلا آيات الله تعالى أو جمال وجهه العلى، ومن لم يتجرد من الحياة الحيوانية بتجرده من المحيط والمخيط ليحيا حياة روحانية لم ير ملكوت ربه، وهو إنما خرج حاجاً ليدخل فى مقام إبراهيم الروحانى بدخوله فى مقامه الجسمانى، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[2].

فى دخول البيت:

فالكعبة مقام الخليل الجسمانى والخلة مقامه الروحانى، وأقل مشاهد أهل الخلة شهود ملكوت الله الأعلى، وأعظم مشاهدهم شهود رب البيت فى بيته. ومن حرم شهود الملكوت لم يظفر بشهود صاحب البيت فى بيته، وبدخوله فى مقام الخليل الجسمانى سقطت عنه المطالبة بحجة الشريعة، ولكنه حرم ما تسارع إليه أرواح

---

(1) سورة البقرة الآية 115.

(2) سورة الأنعام الآية 75.

الصديقين. والحج إشارة إلى السير إلى الله تعالى.

الركن الثانى – الطواف

تعريف الطواف:

الطواف لغة: الدوران وله معان كثيرة.

واصطلاحاً: المشى حول الكعبة بشروط مخصوصة.

كيفية الطواف:

تقدم أن الطواف هو الدوران حول الكعبة مبتدأ من الحجر الأسود إليه سبعة أشواط، يفتتح من الحجر ويختم به، فيقبله إن أمكنه، ويستلمه بيده ويكبر إن لم يتمكن من الاستلام إذا حاذاه كراهية أن يؤذى الطائفين معه، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ لعمر: (يا أبا حفص إنك رجل قوى، فلا تزاحم على الركن فإنك تؤذى الضعيف، ولكن إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا كبر وامض)[1]، وإذا تمكن الطائف استلم الحجر وقبله.

وفى حديث البخارى: سأل رجل ابن عمر رضى الله عنهما عن استلام الحجر فقال: (رأيت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يستلمه ويقبله، قلت: أرأيت إن زوحمت؟ أرأيت إن غولبت؟ قال ابن عمر: اجعل أرأيت باليمانى، رأيت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يستلمه ويقبله). وكلام الإمام ابن عمر يدل على المزاحمة لتقبيل الحجر أو استلامه وذلك لا يخالف ما سبق، لأن سيدنا الإمام ابن عمر رضى الله عنهما له شهود فى هذا المقام، لا يجعل له صبراً عن تقبيل الحجر الأسود.

وقد روى سعيد بن منصور عن القاسم بن مُحَمَّد قال: رأيت ابن عمر يزاحم على الركن حتى يرمى، فقيل له فى ذلك قال: هويت الأفئدة إليه فأريد أن يكون فؤادى معهم، وهذا دليل على شهود ابن عمر رضى الله عنهما يمين ربه ظاهرة لعيون

---

(1) رواه الشافعى وأحمد وغيرهما وهو حديث مرسل قوى الإسناد.

روحه بدليل قوله: هويت الأفئدة إليه فأريد أن يكون فؤادى معهم. فالمسألة روحانية لا جسمانية، وعمله ﷺ حجة لأهل الوجد الصادق من المواجهين بوجه الله العلى، والإمام ابن عمر رضى الله عنهما أكمل الناس خشية من الله وأدباً مع الله سبحانه ومع خلقه، وإذا اصطنع الله العبد أفناه عن حسه ونفسه.

الأركان التى تستلم فى الطواف:

قال مالك بن أنس بسنده عن هاشم بن عروة: إن أباه كان إذا طاف بالبيت استلم الأركان كلها، وكان لا يدع اليمانى إلا أن يغلب فيكبر ويمضى. هذا وكان أخوه عبد الله يستلمها كما علقه البخارى ورواه ابن أبى شيبة، عن عبادة بن عبد الله بن خضر أنه رأى أباه يستلم الأركان كلها وقال: إنه ليس منه شىء مهجور، وعورض بعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾، وجمع بين عمل رسول الله وآل الزبير ما قال ابن عمر رضى الله عنهما: إنما ترك ﴿ﷺ﴾الركنين الشاميين، لأن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام فلما أتمه ابن الزبير رضى الله عنهما خرج إلى التنعيم واعتمر وطاف بالبيت واستلم الأركان الأربعة واستلم الطائفون بعد تمامه الأركان جميعها حتى قتل ابن الزبير.

والجمهور أخذوا بحديث ابن عمر وعمله من أنه لا يستلم إلا الأسود واليمانى، وقد روى عن بعض الصحابة استلامها جميعها، وقد أجاب الإمام الشافعى بأنا لم ندع استلامها هجراً للبيت، وكيف يهجره وهو يطوف به؟ ولكنا نتبع السنة فعلاً أو تركاً، والأمر واسع للاختلاف فيه، والأولى الوقوف عند عمل رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، ما لم يشهد الطائف بالبيت سواطع أنوار الحضور مع رب البيت سبحانه.

طواف الحائض:

إذا حاضت المرأة يوم عرفة بعد رمى العقبة والطواف، تتم المناسك وترجع إلى أهلها ولا شىء عليها، كما حصل لأم المؤمنين السيدة صفية رضى الله عنها. فإن حاضت بعد العقبة قبل الطواف أو قبل العقبة بمزدلفة أو فوق عرفة، أدت جميع أركان الحج وعليها أن تمكث حتى تطهر وتطوف، لذلك يتعين على المرأة بعد رمى العقبة أن تسرع إلى الطواف خشية حصول الحيض، وكان النساء يتعجلن الطواف بعد العقبة تحفظاً منه.

تقبيل الحجر الأسعد فى الاستلام:

بسند مالك ﷺ فى الموطأ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال وهو يطوف بالبيت للركن الأسود: (إنما أنت حجر، ولولا أنى رأيت رسول الله ﴿ﷺ﴾يقبلك ما قبلتك) ثم قبله ﷺ.

لخطاب أمير المؤمنين الحجر إشارة غريبة، بينها قوله ﴿ﷺ﴾(إن منكم محدثين وإن عمر منهم) وقول سيدنا موسى عليه السلام للحجر: (ثوبى يا حجر) عندما وضع ثوبه عليه ونزل البحر ليغتسل فأخذ الحجر الثوب وأبعد. وكلامه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾مع قتلى بدر وهم فى البئر، فعمر ﷺ محدث يسمع من كل شىء ويخاطب كل شىء. ونقل عن الإمام أحمد: لا بأس بتقبيل منبر النبى ﴿ﷺ﴾وروضته ﴿ﷺ﴾ ونقل عن أبى الصيف جواز تقبيل المصحف وروضات الصالحين، واستنبط بعض أهل العلم جواز تقبيل من يستحق التعظيم من آدمى وغيره، شكراً لله تعالى على ما أنعم، وتعظيماً له سبحانه وتعالى فى ذات من عظمه سبحانه بعلم أو بتقوى أو بولاية أو بفضيلة.

وما ورد من معارضة سيدنا على عليه السلام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب بقوله: (إن الحجر ينفع ويضر لأنه يشهد لمن استلمه) فليست معارضة، فإن سيدنا عمر

يقول: لا ينفع بنفسه، وسيدنا على يقول: ينفع ويضر بإذن الله تعالى.

السهو فى الطواف:

إذا سها الطائف عن العدد حتى زاد أو نقص، فإن ثبتت الزيادة قطع وصلى، وإن تحقق النقص أتم. وإن تردد بنى على الأقل كالصلاة ولاشىء عليه فى ذلك كله، ولا يحسب الزيادة المتحققة من سبع آخر. وجوز قرن الأسبوعين بعض العلماء وجعله خلاف الأولى، وقد أورد ابن السماك بسند ضعيف عن أبى هريرة، أن رسول الله ﷺ طاف ثلاثة أسابيع جميعاً ثم أتى المقام فصلى خلفه ست ركعات، يسلم من كل ركعتين، ولو صح فإنه لبيان الجواز.

ركعتا الطواف:

معلوم أن تحية مكة الطواف، والطواف إما أن يكون سنة أو واجباً أو فريضة، فهو سنة لمن أهل بالعمرة، وواجب على من أهل بالحج أو أردف الحج على العمرة، فإنه يجب عليه دخول مكة لتأدية فريضة السعى، والسعى لا يقع فريضة إلا بعد طواف واجب، والسعى يقدم على الحضور بعرفة إلا لضرورة كخوف فوات الحج فإنه يؤخر.

ركعتا الطواف بعد تمام الطواف والدعاء بعده بما أحب ، وفيه يبتدىء بالركعتين وصلاتهما واجبة (لكل أسبوع تام) وتسن صلاتهما عند المقام، قال مالك فى الموطأ عن هاشم بن عروة عن أبيه أنه كان لا يجمع بين (السبعين) لا يصلى بينهما ركعتين ولكنه كان يصلى بعد كل سبع ركعتين وربما صلى عند المقام أو غيره (والسبع أن يطوف بالكعبة سبع طوافات)، والسنة أن يصلى الطائف لكل سبع ركعتين، فلا يجمع بين سبعين ويصلى لهما بعد تمامهما ركعتين لأنه ليس من

السنة.

من سها فى العدد بعد صلاة الركعتين:

من سها فى العدد بعد صلاة الركعتين، رجع إلى اليقين فأتم طوافه وصلى الركعتين، لأنه لا يعتد بهما قبل إتمام الطواف لأن الطواف كالصلاة كما تقدم، ومن أحدث فى طوافه أو بعده قبل صلاة الركعتين، أعاد الطواف كله ولا يبنى وصلى الركعتين، بخلاف السعى بين الصفا والمروة فإنه يجب الوضوء قبله ولا يضر الحدث فى حال السعى.

ومن طاف بعد الصبح أو بعد العصر، أخر صلاة الركعتين إلى وقت حل النافلة، وقد طاف عمر بن الخطاب بعد صلاة الصبح طواف الوداع، ثم نظر فلم ير الشمس فخرج من غير صلاة، ثم ركب راحلته ونزل (بذى طوى) صلى الركعتين رضي الله عنه. وكان ابن عباس رضي الله عنه يصلى الصبح ويطوف ويدخل حجرته من غير صلاة الركعتين.

ولا يجوز لمن أحب الطواف بعد صلاة الصبح أو بعد صلاة العصر أن يطوف إلا أسبوعاً واحداً، لا يزيد عليه لكراهية جمع أسبوعين فأكثر قبل صلاة ركعتين متصلة به، ولا يطوف إلا بعد أن يصليهما بعد حلول النافلة صبحاً أو غروباً، وصلاة ركعتين قبل المغرب سنة عمل بها الصحابة وقد ورد فيها أحاديث كثيرة، قال مالك بن أنس: ومن طاف بالبيت بعض أسبعه، ثم أقيمت صلاة الصبح أو صلاة العصر فإنه يقطع وجوباً ويستحب كمال الشوط ويصلى مع الإمام، ثم يبنى على ما طاف فيتمه حتى يكمل سبعاً، ثم لا يصلى ركعتيه حتى تطلع الشمس وترتفع قيد رمح، أو حتى تغرب فيصليهما قبل صلاة المغرب، قال: وإن أخرهما حتى يصلى المغرب فلا بأس بذلك وهذا كلام مالك فى الموطأ مع تصريف فى البيان.

أنواع الطواف

أولاً- طواف القدوم:

قدمنا أن الإنسان يدخل مكة من طوى ويغتسل من بئرها، وإذا قرب من مكة يدخل نهاراً من (كدا) طريق بين جبلين يهبط على المقبرة الشهيرة بروضة أم المؤمنين السيدة خديجة عليها السلام.

ثانياً - طواف الإفاضة:

ويسمى طواف الزيارة، وقد تقدم الكلام عليه فى ذكر الطواف، ولكن نورد ما لا بد منه، وعن مالك عن نافع وعبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر: أن عمر بن الخطاب ﷺ خطب الناس وعلمهم أمر الحج، وقال لهم فيما قال: (إذا جئتم منى فمن رمى الجمرة حل له ما حرم على الحاج، إلا النساء والصيد والطيب حتى يطوف بالبيت) ويعنى طواف الإفاضة، فالطيب حرام، وقد ورد عن مالك أن الطيب مكروه، وورد عن الشافعى وغيره أن الذى يحرم النساء فقط.

وقت طواف الإفاضة والرمى:

وقت طواف الإفاضة بعد طلوع الفجر من يوم النحر فلا يصح تقديمه على الفجر، وكذلك جمرة العقبة وقتها بعد طلوع فجر يوم النحر، ووجب تقديم جمرة العقبة على الحلق وعلى طواف الإفاضة، ووجب تقديم الرمى على طواف الإفاضة، فمن حلق أو طاف قبل الرمى فعليه فدية، وما عدا ذلك فالأمر فيه

واسع، فمن ذبح قبل الحلق أو حلق وذبح قبل الإفاضة فلا شىء عليه ما دام رمى.

وعمل يوم النحر أربعة بالترتيب: الرمى، فالنحر، فالحلق، فالإفاضة. ومن قدم شيئاً منها قبل الرمى فعليه دم، وهذا معنى حديث: (ما سئل رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾عن شىء قدم أو أخر إلا قال: افعل ولا حرج)، وندب الطواف فى ثوبى الإحرام. وكل حصاة واجبة فمن أخرها عن وقتها فعليه دم، فمن أخر الحلق حتى قرب من بلده، أو أخرها إلى غروب اليوم الثالث بعد يوم النحر قيل: عليه فدية لقضائه فى غير أيام الرمى والحلق، كما لو أخر طواف الزيارة (الإفاضة) لشهر المحرم، فعليه فدية لفعل الركن فى غير أشهر الحج، ولو أخر حصاة إلى غروب اليوم الثالث بعد يوم النحر فعليه فدية لحصاة أو أكثر، ومن ترك الرمى إلى قبل غروب اليوم الرابع قضاها وعليه فدية، ووجب رمى الحاج الجمار بنفسه إلا لعذر فيستنيب وعليه فدية.

ثالثاً – طواف الوداع:

هو الطواف الذى يقوم به الآفاقى بعد تمام حجة وحال رجوعه إلى بلده، يسمى طواف الصدر بفتح الدال، وهو الطواف الذى يصدر بعده الحاج إلى بلده بعد طواف الإفاضة. وهذا الطواف مستحب عند مالك وداود وغيرهما ولا دم فيه على تاركه، ولكنه يرجع له إن تذكره وهو بقرب مكة على مسافة ثمانية عشر ميلاً تقريباً، لأن سيدنا عمر رضى الله عنه رد رجلاً وهو بمر الظهران– اسم واد قرب مكة على مسافة ثمانية عشر ميلاً– ليطوف طواف الوداع، تعظيماً لشعائر الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[1] والشعائر

(1) سورة الحج الآية 32.

جمع شعيرة يعنى التى أشعرها الحاج وجعلها هدياً قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أى: مكان حل نحرها ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[1] أى: عنده، فعظم البيت ومن تعظيمه وداعه قبل الخروج للسفر، ومن لم يودع البيت على قول أكثر العلماء فعليه دم.

ويكره كلام الطائف مع غيره، ويكثر الدعاء فى طوافه، والأولى الدعاء بما ورد فى القرآن والسنة كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2] .

وقوله ﴿ﷺ﴾(إنى آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت).

من المضنون

إشارات الطواف:

ومعلوم أن البيت إنما يقصد لصاحبه، وأى محب قصد محبوبه فى بيته فرجع من غير أن يفوز بمشاهدته، وإنما جعلت المجاهدة للمشاهدة، والبيت إذا لم يكن فيه صاحبه كيف يقصد؟

قال بعض أهل المحبة:

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

---

(1) سورة الحج الآية 33.

(2) سورة البقرة الآية 201.

وقال غيره:

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ {96} فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[1].

يعنى أن الله تعالى وضع لمن هم الناس عنده من أهل محبته، بيتاً فى الأرض يزورونه سبحانه فيه، كما وضع بيتاً فوق السماوات للعالم الأعلى يزورونه سبحانه فيه. ومن منحه الله عيون الروح ونظر عند البيت، يرى النور متصلاً من بيت الخليل للناس إلى البيت المعمور الموضوع للعالين فوق السماوات.

وقوله تعالى: ﴿مُبَارَكاً﴾ كما قال فى الخبر عن موسى عليه السلام: ﴿بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[2].

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾. من الملك والملكوت. وقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ لمن بين الله تعالى لهم من أهل المشاهدة. وقوله تعالى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ الروحانى والجسمانى فمن دخل مقامه الجسمانى أمن من أعدائه داخل بدنه وخارجه، ومن دخل مقامه الروحانى أمن من الحجب بعد الشهود، ومن البعد بعد القرب، ومن

(1) سورة آل عمران الآية 96-97.

(2) سورة النمل الآية 8.

الرد بعد الإقبال، وساحت روحه فى ملكوت الله الأعلى بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾.

وهناك إشارة غامضة فى دخول المقام الروحانى لأهل مقام الإحسان والإيقان، أن من دخل هذا المقام منح الخلة، فنسأله دوام الشهود فى الوجود، والوصال من غير تفرقة، فأشهده الله تعالى بيته الخاص به المجمل بآثار الله لا بآثار عبده وخليله وهو قلبه، فأراه ما فيه من عجائب القدرة وغرائب الحكمة وبدائع الصنع، فتشهده بيتاً معموراً بربه، وعرشاً لاستواء الرحمن، ورأى صدر نفسه كرسياً لذى الجلال والإكرام، ولاحت له معانى صفاته فى مرآة ذاته فوصل واتصل وقرب وما انفصل، ثم أحل المحل الأكبر، فرأى محيط السماوات السبع والأرضين السبع بيتاً لله منوراً بنور الله، بمعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[1].

فأحرم بروحه فى حضرة الإطلاق، إحراماً لا حل بعده لأنه رأى ربه قبل كل شىء، وبعد كل شىء، وعند كل شىء، وفى كل شىء.

قد اختطفه سبحانه وتعالى من نفسه وحسه وحجب عنه ما فى وجهه (بضم الواو) وأشهده نور وجهه. ومحب أكرمه الله بتلك المشاهدة، فكان سبحانه معالم بين عينيه كيف لا يعتنى بفك رموز الحج ليرى نور الوجه فى كل فج؟!

وبيت مكة قد يتمكن الإنسان من الوصول إليه وقد يحرم، وهذا البيت معه أينما نزل وحيث حل، الجسم يطوف حول بيت الخليل فى مكة، والحس يشهد آثار الخليل، والعقل يطوف حول نور الآيات البينات وهى كعبة العاشقين، والروح تطوف حول قدس العزة والجبروت، ونفخة القدس يزج بها فى طوافها فى نور اللاهوت حتى تقع العين على العين من غير رين ولا بين، كما قال أبو يزيد

---

(1) سورة النور الآية 35.

البسطامى: (حججت أولاً فرأيت البيت، ورأيت فى الثانية البيت ورب البيت، وفى الثالثة رأيت رب البيت ولم أر البيت).

إشارات أعمال الطواف:

يقبل الحجر الأسعد الذى يجعل الله له يوم القيامة لساناً وعينين، فيشهد لكل من قبله تجديداً لعهد يوم (ألست)، الذى عاهدنا الله فيه على أن نفرده بالربوبية والقصد دون غيره، كما يقبل الرجل يمين متفضل عليه بأفضل النعم ملاحظاً كمال التنزيه فى مقام التشبيه. وفى هذا المقام مقام الفناء والجمع أو السكر تقوى عيون الروح حتى تحجب عينى البصر، حتى يكون المقبل أو المستلم كأنه يرى ربه، قال ﷺ (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه)[1].

فإذا قبل الحجر قوبل بالوجه، فأقبل بكليته على الله طائفاً ببيته المعمور به سبحانه بروحه، وطائفاً بمقام الخليل الجسمانى بجسمه وبمقام الخليل الروحانى بعقله، بجواذب العناية فى مقام الشهود وستر الوجود، فنفذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان اليقين الحق، وكل شوط يقبل اليمين استحضاراً والحجر حضوراً، وينفذ من سماء فيكشف الحجاب بكل شوط عن جارحة من جوارحه المجترحة، حتى يسمع بالله ويبصر بالله ويتكلم بالله ويبطش بالله، حتى يكون ربانياً فيقع فى إلهانية[2] الرب، ومهيمنته بعد الهيمان فى أرقى مراتب الإحسان ومعارج مقامات الإيقان، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ

---

(1) أخرجه البخارى.

(2) مصطلح صوفى معناه أن يفنى العبد عن مقتضيات البشرية بظهور أنوار ربه.

مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1]. فإذا أتم السبع بأركانه فى عيانه بعد بيانه، واجهه الله بوجهه العلى وناداه: سل ما شئت تعطه، لديها يأنس فيقول: أنت يارب محبوبى ووجهك الجميل مطلوبى. فينزل عليه السكينة فيحصل له البقاء بعد الفناء، والصحو بعد السكر والفرق بعد الجمع، فيسأل الله بكلامه قائلاً: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

وهو المحبوب الذى يتكلم الله عنه وهو يتكلم عن الله، ولديها يدخل مقام الخلة روحاً وجسماً، وتشرف روحه على قدس الله الأعلى فيقف موقف العبادة بعد العبودية، فيجمله الله بجمال العبودة الخالصة لذاته.

فيصلى ركعتين مؤانساً على بساط المنادمة، ولديها يرى الله فى قبلته ما دام فى صلاته، فيلهم فى الركعة الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. لزجر المنازعة النفسانية، وإطفاء الشعلة الإبليسية، وإخماد جمر الفطر الحيوانية مفكراً ذاكراً. وفى الثانية بعد الفاتحة (سورة الإخلاص) لما فيها من صفات الأحدية والنزاهة، مستحضراً حاضراً ذاكراً مذكوراً. فإذا أتم صلاته وبلغ أمنيته أقبل بكليته على السعى بين الصفا والمروة، واقفاً فوق جبل الصفا ليتجلى له ربه، فيدك جبل بشريته ويصعق نفس شهوته وحظه، لديها يدعو بما شاء وينزل مهرولاً حتى يصل إلى المروة فيصعد عليها، ولديها تسكن نفسه إلى الله تعالى ويتجمل بجمال المروة فيسأل الله ما شاء، فإذا أتم حجه حصلت المشاهدة ولديها يكون الكون كله معراجه يقربه إلى الله تعالى، وإنما كانت المجاهدة للمشاهدة، ومن جاهد غير ملاحظ للمشاهدة، ومسارع إلى نيلها غير ناظر إلى مجاهدته فى نظير مشاهدته، أضاع عمره سدى.

---

(1) سورة الأنعام الآية 75.

(2) سورة البقرة الآية 201.

حكمة الطواف:

يقول الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً﴾[2]. ومعلوم أن النعمة توجب الشكر على من تفضل الله عليه بها، والله ﷻ تفضل علينا بما فى السماوات وما فى الأرض جميعاً منه، فأوجب علينا أن نشكره بقدر تسخير كل حقيقة من تلك الحقائق لنا، ولما كانت الصلاة جامعة لأنواع تسخير الملائكة والحيوانات والنباتات والجمادات، كما بينت ذلك فى غير تلك الرسالة[3]، ولم يبق إلا العبادة بالطواف كالكواكب الدائرة حوالينا لنفعنا وخيرنا، كان من شكر النعمة علينا بها أن نعبد الله تعالى بالنوع الذى سخرها لنا، فجعل الطواف حول الكعبة عبادة لله تعالى منا، شكراً له ﷻ على تسخير الكواكب لنا.

وجعل السعى بين الصفا والمروة عبادة لله تعالى كشروقها وغروبها تسخيراً لنا من الله تعالى. وجعل رمى الجمرات كالصواعق التى يرمى بها النفوس الشريرة.

وبذلك يكون الإنسان شاكراً لله تعالى، يعبده ﷻ بأنواع سخر لنا بها جميع كونه، وله سبحانه وتعالى فيما منح من النعم وما وفق له من العبادة، فهو الذى تفضل بالنعمة وأعان على العبادة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[4].

---

(1) سورة الجاثية الآية 13.

(2) سورة سبأ الآية 13.

(3) راجع أسرار القرآن الجزء الأول للإمام أبى العزائم ص 17.

(4) سورة النحل الآية 18.

ولتلك الحكمة التى هى عبادة الله بنوع تسخير الأفلاك لنا أمر الله الخليل أن يدعو الناس بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾[1].

قال الخليل: (وما يبلغ صوتى يا ربى؟!) فقال: (عليك الأذان وعلى أن أسمع عبادى) وقال سبحانه: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾. أى: متصفين بصفات الرجلية الكاملة، التى من أخصها تفريد الله تعالى بالقصد والمسارعة إليه سبحانه مشاة فانين عن الأسباب بمسبب الأسباب، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[2]. أى: وعلى الأسباب يأتين، فنسب المجىء للإبل دون الرجال وجعلهم نائين عنه بقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. وقال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[3]. فجعل سبحانه الغاية الأخيرة هى المشاهدة بعد المجاهدة، ومن أحرم غافلاً وطاف محجوباً وسعى واقفاً عند حسه وحضر عرفات المعرفة جاهلاً، فقد أضاع زمانه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[4]. فحظر على غير أهل العلم أن يعقلوا إشاراته العلية، وحكمة أحكامه القدسية، وقد شنع الله تعالى على من لم يشهد آياته العلية فى الضرورى من الأكل والشرب فقال تعالى: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[5].

فكيف لا يكون التشنيع أشد على قوم يقومون بعمل فرائضه التى افترضها لاهية قلوبهم مشغولة بغيره؟ وقد قدمت لك أن حكمة تلك الأحكام والأسرار التى

---

(1) سورة الحج الآية 27.

(2) سورة الحج الآية 27.

(3) سورة الحج الآية 28.

(4) سورة العنكبوت الآية 43.

(5) سورة محمد الآية 12.

أخفتها الآثار، لا تنبلج إلا بصحبة عارف ربانى منحه الله تعالى البيان. ومن جهل شيئاً عاداه فكيف يستحضره أو يراه؟!.

هذا ما يمكن أن يسطر على صفحات الأوراق من حكمة الطواف، وهناك مقامات أخرى تقع فيها العين على العين من غير بين ولا رين، وفيها يكون الأنس والصفا بعد المجاهدة والوفا، ومن عرف شيئاً طلبه، ومن طلبه وجده، ومن وجده تحقق بقوله تعالى: ﴿قل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ {2} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ {3} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ {4}﴾ [1] فإذا لم يكن له كفؤاً كيف يعدل عنه بغيره، أو يهمل ويقصد غيره، أو ينسى ويذكر غيره؟!.

وقد وضع الله بيته فى مكة التى لا نبات بها ولا معادن ولا حيوانات، إشارة إلى أنه إنما يقصده من تجرد من تعلق قلبه بالحظوظ والأغراض الدنيوية، وحتى يكون جيرانه سبحانه فرغت قلوبهم من التعلق بما يشغلها من زينة الحياة الدنيا، لتشنيعه سبحانه وتعالى على من شغلوا بالحياة الدنيا وزينتها بقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾[2] ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾[3].

---

(1) سورة الإخلاص .

(2) سورة يونس الآية 7.

(3) سورة الرعد الآية 26.

أدلة وجوبه:

السعى واجب وإن لم تصرح الآية الشريفة بوجوبه نصاً صريحاً، ودل على وجوبه عمله ﴿ﷺ﴾ومواظبته عليه فى كل نسك مع قوله ﴿ﷺ﴾(خذوا عنى مناسككم) قال مالك بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: قلت لعائشة أم المؤمنين وأنا يومئذ حديث السن: أرأيت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾. فما على الرجل شىء أن لا يطوف بهما فقالت عائشة: (كلا، لو كانت كما تقولون لكانت: فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما، إنما أنزلت هذه الآية فى الأنصار، كانوا يهلون لمناة، وكانت مناة حذو قديد وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﴿ﷺ﴾عن ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1].

بلغت أم المؤمنين من العلم مبلغاً فهمت ما لا يفهمه غيرها من منطوق الآية ومفهومها، وكان إذ ذاك هشام بن عروة لم يبلغ من السن مبلغاً يفهم به سر الآية. وقد ورد عن السيدة عائشة فى هذا الحديث روايات أخرى غير رواية مالك، فقد ورد عن الزهرى برواية مخالفة لمالك ومسلم قال: إنما كان ذلك لأن الأنصار كانوا يهلون فى الجاهلية لصنمين على شط البحر، يقال لهما (إساف ونائلة) ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون، فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذى كانوا يصنعونه فى جاهليتهم، فمقتضاه أن تحرجهم إنما كان لئلا يفعلوا فى

(1) سورة البقرة الآية 158.

الإسلام شيئاً فعلوه فى الجاهلية، لأن الإسلام أبطل أفعالهم إلا ما أذن فيه الشارع فتركوه خشية أن يكون أبطله.

ويمكن أن لا يكون خلاف بين الروايتين فيقال: إن الأنصار كانوا فريقين، فريق يطوف بين الصفا والمروة فى الجاهلية، وفريق لا يطوف، فجاءت الآية شفاء للمرضين فصار لا حرج على من لم يكن يطوف أن يطوف، ولا حرج على من كان يطوف أن يطوف، لأن الفريقين اشتركا فى التوقف عن الطواف بينهما لأنه عمل الجاهلية.

والحقيقة أن الصنمين اللذين كان الأنصار يعبدونهما كانا على الصفا والمروة، فكان صنم منهما جهة البحر.

وفى الصحيحين عن عاصم: قلنا لأنس أكنتم تكرهون السعى بين الصفا والمروة؟ قال: نعم لأنه كان من شعائر الجاهلية، فالآية وإن كانت لمنع الحرج عن الطائف إلا أن فرضيته تقررت بأسباب أخرى منها ما تقدم، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ﴾[1]. ومعلوم أن الحج الفرض إحرام وسعى ووقوف بعرفة وطواف.

الآية إنما منعت الحرج من صدور الأنصار، ولو أن رجلاً ترك صلاة الظهر للغروب، فلا يقتضى أنها ليست فريضة وهو يعتقد أنها فريضة، وكذلك الأنصار كانوا يرون أن السعى بين الصفا والمروة فريضة، ولكن كانوا يتحرجون حتى يأذن الله سبحانه وتعالى.

وقد أجمع مالك والشافعى وابن حنبل على فريضة السعى، وقال أبو حنيفة وكثير من السلف: إنه واجب يعصى تاركه وعليه دم.

(1) سورة البقرة الآية 196.

كيفية السعى:

يمشى الساعى إذا نزل من على الصفا مشى العادة، حتى إذا وصل بطن الوادى أسرع مهرولاً، وكذلك كان رسول الله ﴿ﷺ﴾

بسند مالك عن الإمام جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر عليهما السلام عن جابر ﵁، أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان إذا نزل بين الصفا والمروة مشى، حتى إذا نصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى يخرج منه. ومعنى ذلك أنه كان يمشى كالعادة من الصفا إلى بطن الوادى ويسرع فى بطن الوادى حتى ينتهى منه، فيمشى مشى العادة إلى المروة.

وفى حديث بسند الإمام الشافعى وأحمد والدارقطنى عن صفية بنت شيبة قالت: أخبرتنى نسوة من بنى عبد الدار أنهن رأين رسول الله ﴿ﷺ﴾ وإن مئزره ليدور من شدة السعى، ويقول: (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى).

من قدم السعى قبل الطواف:

وبطل سعى من سعى قبل الطواف ورجع إلى الطواف ثم سعى، ولو خرج من مكة وجب عليه الرجوع إليها ليطوف ثم يسعى، ولو أنه لامس النساء فعليه أن يطوف ويسعى، لأن إتمام ما فسد واجب، وعليه أن يعتمر عمرة أخرى قضاء والهدى، وعليه الهدى فى القضاء جبراً.

عمل الساعى:

يبدأ من الصفا إلى المروة ولا يكون صحيحاً إلا بعد طواف صحيح، والسعى للحج لمهل به فهو فريضة، وواجباته أولاً أن يكون بعد طواف واجب، وأن يتقدم على الوقوف بعرفة. والطواف الواجب يتحقق بمن أحرم بالحج مفرداً أو قارناً من

الحل، فيجب عليه القدوم لمكة ويكون الطواف واجباً ولم يضق عليه الوقت، فمن أردف الحج على العمرة فى الحرم لا يجب عليه دخول مكة، فمن قدم سعى الفريضة قبل الوقوف بعرفة من غير أن تتوفر الشروط الثلاثة: وهى أن يهل بالحج مفرداً من الحل، أو يهل بالعمرة والحج من الحل، ولم يضق وقته، أعاد بعد طواف الإفاضة، المسمى بطواف الزيارة، ما دام بمكة، فإن خرج من مكة فعليه دم، ولا قيود له لأنه لم يترك فريضة، وقد تقدم تفصيل السعى ببيان جلى.

صيغ أدعية السعى:

تقدم لنا قبل بيان الطواف أن السعى هو الركن الثالث بعد الإحرام، وذكرنا شروطه إذا كان فرضاً أن يكون بعد طواف فرض أو واجب، وبينا متى يكون الطواف فرضاً أو واجباً، ومتى يكون سنة أو تطوعاً، وهنا نبين بعون الله تعالى السعى بالتفصيل ونبدأ السعى بالحديث الذى سنده يستشفى به، قال مالك عن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر ابن على زين العابدين، عن والده سيد شباب أهل الجنة وسيد الشهداء الحسين عليهم السلام، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول حين خرج من المسجد- أى: بعد أن طاف وصلى ركعتين قرأ فيهما قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[1] و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[2]، كما فى الحديث الطويل عن جابر عند مسلم- قال: ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب وهو يريد الصفا وهو يقول: (نبدأ بما بدأ الله به) فبدأ بالصفا. وفى مسلم: فلما دنا إلى الصفا قرأ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ

---

(1) سورة الكافرون.

(2) سورة الإخلاص.

اللهِ﴾[1] وفى رواية النسائى: (ابدأوا بما بدأ الله به)، ولهذا فإجماع المسلمين البدء بالصفا عند السعى، ومن بدأ بالمروة أعاد الشوط، قال مالك عن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن على زين العابدين، عن أبيه الإمام الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام عن جابر بن عبد الله: (إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان إذا وقف على الصفا يكبر ثلاثاً يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير) يصنع ذلك ثلاث مرات، ويدعو ويصنع على المروة مثل ذلك. هذه روايات مالك.

والذى أدركناه من الأحاديث التى رواها الأئمة الثقاة: أن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ رقى على الصفا حتى رأى البيت فاستقبل القبلة يكبر ثلاثاً، ويقول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وإنما هو إله واحد، قل هو الله أحد) كما ورد فى صحيح مسلم وأبى داود، ويرقى على المروة كما رقى على الصفا ويقول ما قاله على المروة، ومن أحب الأخذ بالسنة فالأمر واسع أمامه، وله أن يدعو بما شاء مما تقتضيه ضرورياته أو كمالياته أو الشؤون الوقتية.

فإن رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام فإذا تهاون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك)[2]. فإذا وصلت أيها الحاج فصعدت فوق الصفا أو فوق المروة، ولحظت عينا رأسك بيت ربك، ثم شهدت عيون روحك جمال ربك ظاهراً فى بيته، فواجه وجه ربك بعيون روحك، واصغ إليه بأذن روحك تسمعه يقول: أنا ربك قريب فسل تعطه. فإذا اطمأن قلبك بمواجهة ربك فارفع إليه الروح والقلب، وابسط راحتيك خاشع الجسم خانع

---

(1) سورة البقرة الآية 158.

(2) أخرجه أبو داود وابن ماجة والدارمى ومالك فى الموطأ.

القلب متحققاً بمرتبتك منه ﷻ، فأنت العبد وهو الرب، ثم سح بفكرك فى العالم الإسلامى وانظر حالته، واسأل ربك أن يجدد سنن نبيه ﴿ﷺ﴾وأن يعلى كلمته، وأن يهب لك الخير فى الدنيا والآخرة لتكون عاملاً من عمال الله بمقتضى وقتك، ولا تقتصر فى سؤال ربك على طلب الدنيا وزخرفها، بل سله سبحانه وتعالى الحسنة فى الدنيا والآخرة، ثم سله القرب منه والرضا عنه.

قال الإمام الليث فى روايته هذا الحديث: ذكر الله وحمده، ودعا بما قدر له، أى: بعد صعوده على الصفا واقتصر على هذا. ويؤيد ذلك ما رواه مالك عن نافع أنه سمع عبد الله بن عمر وهو على الصفا يدعو فيقول: (اللهم إنك قلت: ادعونى أستجب لكم، وإنك لا تخلف الميعاد، وإنى أسألك كما هديتنى للإسلام أن لا تنزعه منى حتى تتوفانى وأنا مسلم) وإن زاد: تتميماً لنعمتك العظيمة لأفوز بالجنة والنجاة من النار، فحسن هذا.

والدعاء أخص من العبادة، وقد دعا أولو العزم من الرسل، قال إبراهيم عليه السلام: ﴿اجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[1]. وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[2]. وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾فى دعائه: (وإذا أردت بالناس فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون). وإذا كان أولو العزم صلوات الله عليهم يدعون الله بهذه الحقائق، كيف بنا؟!.

(1) سورة إبراهيم الآية 35.

(2) سورة يوسف الآية 101.

إشارات السعى:

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[1]. وقد بدأ الإنسان نوراً، لأنه خلق الحقيقة الإنسانية قبل أن يخلق الكون، والإنسان أول مراد الله، وأول المراد آخر العمل، فخلق الله الكون على أكمل إبداع وأحكم صنع،لأن الحقيقة الإنسانية اقتضته، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [3].

للإنسان أطوار سبعة يتطور فيها طورا بعد طور بدءاً وختماً فكان فى حضرة العلم، ثم خصصته الإرادة، ثم كان حقيقة إنسانية أمام الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ﴾[4] والله إنما يخاطب الموجود لا المعدوم، ثم تعلقت به كن إيجاداً للحقيقة الإنسانية أولاً التى هى هو الإنسان قبل بروزه فى الأعيان الكونية، ثم واثق الأنبياء لرسول الله ﴿ﷺ﴾، ثم كان يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[5] ثم كان الخلاف بين الملائكة وبين الله تعالى، وكل هذه الأطوار قبل إبرازه فى الكون المحسوس.

أما الأطوار السبعة الأخرى فكان الإنسان طيناً، ثم كان نطفة، ثم كان علقة، فمضغة، فعظاماً، فكسيت العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن

---

(1) سورة الأنبياء الآية 104.

(2) سورة الجاثية الآية 13.

(3)سورة لقمان الآية 20.

(4)سورة الأعراف الآية 11.

(5) سورة الأعراف الآية 172.

الخالقين.

ثم جعل فوقنا سبع طرائق لا يصل الواصل إلى الله سبحانه إلا بمجاوزتها، وهى الحظوظ الشهوانية، ثم حب الدنيا، ثم الآخرة، ثم الرؤية، ثم الشهود، ثم الفناء عن كل ذلك بتركه، ثم الفناء عن الترك بترك الترك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ {12} ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ {13} ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

فالسعى ابتداء بالصفا وهو فاتحة إيجاد الله الإنسان كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، ثم ينقل إلى المروة بحسب التطورات التى قدرها الله للإنسان، حتى يختم أطواره بالصفا إعادة إلى الحق، لا فرق بين المؤمن والكافر، فإن الإنسان إذا قامت قيامته أيقن بالحق فالمؤمن ينفعه إيمانه السابق، وغيره لا ينتفع بيقينه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾[3].

فالساعى الذى لم يفقه حكمة السعى، ولم يتفضل الله عليه بشهود تلك الأسرار، سعى ولكن بين الجبلين، فكما بدىء الإنسان نوراً يتطور فى تلك الدار الدنيا بين شهود وحجاب، وقرب وبعد، وطاعة ومعصية، وذكر ونسيان، وحضور وغفلة، حتى يختم الله بما سبق له فى أم كتابه، ويوم القيامة تكشف الحجب وترفع الستائر

(1) سورة المؤمنين الآية 12-14.

(2) سورة التين الآية 4.

(3) سورة الأنعام الآية 158.

فيظهر الحق جلياً، وعندها يفرح المؤمنون ويحزن الكافرون.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن سبقت لهم الحسنى، وأن ينعم عيون أرواحنا بشهود حكمة أحكام الحج وأنوار آياته البينات، إنه مجيب الدعاء رب العالمين.
وللسعى أسرار غامضة، فإن الساعى إذا ارتقى فوق الصفا استحضر وقوف الكليم فوق طور سيناء، وحصل له الهيمان شوقاً إلى سماع الكلام أو رؤية الجمال، فلاحت له سواطع أنوار الجمال والجلال، فسعى ولهاناً ومشى بسكينة مشاهداً، وهرول هائماً ليظفر بمراده الذى أفرده بالقصد، وحبيبه الذى فارق كل شىء شوقاً إلى نيل وصاله، وعندها يكون الحج وجداً لا تواجداً، أو عوداً للبدء لا تجدداً.
ومن ألقى السمع وهو شهيد سمع وشهد، ولا يسمع الساعى بأذنى رأسه ولا يشهد بعينى رأسه، لأن السماع والشهادة لو كانتا بالجوارح الظاهرة لسمع الكل وشهد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

الحضور بعرفة:

قلت: الحضور بعرفة، بدل: الوقوف بعرفة، لأن المراد وجود الحاج فوق عرفة سواء أكان جالساً أو مضجعاً أو راكباً أو ماراً ما دام أمكنه الوجود على عرفة جزءاً من النهار يوم عرفة، وجزءاً من الليل ليلة الأضحى، والحضور نهاراً واجب عند المالكية وفريضة عند أبى حنيفة وبعض الأئمة، والركن عند المالكية الوقوف ليلاً، ويكفى الحضور فى أى جزء من أجزاء ليلة عيد الأضحى ولو قبل الفجر بقدر إمساك الصائم، ويجب فى هذا الركن الاستقرار فوق الجبل بقدر الجلسة بين السجدتين بعد الغروب، لا فرق بين القائم فوق الجبل والجالس والراكع، فإن نفر عند الغروب مباشرة فعليه دم.

ولا يضر الخطأ فى تعيين الليلة، فإن وقفوا فى الليلة الحادية عشرة معتقدين أنها الليلة العاشرة أجزأهم ذلك، ولا يبطل الحج بترك الوقوف نهاراً إذا تعذر، ويجبر بالدم لأنه واجب عند المالكية.

ومن السنة فى يوم عرفة خطبتان بعد الزوال بمسجد عرفة كالجمعة يعلمهم الخطيب بهما ما عليهم من المناسك وذلك فى يوم عرفة قبل أذان الظهر، ثم يصلى الظهر والعصر جمع تقديم وقصر بغير المقيمين بعرفة، ثم ينفرون بعد الصلاة إلى جبل الرحمة على طهارة مستقبلين البيت حال الوقوف، داعين متضرعين لغروب الشمس، ثم يدفعون لدفع الإمام بسكينة ووقار وخشوع لله تعالى ورحمة بأهل الموقف حتى لا تحصل مضرة لزوار الله فى بيته.

ثم يجمع فى مزدلفة بين المغرب والعشاء جمع تأخير مع قصر العشاء، ويلتقط منها الجمرات قبل صلاة الصبح لأنه يبيت بها فى ضيافة الله تعالى ويصلى بها الصبح.

وينفر إلى المشعر الحرام ليقف به إلى قرب طلوع الشمس فيسير إلى منى لرمى جمار العقبة، وعند مروره ببطن محسر يسرع.

فإذا رمى الجمار حلق أو قصر وذبح أو نحر هديه وبذلك يحل الإحلال الأصغر،



فلا يحرم عليه إلا الصيد والنساء، وفى قول: والطيب.

ويسرع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة وبه حل له الصيد والنساء والطيب، ويرجع إلى منى فى اليوم الحادى عشر ليقيم بها الأيام الثلاثة المعدودات، ولرمى

الجمرات الثلاثة.

مندوبات الوقوف:

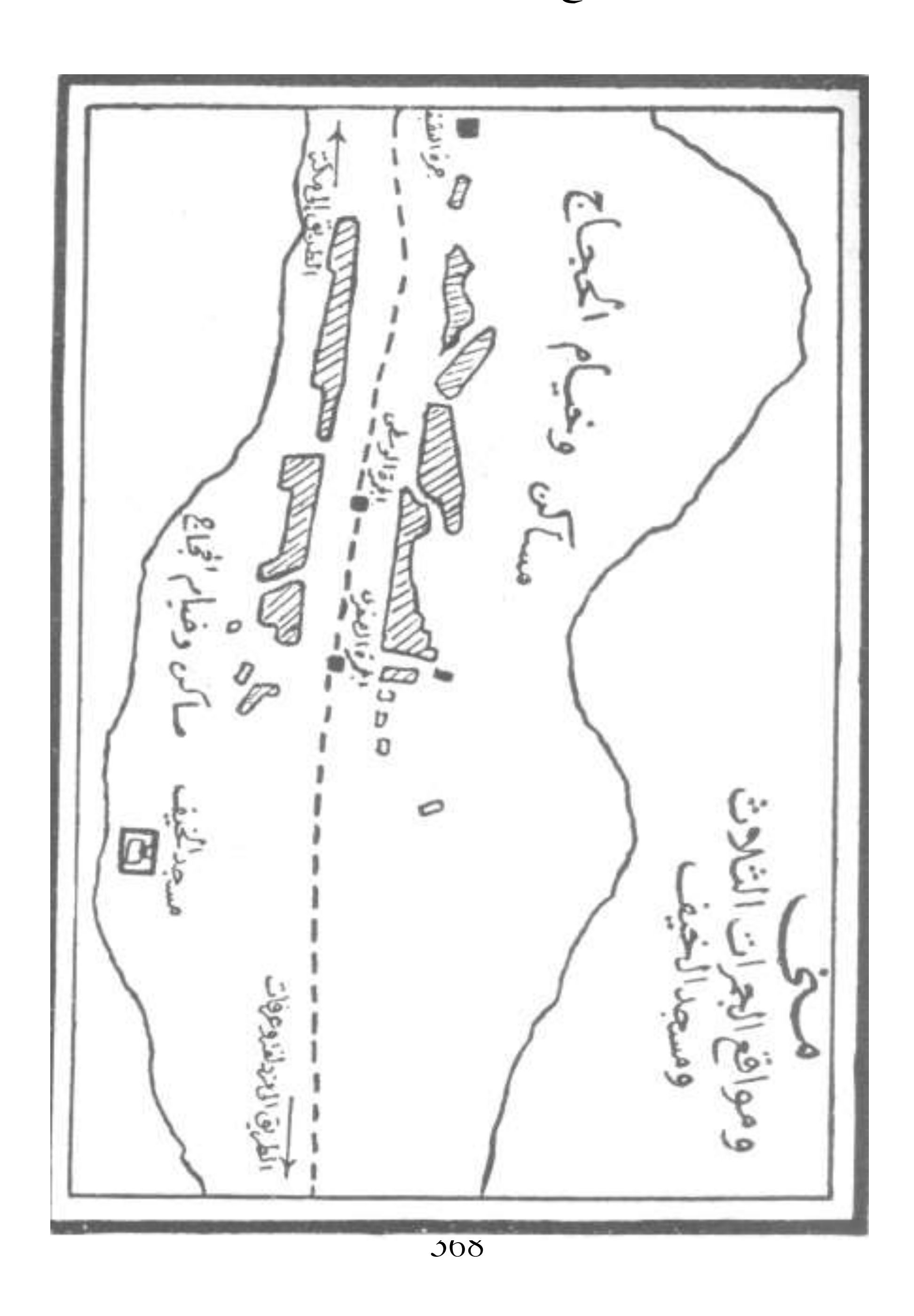
الأولى وقوف بعد صلاة الظهرين[1] بجبل الرحمة- وهو مكان شرقى عرفة عند القبة المسماة قبة أبينا آدم- وندب الوضوء، وندب الوقوف مع الناس، وندب الركوب أو الوقوف إلا لتعب فيجلس، وندب صرف الأنفاس فى هذا الوقت والمحل بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى لنيل خيرى الدنيا والآخرة، لأنها لحظات الإجابة وأنفاس الإقبال من الله على عبيده، وتجليه بالغفور التواب المحسن الوهاب.
فإذا غربت الشمس يدفع إلى مزدلفة، ويجمع العشاءين جمع تأخير ويصلى العشاء قصراً إلا أهل مزدلفة، والأولى صلاة المغرب والعشاء فى هذه الليلة بمزدلفة، وأعادهما من قدمهما قبل مزدلفة ندباً لغير عذر، فيجمعهما المعذور فى أى محل، كل ذلك لمن وقف مع الناس. ومن انفرد بوقوفه عن الإمام والناس، صلاهما فى وقتهما ووجب النزول بمزدلفة بقدر حط الرحال وصلاة العشاءين والأكل والشرب، ومن لم ينزل فعليه التقرب إلى الله بذبيحة، وندب البيات بها وارتحاله منها بغلس[2] بعد صلاة الصبح.
وندب الوقوف بالمشعر الحرام- محل بين مزدلفة ومنى- يقف مستقبلاً البيت سائلاً الله تعالى المغفرة، حامداً شاكراً فاكراً إلى الإسفار، ويسرع السير فى بطن محسر- وهو واد بين المشعر الحرام ومنى- فإذا وصل إلى العقبة وعليها سور من البناء يعينها رمى جمرة العقبة ندباً فى هذا المكان والوقت.

(1) الظهرين: أى صلاة الظهر والعصر جمع تقديم.
(2) الغلس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

رمى الجمرات واجب:

ويتعين أن يكون بسبع حصيات يلتقطها من المزدلفة للعقبة ويسرع برميها ولو كان راكباً، وبتمام رميها حل له كل شىء إلا النساء والصيد، قيل: والطيب، وندب أن يكبر عند رمى كل حصاة وتتابع الرمى من غير فصل، وندب لقطها بنفسه من أى أرض إلا جمرة العقبة فمن المزدلفة، وجاز أن يلتقطها له غيره.

وبعد العقبة يوم النحر يحلق ويذبح، والحلق واجب، والنحر واجب، ويندب أن يكون عقب العقبة إلى ما قبل زوال الشمس، وصح تقصير الرجل، والمرأة تقصر فقط، ولا يجوز حلق البعض من الرأس، ولا يجزىء تقصير بعض شعر الرجل، وإن أجزأ عند بعض المذاهب كمسح جزء من الرأس أو بعضها.



والمالكية لا يصلون العيد بمنى ولا بالمسجد الحرام بل يتوجهون إلى مكة لطواف الإفاضة بعد الحلق والتقصير، وبه حصل الإحلال الأكبر فحلت له زوجته والصيد والطيب، إذا كان قدم سعى الفريضة قبل الوقوف، فإن لم يكن قدمه تعين أن يسعى بعد ركعتى الطواف، وعند توجهه للسعى يستلم الحجر الأسعد ويخرج للصفا، وبتمام السعى يحل له كل شىء.
ويرجع إلى منى ليقيم بها الأيام المعدودات ويرمى الجمرات الثلاث، فيبدأ بالأولى ثم الوسطى ثم العقبة، وذلك فى اليوم الحادى عشر، ويرمى فى اليوم الثانى عشر والثالث عشر، فيكون ما رماه من الأحجار سبعين حجراً، ثلاثة أيام يرمى كل جمرة بسبع حصيات يكبر عند رمى كل حصاة ويرميها بنفسه.

الوقوف حال الرمى:

ليس من السنة الوقوف عند رمى جمرة العقبة بل يرميها مسرعاً، ويمضى إلى المناسك الأخرى من حلق وذبح وطواف، ويقف عند الجمرتين الأولى والوسطى بقدر ما يقرأ سورة البقرة، يكبر عند رمى كل حصاة وهو السنة، ولا شىء عليه عند الأئمة إن ترك التكبير إلا الثورى، وقال: يطعم فإن جبر بدم فأحب إلىّ.
ويقف عند الجمرتين بعد العقبة بقدر سورة البقرة مكبراً مسبحاً حامداً داعياً الله بما شاء.
عن مالك بن أنس قال: إنه بلغه أن عمر بن الخطاب كان يقف عند الجمرتين الأوليين وقوفاً طويلاً حتى يمل القائم.

وعن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقف عند الجمرتين الأوليين يكبر الله ويسبحه ويحمده ويدعو الله سبحانه وتعالى ولا يقف عند جمرة العقبة.
وعن مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يكبر عند رمى الجمرة كلما رمى

حصاة، والسنة المشى فى رمى الجمار فى اليوم الثانى والثالث.

المشى فى الجمار:

فيمشون ذاهبين وراجعين، إلا جمرة العقبة فى يوم النحر. والجمرة الأولى فى الاصطلاح هى ما تلى منى فيبدأ بها الإنسان فى كل يوم ويختم بالعقبة، وإنما بدىء بالعقبة فى يوم النحر لأنها بطن محسر، وجاز الركوب فى رمى الجمرات لمريض أو ضعيف، فقد رماها معاوية رضي الله عنه راكباً. وقد اختصت جمرة العقبة بأمور أربعة: بكونها يوم النحر، وأن لا يوقف عندها، ويرميها ضحى، وترمى من أسفلها ندباً. ولا يعيد من رمى أو سعى بين الصفا والمروة غير متوضىء ولكن لا يتعمد ذلك.

وقت رمى الجمرتين الأوليين:

وقتها بعد الزوال من اليوم الحادى عشر، فمن رمى قبل الزوال أعاد. ويستحب أن يكون الرمى قبل صلاة الظهر وهذا بإجماع الأئمة رضوان الله عليهم، وعلى من تجمل بهديهم واقتفى أثرهم وسارع للتشبه بهم.

من المضنون

إشارات الوقوف:

قبل أن نشرح إشارات الوقوف، نبين أحوال المسافرين إلى الله تعالى هجرة إلى

البيت لمشاهدة ربه جل وعلا وفهم رموز الحج.

يبدأ المسافر من بيته إلى الحج بأن يسافر أولاً من معاصيه ومخالفاته للشريعة إلى الطاعات والخضوع لسلطان الشرع، حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

فإذا تحقق سفره من المعصية إلى الطاعة، ومن المخالفة إلى التسليم للشرع أشبه عالم الملكوت، فكوشف بأسرارها، لديها ينتقل فى كل مرحلة يقطعها من الأرض إلى مقام من مقامات القرب، فينتقل من التوبة مثلاً إلى الخوف، فالرجاء، فالحب، فالجمع، فالفرق، فالسكر، فالصحو، فالغيبة، فالحضور، حتى يحل فى مقام الفناء.

فيحرم تجريداً من نفسه ومن الدنيا والآخرة، كما أحرم بتجريده من المحيط والمخيط والنساء والصيد والطيب، فإذا لم يتخل عن دواعى بشريته، ومقتضيات نفسه البهيمية والشهوانية، ولوازم هواه وحظه الإبليسى- كما تجرد من المحيط والمخيط - فليس بمحرم، ولكنه مقلد جاهل بحكمة أحكام الله، ولا يكون محرماً حقاً إلا إذا تجرد من كل تلك المعانى.

فإذا صح إحرامه زكت نفسه فجانست العالم الأعلى قرباً من الله تعالى، فجمله الله تعالى بالجمال الموسوى، ومنحه سمعاً يسمع به من الله، فيسمع دعاء الله إياه إلى دار سلامه وبيت مواجهته، ليقف على أعراف المعرفة، وعرفة الشوق إلى الله تعالى، فيقول وجداً لا تواجداً: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) فيشهد عند التلبية مشاهد المستجيب لله الحاضر معه، فيقوى وجده وينمو شوقه ويفر للقرب، ويقهره حاله فيكرر التلبية مشاهداً مستجيباً لله ومجيباً.

فإذا استجاب الحاج لله سامعاً بالله تعالى، ومبصراً بالله تعالى وصل إلى عرفات المعرفة، فوقف على طور المناجاة وقفة حضور مع الله وغيبة عما سواه فقربه وأدناه،

---

(1) سورة التحريم الآية 6.

وتنزل له ﷻ وناجاه بعد زوال شمس الكون وإشراق شمس المكون، فحضر مع الله وذكر، ولبس حلة العبودية وشكر، وابتهل متضرعاً وخشع قلبه خانعاً. فآنسه الله على بساط منادمته، وأطلق لسانه بالدعاء، وعمر قلبه بالرضا، فكان وهو فوق عرفات كأنه على طور سيناء المناجاة، ممنوحاً هيمان الشوق إلى رؤية ربه، وكان بين جواذب شهوده فى بيته الذى هو مولٍّ وجهه إليه فى وقفته، وبين نار الاصطلام إلى دار السلام.

ثم يندفع بعد غروب شمس أفقه المبين بشروق شمس أفقه الأعلى، فارا إلى ربه حسا ومعنى، فوصل إلى مزدلفة الزلفى، ونازعته نفسه إلى حظه وهواه فأفرد وجه ربه بالقصد دون غيره، وكانت الزلفى عنده أن يقصد الله وحده، ومن وصل إلى مزدلفة فلم يفز بالزلفى فهو بالمنزلة السفلى، ومن صلى بها المغرب والعشاء جمعاً وقصراً رفعه الله قدراً ففاز بالجمعية الكبريائية الخاصة مع الله والله معه، وسارع فى وقت تنزل الحق ﷻ سحراً، فجمع حصى جمرة العقبة ليرمى من قلبه نسبه وحسبه، ويتجرد من محيط الأسوار ومخيط الرسوم الهيكلية، ولديها ينفجر فجر نور الحقائق فيصلى صلاة الصبح بقلب المخلص الصادق.

ويدفع مسارعاً ليقتحم العقبة، متبرئاً من نسبة جوارحه المجترحة إليه فيرمى جمرة العقبة ويرمى مع كل حصاة جارحة من السبعة، وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس والبطن والفرج.

فإذا رماها قفلت أبواب النيران وفتحت أبواب الجنة، فدعاه ربه لزيارته، فأسرع إلى إزالة أخلاقه البشرية بحلق رأسه، ونحر نفسه الأمارة بالسوء بنحر هديه، فكان كما قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾[1].

لما صار حيا بحى يسعى نوره أمامه وعن يمينه، ويسمع ربه يدعوه إليه، ففر إلى

---

(1) سورة الأنعام الآية 122.

الكعبة مسارعاً فطاف تشبيهاً بالحافين حول عرش الرحمن بالكعبة المطهرة، فلحظ سره جمال ربه ﷻ مشرقاً فى فضاء التنزيه من غير تأويل ولا تشبيه، فقبل منه ربه وأقبل عليه وأكرمه بكل شوط من السبع بمواجهته عند الحجر السعد روحاً وجسماً، فقبل الحجر بفمه الحسى، وشهد اليمنى بنفخته القدسية فدعا وابتهل، ثم طاف الثانى فتنزل له سبحانه عند الركن اليمانى فانجذب قلبه شوقاً إلى مولاه، فمس الركن الثانى متقرباً ودعا موقناً بالإجابة، وأتم سبعة على هذا النمط، فلما أن أتم طوافه واجهه ربه مواجهة المحسن المتفضل غافر الذنب وقابل التوب.

فلما أن واجهه سبحانه بعد تمام سبعة، أحب أن تكون تلك المواجهة وهو قائم يصلى فى مقام الخليل فصلى ركعتين انمحى بها البين من البين حتى وقعت العين على العين فى حصون التنزيه.

فاشتاق إلى المؤانسة فى مقام الصفا، فقبل الحجر وسارع مهرولاً حتى صعد فوق الصفا، فتنزل له ربه فابتهل ودعا ونزل ساعياً، حتى إذا وصل إلى وسط الوادى اشتد به الهيام فهرول هرولة المشتاق، فلما جاوز الوادى حصلت له السكينة فسعى سعى المؤدب، حتى وصل إلى المروة وصعد بعناية الله مرتفعاً ودعا ربه متضعاً، فبسط له بساط الأنس ودعاه إلى الصفا بعد الوفا، فرجع مسرعاً حتى بلغ مقام الصفا فزال الجفا وحل الوفا، وأتم سعيه بين الصفا والمروة فأكرمه مولاه وبنزاهة ناجاه.

وأمره بالعودة إلى دار ضيافته إلى منى بلوغ المنى ونيل الهنا، فرجع فى روض الإطلاق وحلة الإحلال، وصار الحق ﷻ معالم بين عينيه، لا يغيب إذا غاب الغافلون، ولا يحجب إذا حجب الجاهلون، متنعماً فى روض المشاهدة مدة الأيام المعدودات بعد المجاهدة مدة الأيام المعلومات، فلما دخل رياض الضيافة بمنى زال العنا، واضمحلت الدنيا فى عينيه وترك أمانيه الباطلة.

وقام فى اليوم الثانى فرمى الجمرات بعد صلاة الظهر ودعا الله فى الجمرة الأولى

والثانية وختم بالثالثة.

وفى اليوم الثالث من يوم الأضحى تقرب إلى الله بما يحبه ﷻ، ورمى الجمرات بعد الظهر داعياً تائباً منيباً مستغفراً فى غيبة عن الدنيا ومقتضياتها، فكشف عنه الحجاب فعلم أن الكون كله بيت الله تعالى، وتحقق أن قلبه هو بيت الله المعمور بآثاره العلية وأنواره الربانية، وهو البيت الذى لا يفارقه وإن فارقه بيت مكة.

فأسرع إلى البيت مودعاً معتقداً أن ربه معه حيث ولى وجهه، ورجع إلى أهله بالمغفرة والمثوبة، حاضراً مع ربه لا يغيب، مراقباً عظمته وجلاله لا يغيب، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

الفدية

الفدية وأنواعها:

الفدية أنواعها ثلاثة على التخيير كما بين الله تعالى: ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[1]

أسباب الفدية:

يوجب الفدية كل عمل يترفه به الإنسان متنعماً، أو يزيل عن الإنسان أذى يضره حرمه الله عليه فأزاله لغير ضرورة، وسنفصل ذلك، وقد تتعدد الفدية بتعدد موجبها.

(1) سورة البقرة الآية 196.

موجبات الفدية على المرأة:

تقدم إحرام المرأة فى وجهها وكفيها، فمما يوجب الفدية على المرأة لبس محيط بكفها إلا الخاتم فإنه جائز لبسه، ويحرم عليها ستر وجهها إلا لخوف الفتنة، فيجوز لها ستره بخرقة تضعها على رأسها، وتسدلها على وجهها من غير ربط كربط البرقع ولا غرز بدبوس، فإن ربطته أو غرزته فعليها الفدية.

موجب الفدية على الرجل:

تجب الفدية على الرجل إن لبس محيطاً لغير عذر ولو بزر أو بعقد، وحرم عليه لبس المخيط كالعباءة والجبة ولو لم يدخل يده بكمه، ما لم يجعلها إزاراً أو يجعل عاليها سافلها فإنه جائز ولا فدية فيه. ويوجب الفدية ستر الرأس. ولما كان إحرام الرجل فى رأسه وقدميه جاز له أن يلبس الخفين لفقد النعلين إذا أزال ما على عقبه، ولا شىء عليه كما تقدم.

ما لا فدية فيه:

1- لا فدية على من تظلل ببناء وغيره مما ليس بناء كالخيمة والمحفة وغيرها الموضوعة على الجمل. والقاعدة فى ذلك أن كل ما أظله مما هو ثابت كالشجرة والخيمة، أو ما هو مثبت بالأحبال كالحامل أو المظلة الثابتة فى سفر أو إقامة لا فدية عليه.

2- لا فدية عليه إذا دفع مطراً أو شديد حر عن رأسه ووجهه بأن يتظلل بثوب أو بغيره، بشرط أن يكون مرتفعاً عنه وهذا خلاف الأولى.

3- لا فدية على من حمل على رأسه ما لا بد له منه ولإخوته أو لدوابه، ولو حمل تلك الأمتعة بأجرة ليستعين على الحج.

4- لا فدية فيما يحيط بوسطه من الهميون المسمى بالكمر، المصنوع لحفظ نفقته ومن معه ولو من رفقائه ما دام فيه مال خاص به، وهى رخصة لحفظ المال، ولا يصح الجواز إلا إذا كان بسيور فى أبزيم لا بعقد وربط، ويجب أن يكون مشدوداً على الجلد لا على الثوب.

5- لا فدية على من غير ثوبى إحرامه أو غسلهما بالماء، وعلاج الدمامل والحبوب فى الجسم جائز ولو سال ما فيها بشق أو معالجة بالمراهم.

6- ولا حرج على من احتاج إلى حك جلده أن يحكه، أو احتاج إلى حجامة أو فصد فله أن يفعل عند المقتضى بدون عصابة، فمن احتاج إلى عصب عضو من أعضائه فعليه فدية ولو عصب لضرورة. وربط النفقة على الذراع والفخذ مكروه بعد جواز ربطها على الوسط، فمن يتألم من وسطه جاز له ربطها على غيره، ولما كانت أظفار اليدين والرجلين من أعضاء الإحرام فيحرم إزالتها وكذلك الشعر إلا لضرورة، ومعلوم أن جمال الحاج التخوشن وترك الترفه حتى يكون الحاج أشعث أغبر، فيحرم عليه إزالة أوساخ البدن التى بإزالتها يزول معها، الشعر كما يحرم عليه مس الطيب.

فدية الصيد:

عن أبى الزبير أن عمر بن الخطاب قضى فى الضبع بكبش، وفى الغزال بعنز، وفى الأرنب بعناق (أنثى المعز قبل كمال الحول)، وفى اليربوع بجفرة (الأنثى من ولد الضأن).

وعن مُحَّد بن سيرين أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى أجريت أنا وصاحب لى فرسين نستبق إلى ثغرة ثنية (طريق فى الجبل) فأصبنا ظبياً ونحن محرمان فما ترى؟. فقال عمر ﵁ لرجل إلى جنبه: تعال حتى أحكم أنا وأنت، قال: فحكما عليه بعنز.

وقال مالك عن هشام بن عروة: إن أباه كان يقول: فى البقرة من الوحش بقرة، وفى الشاة من الظباء شاة. وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول: فى حمام مكة إذا قتل (شاة). قال مالك فى الرجل من أهل مكة يحرم بالحج أو العمرة وفى بيته فراخ حمام مكة فيغلق عليها فتموت، فقال أرى بأن يفدى ذلك عن كل فرخ (بشاة). وقال مالك: لم أزل أرى أن فى النعامة إذا قتلها المحرم بدنة. ورأى أن فى بيضتها عشر ثمن البدنة. وفى كل واحد من النسور أو العقبان أو البزة أو الرخم فدية، وفى صغاره مثل ما يكون فى كباره.

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إنى أصبت جزاءات بسوطى وأنا محرم، فقال له عمر: أطعم قبضة من طعام.

عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ محرماً فآذاه القمل فى رأسه، فأمره رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ أن يحلق رأسه، وقال: (صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين مُدّيْن[1] مُدَّيْن لكل إنسان، أو انسك بشاة... أىُّ ذلك أجزأ).

قال مالك: لا يصلح للمحرم أن ينتف من شعره شيئاً ولا يحلقه ولا يقصره حتى يحل إلا أن يصيبه أذى فى رأسه فعليه فدية، كما ذكره الله تعالى. ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[2]. ولا يصلح أن يقلم أظفاره ولا يقتل قملة ولا يطرحها من رأسه إلى الأرض ولا من جلده ولا من ثوبه، فإن طرحها المحرم من جلده أو من ثوبه، فليطعم حفنة من طعام.

قال مالك: من نتف شعراً من أنفه أو إبطه، أو طلى جسده بنورة أو يحلق عن شجة رأسه لضرورة، أو يحلق قفاه لموضع المحاجم وهو محرم ناسياً أو جاهلاً، إن

---

(1) المد: مكيال عند العرب ومقداره رطل وثلث بالعراقى، وهو يساوى 544 جراماً.

(2) سورة البقرة آية 196.

فعل شيئاً من ذلك فعليه الفدية فى ذلك كله. ولا ينبغى له أن يحلق موضع المحاجم، ومن جهل فحلق رأسه قبل أن يرمى الجمرة افتدى(1)

---

(1) جدول أحكام أعمال الحج والعمرة على المذاهب الأربعة.

النسك	حنفي	مالكي	شافعي	حنبلي
المبيت بمنى يوم التروية	سنة	سنة	سنة	سنة
الوقوف بعرفة	ركن	ركن	ركن	ركن
وقت الوفوق	من بعد زوال يوم عرفة إلى طلوع فجر يم النحر بالاتفاق			
امتداد الوقوف إلى ما بعد الغروف إن وقف نهارا	اجب	واجب	سنة	واجب
الدفع من عرفة مع الإمام أو نائبه	واجب	واجب	سنة	سنة
الجمع بمزدلفة من المغرب واعشاء تقديما	واجب	سنة	سنة	سنة
الوفوق بمزذلفة	ولو لحظة بعد الفجر	ويكفي مقدار حط الرحال وجمع الصلاتين وتناول الطعام والشراب	ويكفي لحظة في النف الثاني من الليل	واجب لما بعد منتصف الليل
الوقوف بمزدلفة عند المسجد الحرام من الفجر إلى الشروق	مستحب	مستحب والمعتمد أنه سنة	سنة	سنة

المبيت بالمزدلفة	سنة	سنة	يكفي المرور بها	واجب
إتيان المشعر	مستحب	سنة	سنة	سنة
رمي جمرة العقبة يوم النحر	واجب	واجب	واجب	واجب
الحلق أو التقصير في الحج	واجب	واجب	ركن على المعتمد	واجب
الترتيب بين الرمي والذبح والحلق	واجب	سنة	سنة	سنة
طواف الإفاضة	أكثره ركن ثلاثة فأكثر	ركن	ركن	ركن
كون طواف الإفاضة أيام النحر	واجب	واجب في ذي الحجة	سنة	سنة يوم العيد
تأخير طواف الإفاضة عن العقبة	سنة	واجب	سنة	سنة
رمي الجمار الثلاث في أيام التشريق	واجب	واجب	واجب	واجب
عدم تأخير الرمي إلى الليل	سنة	واجب	سنة	واجب على غير السقاة والرعاة فيرمون ليلا أو نهارا
المبيت في منى أيام التشريق	سنة	واجب إلا للراعي	واجب لغير الرعة والسقاة	واجب

أسرار الحج:

وأما أسرار الحج فكثيرة نرمز منها إلى أمرين:

الأمر الأول: أنه وضع بدلا من الرهبانية التى كانت فى الملل كما ورد فى الخبر[1]،

طواف الوداع	واجب	مندوب	واجب على المعتمد	واجب
حكم العمرة	سنة مؤكدة	سنة مؤكدة	فرض	فرض
الإحرام والعمرة (نيتها)	شرك	ركن	ركن	ركن
طواف العمرة	ركن	ركن	ركن	ركن
الحلق التقصير	واجب	واجب	ركن	واجب
أداء العمرة في أيام التشريق	مركوه تحريما	لايصح يكره	يصح	يصح

(1) حيث يقول ﷺ حين سأله أهل الملل عن الرهبانية والسياحة فى دينه: (أبدلنا الله

فجعل الله سبحانه الحج رهبانية لأمة سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾، فشرف البيت العتيق وأضافه سبحانه إلى نفسه ونصبه مقصد العباد، وجعل مع ما حوليه حرما لبيته تفخيما لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمه، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على أمثال الملوك ليقصده الزوار من كل فج عميق، ضعفاء غبراء متواضعين لرب العالمين خضوعا لجلاله، واستكانة لعزته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يكتنفه بيت، أو يحويه مكان، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم وعبوديتهم لذاته ﷻ، ولذلك كلفهم سبحانه أعمالا غريبة لا تناسب الطبع والعقل، ليكون إقدامهم بحكم محض العبودية، وامتثال الأمر من غير معاونة باعث آخر، وهذا سر عظيم فى الاستعباد، ولذلك قال ﴿ﷺ﴾(لبيك بحجة حقا تعبدا ورقا)[1].

الأمر الثانى: أن هذا السفر وضع على مثال سفر الآخرة، فليتذكر المريد بكل عمل من أعماله أمراً من أمور الآخرة موازيا له، فإن فيه تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر المستبصر، فتذكر من أول سفرك عند وداعك أهلك وداع الأهل فى سكرات الموت، ومن مفارقة الوطن الخروج من الدنيا، ومن ركوب الجمل[2] ركوب الجنازة، ومن الالتفاف فى أثواب الإحرام الالتفاف فى أثواب الكفن، ومن دخول البادية إلى الميقات ما بين الخروج من الدنيا إلى ميقات القيامة، ومن هول قطاع الطريق

بها الجهاد، والتكبير على كل شرف) يقول الإمام الغزالى: يعنى الحج، وهذا الحديث أخرجه أبو داود من حديث أبى أمامة، ورواه الطبرانى بلفظ: (إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله، ولكل أمة رهبانية، ورهبانية أمتى الرباط فى نحر العدو) وقد أوضح الإمام الغزالى فى الإحياء هذا الموضوع.

(1) هذا الحديث أخرجه البزار والدارقطنى فى العلل من حديث أنس، وقد أورده الغزالى فى الإحياء ج1 ص 212، وص 266.

(2) أو أية وسيلة نقل أخرى.

سؤال منكر ونكير، ومن سباع البوادى عقارب القبر وديدانه، ومن انفرادك عن أهلك وأقاربك وحشة القبر ووحدته، ومن التلبية إجابة داعى الله جل وعز يوم البعث.

وكذلك فى سائر الأعمال، فإن فى كل عمل سراً وتحته رمزاً يتنبه له كل عبد بقدر استعداده للتنبه بصفاء قلبه، وقصور همه على مهمات الدين، والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا المعونة والتوفيق لعمل ما يحب، ويجعل لنا نوراً نمشى به فى الناس، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا مُحَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث

المعاملات

اعلم أن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول: لا يدخل أسواقنا أحد قبل أن يتعلم البيوع. وكان السلف الصالح رضى الله عنهم يتعلمون الضرورى من الدين عند الدخول فى كل عمل، فيتعلمون الصلاة عند التمييز، ويتعلمون الصوم عند رمضان، ويتعلمون البيوع عند المعاملة، حتى كان الرجل منهم لا يعمل عملا من الأحكام إلا وقد علم حكم الله فيه، والعلم فريضة على كل مسلم، ومن عامل بدون علم وقع فيما حرم الله تعالى من الربا وغيره.

أولا: البيوع:

قبل أن تتكلم على البيوع نتكلم على الأحاديث الواردة فى الكسب وطلب الحلال.

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه. وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يديه)[1] وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين)[2]،فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[3]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[4].وقال ﴿ﷺ﴾(إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم)، وقال ﴿ﷺ﴾(لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت وكل لحم نبت من السحت كانت النار أولى به)[5] وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة له)[6] ونهى رسول الله ﴿ﷺ﴾عن ثمن الكلب وكسب الزمارة.

---

(1) رواه البخارى عن المقداد بن معد يكرب.

(2) رواه مسلم عن أبى هريرة.

(3) سورة المؤمنون الآية 51.

(4) سورة البقرة الآية 172.

(5) رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى عن أبى بكر الصديق.

(6) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير تحت رقم 4953.

المساهلة فى المعاملة:

قال رسول الله ﷺ (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قال أبو ذر: خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل إزاره والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب)[1].

وقال ﷺ (التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[2].

البيع:

عقد يحتوى على معاوضة البائع والمشترى وأركانه ثلاثة: الأول: صيغته، والثانى: بائع ومشتر، والثالث: تقرير ثمن ومثمن.

ويكفى فى الصيغة من المشترى ما يدل على الرضا من إشارة أو كتابة، أو تسليم، ويلزم أن يكون البائع عاقلا، فخرج المجنون، والصبى الصغير، والمغمى عليه والمكره إلا من أكرهه السلطان على بيع لوفاء دين. وشرط لزومه تكليف ورشد فى بيع متاع نفسه، وشروط العين المباعة. الطهارة، والانتفاع بها، والقدرة على تسليمها، وأن تكون غير منهى عن بيعها، وأن تكون معلومة للمشترى.

الخيار فى البيع:

هو أن يشترط المشترى لزوم البيع بعد التجربة والمعاينة، وهذا إنما يتحقق فى الدار والدابة والمملوك، وماعدا ذلك من المأكول والمشروب وغيرهما، فلا يتحقق فيه هذا

---

(1) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة وأبو داود والنسائى عن أبى ذر.

(2) رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى.

الشرط، ولذلك فالأولى أن نفهم قوله ﷺ: (المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا)[1] إلا بيع الخيار فلو شرط المشترى أن له خيار النظر أو التجربة فله ذلك فى البيت لشهر، وفى العبد لجمعة، وفى الدابة ليوم، وهذا ما عليه عمل أهل المدينة، فالبائع والمشترى فى غير العقارات، والدابة، والمملوك، والثوب، هما بالخيار ما لم يتفرقا وفيها للمشترى خيار الشرط.

الربا:

معاوضة الذهب بالذهب بزيادة أو استزادة، أو الفضة بالفضة، أو الشعير بالشعير، أو البُر بالبُر، أما المبادلة فيها مثلا بمثل، يدا بيد، سواء بسواء، فليس ربا، أما إذا اختلفت الأنواع فى المعاوضة بأن بعت بُرا بذهب أو ذهبا بفضة بزيادة أو استزادة فهذا بيع حل. قال سيدنا جابر ﷺ: (لعن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه)[2].

ثانيا: القرض:

وهو السلف عرفاً، وهو ذو قيمة يعطى لمقترض فى نظير عوض مماثل صفة وقدرا فى ذمة المقترض، لينتفع به المقترض فقط لا لنفع من أعطى ولا لنفعهما معا وإلا كان ربا، وإنما يجوز أن يقترض الرجل الحيوان، والعروض والنقود، لا الدار، والحانوت، والخان والأرض، والجارية التى تحل للمقترض. وحرم قرض جر نفعا لمن أعطى كهدية، وركوب دابة المقترض، والأكل فى بيته لأكل الدين، بل وشرب قهوته، والتظلل بجداره، كما تحرم الهدية للقاضى، وذى الجاه، إلا لوجه شرعى

(1) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن ابن عمر.
(2) رواه الترمذى.

سابق على الولاية والجاه، وفسد القرض إن جر نفعا لصاحب المال ولو قليلا، ورد المقترض على صاحب الدين مثله قدرا وصفة إن تغير، وعينه إن لم يتغير، وإن رد أفضل مما اقترضه كان خيرا له إذا لم يشترط ذلك فى العقد، وإذا اشترطه منع وتعين رد المثل، وثواب القرض أعظم من ثواب الصدقة عند الله تعالى، لأن المقترض أحوج ممن يسأل الناس، فمن أغاثه أغاثه الله.

ثالثا: الإجارة:

عن عبد الله بن مغفل أنه قال: زعم ثابت أن رسول الله ﴿ﷺ﴾نهى عن المزارعة وأمر بالمؤاجرة وقال: لا بأس بها. وقال: احتجم رسول الله ﴿ﷺ﴾وأعطى الحجام أجره، وقال ﴿ﷺ﴾(ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم)، فقال أصحابه: وأنت، فقال: (نعم، كنت أرعى على قراريط لأهل مكة)[1].

وقال ﴿ﷺ﴾(ثلاثا أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بى ثم غدر. ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره)[2]. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن نفراً من أصحاب النبى ﴿ﷺ﴾مروا بماء فيهم لديغ. فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق، إن فى الماء رجلا لديغا، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاة، فبرأ. فجاء بالشاة إلى أصحابه فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرا حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله أخذ على كتاب الله أجرا، فقال رسول الله

(1) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

(2) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

ﷺ(إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله)[1]. وفى رواية للبخارى: (أصبتم اقسموا واضربوا لى معكم سهما).

والإجارة والكراء سواء، إلا أنهم اصطلحوا على العقد على منافع الآدمى إجارة، وعلى العقد على منافع الأرض والدور وما ينقل من سفينة وحيوان كراء. وهى عقد معاوضة على تمليك منفعة فخالفت البيع. فإنه: عقد معاوضة على تمليك عين، وتكون المنفعة بعوض بصيغة أو ما يدل على تمليك المنفعة.

أركانها أربعة.

- الركن الأول: بائع المنفعة ومشتريها من مؤجر ومستأجر.
- الركن الثانى: الصيغة، فهى كالبيع فتنعقد بما يدل على الرضا.
- الركن الثالث: أجرة، بشرط أن يكون طاهرا منتفعا به مقدورا على تسليمه معلوما ذاتا وأجلا.
- الركن الرابع: منفعة، وهى المعقود عليها، لها قيمة معلومة مقدور على تسليمها للمستأجر غير حرام، وغير متعينة على المؤجر كالصلاة.

شروطها:

شروط صحتها، العقل، والطوع، وشروط اللزوم، والتكليف، والرشد.. ومن أراد المزيد فعليه بالمطولات من الكتب.

---

(1) رواه الترمذى عن أبى سعيد، والبخارى عن ابن عباس، والعجلونى فى كشف الخفا جـ59 صـ 1.

رابعا الإعارة:

عن أنس ﵁ أنه قال: (كان النبى ﷺعند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التى النبى فى بيتها يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبى ﷺفلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام ويقول غارت أمكم، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها، فدفع إلى التى كسرت صحفتها وأمسك المكسورة)[1].
عن أمية بن صفوان عن أبيه: (أن النبى ﷺاستعار منه أدراعه يوم حنين، فقال: أغصبا يا مُحَّد، قال: لا بل إعارة مضمونة). وعن أبى أمامة أنه قال: (سمعت رسول الله ﷺيقول: (العارية مؤداة، والمنحة مردودة، والدين مقضى، والزعيم غارم)[2] وهى أن يملك صاحب العين منفعة العين لغيره زمنا أو عملا بلا عوض، وهى مرغب فيها لمعونة المسلمين بالخير.

وأركانها أربعة:

– الركن الأول: المالك الذى يملك المنفعة لغيره، ومن وهبت له المنفعة، والعين المستعارة، والصيغة أو ما دل على القبول من كتابة أو إشارة، أو تسليم. وجاز لمالك المنفعة أن يملكها لغيره بالإعارة، وإنما يملك المنفعة من له التصرف المطلق لا الصبى والمجنون، والمملوك والسفيه، وإن جاز لبعضهم التجارة لأنها تمليك بعوض.

– الركن الثانى: الممنوح ملك المنفعة وهو المؤهل لأن يتبرع عليه بمثل تلك المنفعة، فلا يتبرع بعمل إنسان مسلم لكافر، ولو كان العامل عبدا، ولا بمصحف أو كتب

(1)أخرجه البخارى عن أنس.
(2) رواه الترمذى عن أبى أمامة.

أحاديث لعدم أهليته، ولا تعار آلة الجهاد الحربى.

- الركن الثالث: العين التى تملك منفعتها. وشرطها: أن تكون ذات منفعة مباحة ثياب أو حيوان أو أرض أو بيت ينتفع به مع بقاء لعينه ليردها لصاحبها بعد الانتفاع بها، فلا تتحقق العارية فى طعام أو شراب أو دنانير لأنه لا يمكنه رد عينها وإنما هى قرضة، ولا تجوز إعارة جارية للاستمتاع بها ولا لخدمتها عند غير محرم، ولا يعار رقيق لمن يعتق عليه كوالد لولد ووالدة لولد وأخ.

- الركن الرابع: ما دل عليها من صيغة أو إشارة أو كتابة، وقد تقدم بيانها. ولما كانت الإعارة بلا عوض، فقولك: أعنى بدابتك اليوم، أعنك بدابتى غدا، ليس من الإعارة لأنها بعوض، وضمن المستعير ما يتهم فيه مما يدعى هلاكه أو ضياعه إلا ببينة كالحلى والثياب، وما يتجمل به مما شأنه الخفاء. بخلاف ما لا يتهم فيه كالحيوان والعقار والقول للمستعير فى التلف أو الضياع.

الوكالة:

عن عروة بن أبى الجعد البارقى: (أن رسول الله ﷺ أعطاه ديناراً ليشترى له شاة فاشترى شاتين فباع إحداهما بدينار، وأتاه بشاة ودينار، فدعا له رسول الله ﷺ فى بيعه بالبركة فكان لو اشترى ترابا لربح فيه).

الوكالة: نيابة عن آخر بإذنه فى حق مالى أو غيره بغير شرط موت الموكل، ولا شرط إمارة لأن الإمارة والقضاء نيابة عن الخلافة لا توكيل، والتوكيل يكون فى عقد نكاح، أو بيع، أو إجارة، أو فسخ عقد، أو طلاق، وإقالة وخلع، أو أداء دين أو قضائه، أو عقوبة لمن له ذلك من أمير أو سيد أو زوج، وتعزير وحد يجوز التوكيل فيها، وحوالة وإبراء من حق وحج فى غير الفريضة، وفى الهبة والصدقة والوقف وقبض حق وفى كل ما يقبل النيابة، لا فيما لا يقبل النيابة من الأعمال البدنية كاليمين والصلاة والصيام، ولا فى معصية.

أركانها أربعة:

موكل، ووكيل، وموكل فيه، وصيغة، فلابد من الصيغة أو ما يدل عليها ككتابة أو إشارة، أو ما دلت عليه العادة كتصرف الزوج فى مال زوجته، أو تصرف الأخ الأكبر فى مال إخوته، ولابد من قبول الوكيل ولابد من تعيين ما وكل فيه، فلا تصح بمجرد قوله وكلتك. بل لابد أن يقول للوكيل: فوضت لك الأمر أو وكلتك وكالة مفوضة، أو يعين له فى شئ خاص كنكاح أو بيع، أو شراء، وللوكيل الموكل على البيع قبض الثمن من المشترى، وللموكل على الشراء قبض العين التى اشتراها،

وله ردها بعيب ظهر فيها ويطلب من الوكيل الثمن، وبالعين التى باعها إلا أن يصرح بالبراءة من ذلك، وفعل الوكيل المصلحة وجوبا ومنع توكيل غير المسلم فى بيع المسلم أو شراء أو تقاض منه، وتوكيل عدو على عدوه، ومنع أن يشترى الوكيل ما وكل فى بيعه لنفسه، والفروع تعلم من المطولات.

الشركة:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن الله عز وجل يقول: أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإذا خانه خرجت من بينهما). وقال ﴿ﷺ﴾(أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك).

والشركة إما اختيارا وإما قهرا، فالشركة قهرا كشركة الورثة، وشركة المجاهدين فى الغنيمة، والشركة اختيارا كالشركة فى التجارة، والشركة فى العمل، والمراد هنا الشركة اختياراً. والشركة عقد مالكين لمالين فأكثر من مالكين على الإتجار فيهما سواء اتحدا فى محل واحد، أو قام كل واحد منهما فى محل الآخر. أو عقد عاملين على اتحادهما فى عمل، كخياطة أو حدادة أو نجارة والربح بينهما، ولزمت الشركة بما يدل عليها لفظاً كشاركنى. فيرضى الآخر بسكوت أو إشارة أو كتابة.

فأركانها ثلاثة: العاقدان. والمعقود عليه وهو المال أو الصنعة، والصيغة. وشرطها أن يكونا من أهل التصرف، والمتصرف هو الحر البالغ الرشيد الذى يصح منه التوكيل بمالين منهما إن اتفقا صرفا ووزنا وجودة، وتصح بعرضين، وبنقد من أحدهما وعرض من الآخر، فإن كانت القيمة قدر العين، فالشركة بالنصف، وإن كانت قدرها مرتين، فالشركة بالثلث والثلثين، وتحفظ هذه النسبة بين كل شريكين.

أولا: شركة المفاوضة:

أن يطلق كل واحد التصرف لشريكه فى البيع والشراء، والأخذ والعطاء بدون توقف على إذن منه، وهذه الشركة تبيح لكل واحد منهما التبرع فى مال الشركة بهبة وحطيطة. الحطيطة: هى ما يحط من جملة الحساب فينقص منه. وإعارة آلة

وإطعام فقير، وأن يقارض ويوكل غيره ويودع، وله أن يشارك وأن يقبل المعيب ويقر بدين لمن لا يتهم عليه، ويكون الربح على قدر المال.

ثانيا: شركة العنان:

وهى أن يشتركا بشرط أن لا يتصرف أحدهما إلا بإذن الآخر، وسميت عنانا من عنان الدابة فكأن كل واحد منهما أخذ بعنان صاحبه، فلو تصرف أحدهما رد الآخر تصرفه، إن كان تصرفه بدون إذنه، وضمن إن ضاع ما تصرف فيه. وإن اشترط فى الشركة أن يكون لأحد الشريكين التصرف المطلق، بأن يستبد بالعمل، وشريكه ليس له أن يتصرف فى شئ إلا بإذنه، أرى أن الشركة تكون فاسدة إذا كانا عاملين فيها معا، وإذا كان المال من شخص والعمل من شخص فلا بأس من تقييدها بشروط مخصوصة.

ثالثا: شركة العمل:

يجوز لعاملين أو أكثر أن يشتركا إن اتحدا فى العمل، أو تلازما، ولكل واحد بقدر عمله، وحصل التعاون بينهما، وإن كان كل واحد بمكان إن اشتركا فى آلة العمل كدواء الطبيب وآلة التجارة، وغيرهما بملك أو إجارة، ويلزم كل واحد منهما ما قبله الآخر، وما ضمنه بلا إذن منه لأنهما صارا كالرجل الواحد، فان افترقا فما قبلاه فى اجتماعهما أو قبله أحدهما فى غيبة شريكه لمرض أو عذر إلى ثلاثة أيام فعليهما ضمانه وإلا فعلى من قبل دون الآخر.

رابع: المساقاة والمزارعة:

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما (أن رسول الله ﷺ دفع إلى يهود خيبر

نخل خيبر، وأرضها على أن يعتملوها من أموالهم ولرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ شطر ثمرها، ويروى على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها). وقال ﴿ﷺ﴾ (من زرع فى أرض قوم بغير إذنهم فليس له من الزرع شئ وله نفقته).

المزارعة:

هى عقد شركة عمل، وتقدم أن شركة العمل لا تلزم إلا بمباشرة العمل، فلا تلزم بالعقد وإنما تلزم بالبذر، وقد رأى بعض العلماء أنها عقد إجارة بين المالك وبين الزارع، والخلاف بين العلماء فى مدلول المزارعة، فمن رآها شركة عمل لا يراها لازمة بالحرث وتسوية الأرض وريها حتى يطرح البذر، ومن رآها عقد إجارة يحكم بلزومها بمجرد العقد، وعلى العموم فهى من أنواع الشركة، وينتج من هذا أنه يصح الرجوع عن المزارعة بعد الحرث وتسوية الأرض وريها حتى يحصل البذر
قال: وصحت بشرطين:
الشرط الأول: السلامة من كراء الأرض بممنوع.
الشرط الثانى: أن يأخذ كل واحد منهم بقدر ما أخرج.
فإن توفر الشرطان صحت وإلا فسدت، ومسائلها ظاهرة.

الرهن:

ما يضعه المحتاج عند من اقترض منه فيقبضه توثقا به، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[1]،وقالت عائشة رضى الله عنها: (إن النبى ﴿ﷺ﴾اشترى طعاما من يهودى ورهنه درعا من حديد)[2]. وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(الظهر يركب بنفقته إذا كان مرهونا، ولبن الدر يشرب بنفقته إذا كان مرهونا، وعلى الذى يركب ويشرب النفقة)، وقال ﴿ﷺ﴾(لا يغلق الرهن من صاحبه الذى رهنه. له غنمه وعليه غرمه)، ومن أراد أن يعامل الله تعالى ويرغب فيما عنده، فحكم الله فى الرهن كما أبين: أن من رهن نخلا أو كرْما فثمره لمالكه إلا إذا شرط الراهن ذلك بأن تقوم الأثمار وتسقط من الدين، ومن رهن دارا أو أرضا فليس له أن ينتفع بها. إلا أن يؤجرها من مالكها كما يؤجرها الأجنبى بدون محاباة، فإن وضع يده على الأرض واستغلها مدة تأخير الدين، أو أقرضه بشرط أن يؤجر له الأرض أو الدار بأقل من قيمتها فهو ربا.

وحكم الدين فى الرهن الذى يسمونه بيعا وفائيا فى هذا الزمن الذى صورته: أن يعطيه دارا أو أرضا قيمتها مائة ويأخذ منه سبعين ويرهنها لمدة خمس سنين، فإذا لم يدفع له المبلغ بعد الخمس سنين صار ملكا للراهن، فالحكم فى هذا أن مالك الأرض له أن يرد هذا المبلغ له بعد مضى الأجل، وعلى الراهن أن يرد له العين المرهونة، وأرى أن المال الذى استغله من الأرض ربا، ولا يرهن النجس كالخمر، وجلد الميتة والخنزير، وما أشبهها، ومن رهن دابة أو عبدا فله أن ينتفع بظهر الدابة وبلبنها وبخدمة العبد لما ينفقه، وله أن يرهن الثمار قبل أن يبدو صلاحها، وفى غير

---

(1) سورة البقرة الآية 283.

(2) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى.

وجودها، بخلاف البيع فإنه ليس له أن يبيع الثمار إلا إذا حان صلاحها.

الغصب:

قال ﴿ﷺ﴾(من أخذ شبرا من الأرض ظلما فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين)[1]، وقال: (لا يحلبن أحد ماشية امرئ بغير إذنه، أيحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزانته فينتقل طعامه، فإنما تخزن لهم ضروع مواشيهم أطعماتهم).
عن عبد الله بن زيد عن النبى ﴿ﷺ﴾(أنه نهى عن النهبة والمثلة).
عن سعيد بن زيد عن رسول الله ﴿ﷺ﴾أنه قال: (من أحيا أرضا ميتة فهى له)[2]، وليس لعرق ظالم فيه حق. وقال: (ألا لا تظلموا، ألا لا يحل مال امرئ إلا بطيب نفس منه)، وعنه ﴿ﷺ﴾قال: (لا حلب ولا جنب ولا شغار فى الإسلام ومن انتهب نهبة فليس منا). وعنه ﴿ﷺ﴾أنه قال: (لا يأخذ أحدكم عصا أخيه لاعبا جادا، فمن أخذ عصا أخيه فليردها عليه).
فالغصب هو أن يقهر إنسان إنسانا على أخذ ماله بلا حرابة، والغصب غير السرقة وغير الاعتداء على المنفعة. كما يقهر آخر على أن يزرع أرضه أو يسكن داره أو يأتيه ليلا مختلسا هذا غير غاصب. والغصب من الكبائر وليس له حد مخصوص فى الشريعة، والواجب أنه يؤدب بحسب ما يراه الحاكم وما يناسب الغاصب ولو صبيا. بضرب فقط أو بضرب وحبس. وبضرب ونفى، أو بحبس ونفى، خصوصا إذا كان ذا بغى وطغيان مشهوراً بالشر.
وحكم الغصب أن يضمن الغاصب المميز المغصوب بمجرد استيلائه عليه ولو تلف بالقضاء والقدر، وهذا الحكم يسرى على من جحد الوديعة وهلكت بعد إقراره

---

(1) رواه أحمد عن أبى هريرة وذكره المنذرى.
(2) أخرجه البخارى من حديث عمر.

بها، ويضمن من أكل من المغصوب مع علمه بأنه مغصوب قيمة ما أكله لصاحب المال، وللمغصوب منه الرجوع أولا لأنه بأكله منه صار غاصبا.
ويضمن من أكل من المغصوب جاهلا أنه مغصوب إذا عجز الغاصب عن العوض، ومن اغتصب حيوانا فذبحه فلصاحبه أخذ القيمة، أو أخذ الحيوان المذبوح بدون زيادة، كل مغصوب نوعه الغاصب بأن ذبح الحيوان، أو طحن القمح، أو فصل العروض ثيابا، أو اشترى بالنقود طعاما أو غير ذلك، فالقيمة فى ذمته، وجاز الأكل منه وشراؤه ولا يلزم الآكل ولا المشترى إثم ولا يرجع عليه المغصوب منه، لأن قيمته صارت فى ذمة الغاصب مع جهل المشترى والآكل، ومن أنواع الغصب أن يحفر الرجل بئرا فى طريق العامة أو فى ملكه أو فى ملك غيره للضرر، فإنه يضمن ما يقع فيها، ومنه من أغرى ظالما أو قهر غيره على عمل، ولو كان فى ذلك العمل دفع الضرر عن نفسه فإن عليه الضمان. لأن الإنسان لا يدفع الضرر عن نفسه بمضرة غيره.

اللُّقطة:

عن زيد بن خالد رضى الله عنه أنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فسأله عن اللقطة، فقال: (إعرف عفاصها ووكاءها، ثم عرفها سنة فإن جاء صاحبها وإلا فشأنك بها، قال: فضالة الغنم، قال: هى لك أو لأخيك أو للذئب، قال: فضالة الإبل، قال: مالك ولها معها سقاؤها وغذاؤها. ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها)[1] وفى رواية: (ثم استنفق فإن جاء ربها فأدها إليه)، وقال: (من آوى ضالة فهو ضال ما لم يعرفها).
وقال ﴿ﷺ﴾(من وجد اللقطة فليشهد ذا عدل أو ذوى عدل ولا يكتم ولا

(1) رواه البخارى عن زيد بن خالد

يغيب، فإن وجد صاحبها فليردها إليه وإلا فهو مال الله يؤتيه من يشاء)، وقال جابر رضي الله عنه: رخص لنا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ فى العصا والسوط والحبل وأشباهه يلتقطه الرجل ينتفع به، فقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ (ألا لا يحل ذو ناب من السباع، ولا الحمار الأهلى، ولا اللقطة من مال المعاهد، إلا أن يستغنى عنها مالكها).

واللقطة: مال مملوك شرعا لمالكه وجد ضائعا ببلد أو ببادية، فالصيد ليس لقطة، والإنسان الحر والكنوز، ومال الحربى، والصبى الصغير المطروح الذى لا عائل له يقال له لقيط، والمال الملتقط إما نقدا أو حماراً وفرسا وشاة وكلب صيد وعروضا، ووجب رد اللقطة لمن عرف الكيس الذى فيه النقود، والخيط الذى ربط به، ومن عرف الكيس والخيط يقضى له باللقطة على من عرف عددها ووزنها بيمين، وإن عرفها شخصان لم يبلغ الآخر تعريف الأول لها حلفا وقسمت اللقطة بينهما، والملتقط إذا دفع اللقطة لمن عرفها وجاء ثان لا يضمن، وللقاضى أن يعمل بالحكم الأول بين من استلم اللقطة وبين من ادعاها، ووجب على من وجد لقطة أخذها إن خاف عليها الهلاك ووثق من نفسه حفظها وإلا فلا.

حكمها:

يجب على الملتقط إذا كانت اللقطة أكثر من الدينار وكانت لا تفسد من فاكهة وطعام أن يعرفها سنة كاملة على أبواب المساجد، وفى الأماكن التى يظن أن يجد صاحبها بأن يقول من له أمانة ضائعة، أو من له مال، بدون أن يبين شيئا من علاماتها وأناب غيره بالتعريف، فإن تهاون وهلكت ضمن، ولا يعرف الجنيه فما دونه إلا يومين أو ثلاثة.

ولا يعرف مالا تلفت إليه النفس كالدرهم والعصا والسوط، وله أخذها. وقليل من الطعام فله أكله، وللملتقط بعد السنة أن يتصدق بها أو ينفقها على نفسه.

واختلف فى لقطة مكة فقيل: يجب تعريفها أبدا، ومن التقط شاة أو بقرة فى

الصحراء فله أكلها ولا ضمان عليه إن تعسر عليه ردها للعمران.

حكم الإبل:

لقطة الإبل تترك مطلقا سواء كانت بالصحراء أو بالعمران. وقيل: إن خاف عليها من سبع أو خائن أخذها إلى العمران، وعرفها سنة ثم يردها لمحلها.
ووجب على من وجد طفلا صغيرا لا قدرة له على القيام بمصالح نفسه أخذه للحفظ وجوب عين على من وجده بعيدا عن الناس، ووجوب كفاية على الجماعة، وأنفق عليه حتى يبلغ ويقدر على الكسب، ولا رجوع له عليه إلا إن وهب له مال أو تصدق عليه، أو وجد معه مال حال التقاطه، واللقيط حر لا رقيق، وولاؤه للمسلمين، وحكم بإسلامه إن التقطه مسلم، والأولى أخذ الآبق ليوصل لسيده.

قال رسول الله ﷺ(يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[1] أى وقاية، وقال ﷺ(تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2] وقال ﷺ(الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)[3]. وقال جابر ﵁: (كنا مع النبى ﷺفى غزوة، فلما قفلنا وكنا قريبا من المدينة قلت: يا رسول الله إنى حديث عهد بعرس، قال: تزوجت؟ قلت: نعم، قال: أبكر أم ثيب؟ قلت: بل ثيب، قال: فهلا كانت بكرا تلاعبها وتلاعبك)[4]. وقال رسول الله ﷺ(ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب الذى يريد الأداء، والناكح الذى يريد العفاف، والمجاهد فى سبيل الله)[5].

النظر إلى المخطوبة:

جاء رجل إلى النبى ﷺفقال: (إنى تزوجت امرأة من الأنصار، قال: فانظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا)[6]، وقال رسول الله ﷺ(إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل)، وعن المغيرة بن شعبة ﵁ أنه قال: خطبت امرأة فقال لى رسول الله ﷺ(هل نظرت إليها،

---

(1) رواه البخارى ومسلم والترمذى عن عبد الله بن مسعود.

(2) رواه البخارى عن أبى هريرة.

(3) رواه مسلم والنسائى وابن ماجة عن ابن عمرو بن العاص.

(4) متفق عليه.

(5) رواه الترمذى وابن حبان.

(6) رواه مسلم عن أبى هريرة.

فقلت: لا، قال: فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[1].

بيان العورات:

قال رسول الله ﷺ(لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضى الرجل إلى الرجل فى ثوب واحد، ولا تفضى المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد)، وقال: (ألا لا يبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحا أو ذا رحم محرم)، وقال رسول الله ﷺ(إياكم والدخول على النساء، فقال رجل: يا رسول الله أرأيت الحمو، قال: الحمو الموت)[2]، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: (سألت النبى ﷺعن نظر الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى)[3]. عن جابر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ(إن المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان، إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت فى قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها، فإن ذلك يرد ما فى نفسه)[4]، وقال ﷺلعلى: (يا على لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة)[5]، وقال ﷺ(لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما)[6].

---

(1) رواه الترمذى عن المغيرة بن شعبة.

(2) رواه البخارى ومسلم والترمذى.

(3) رواه مسلم وأبو داود والترمذى.

(4) رواه الترمذى ومسلم عن جابر.

(5) رواه أحمد والترمذى.

(6) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والطبرانى عن عقبة بن عامر.

الولى فى النكاح واستئذان المرأة:

عن عائشة رضى الله عنها: (أن النبى ﴿ﷺ﴾قال: أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل (ثلاثا) فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها، فإن اشتجروا فالسلطان ولى من لا ولى له)[1]، وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﴿ﷺ﴾أنه قال: (البغايا اللاتى تنكحن أنفسهن بغير بينة)[2]، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول لله ﴿ﷺ﴾(اليتيمة تستأمر فى نفسها، فإن صمتت فهو إذنها وإن أبت فلا جواز عليها)[3]، وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(لا تنكح الثيب حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن، وإذنها الصموت)[4]. وقال ﴿ﷺ﴾(الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صماتها)[5].

إعلان النكاح والخطبة والشرط:

عن الربيع بنت معوذ بن عفراء رضى الله عنها أنها قال: جاء النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فدخل حين بُنى على فجلس على فراشى، فجعلن جويريات لنا يضربن الدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر. إذ قالت إحداهن: وفينا نبى يعلم ما فى غد، فقال: (دعى هذا وقولى ما كنت تقولين)[6]، وقال ﴿صلى الله

(1) رواه الترمذى وابن أبى شيبة وأحمد وأبو داود.

(2) أخرجه الترمذى عن ابن عباس.

(3) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة.

(4) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة.

(5) أخرجه الترمذى عن ابن عباس ومسلم والنسائى وابن ماجه.

(6) أخرجه البخارى والترمذى عن خالد بن ذكوان.

عليه وآله وسلم﴿(أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتهم به الفروج)[1]، وقال ﴿ﷺ﴾(لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى ينكح أو يترك)[2]، وعن ابن عمر رضى الله عنهما (أن رسول الله ﴿ﷺ﴾نهى عن الشغار)، والشغار: أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته ليس بينهما صداق، وقالت عائشة رضى الله عنها، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد، واضربوا عليه بالدفوف)[3]. وقال ﴿ﷺ﴾(فصل ما بين الحلال والحرام الدف فى النكاح)[4].

الخطبة:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(كل خطبة ليس فيها تشهد، فهى كاليد الجذماء)[5]، وعن أبى الأحوص عن عبد الله قال: (علمنا رسول الله ﴿ﷺ﴾التشهد فى الصلاة والتشهد فى الحاجة)[6].

ستر الوطء:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل الذى يفضى

---

(1) أخرجه البخارى ومسلم عن عقبة بن عامر.

(2) أخرجه البخارى عن أبى هريرة.

(3) رواه الترمذى.

(4) أخرجه الترمذى وابن ماجه.

(5) رواه الترمذى عن أبى هريرة.

(6) أخرجه الترمذى.

إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها وتنشر سره)[1].

الصداق:

عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﴿ﷺ﴾جاءته امرأة فقالت: (يا رسول الله إنى وهبت نفسى لك، فقامت طويلا، فقام رجل فقال: يا رسول الله زوجنيها، إن لم تكن لك بها حاجة، فقال: هل عندك من شئ تصدقها، قال: ما عندى إلا إزارى هذا، قال: فالتمس ولو خاتما من حديد، فالتمس فلم يجد شيئا، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾، هل معك من القرآن شيئا، قال: نعم سورة كذا وكذا، فقال: زوجتكها بما معك من القرآن فعلمها)[2]. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:ألا لا تغالوا صدقات النساء. وقال رسول الله: (من أعطى فى صداق امرأته ملء كفيه سويقا أو تمرا فقد استحل)، وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنه قال: (أتى النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾رجل من بنى فزارة، ومعه امرأة له، فقال: إنى تزوجتها بنعلين- المراد أحضرت لها نعلين أى حذاءين مهرا- فقال لها: أرضيت؟ فقالت: نعم ولو لم يعطنى لرضيت، قال: شأنك وشأنها)[3].

الوليمة:

عن أنس رضي الله عنه (أن النبى ﴿ﷺ﴾رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة، فقال: ما هذا، قال: إنى تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، قال: بارك الله لك، أولم

---

(1) أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى.

(2) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى.

(3) رواه الترمذى عن عبد الله بن عامر بن ربيعة.

ولو بشاة)[1]، وقال أنس ﵁: (أولم رسول الله ﷺ حين بنى بزينب بنت جحش فأشبع الناس خبزا ولحما). وقال ﷺ (شر الطعام طعام الوليمة، يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله)[2]، وقال ﷺ (إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابا، وإن سبق أحدهما فأجب الذى سبق)[3]. وقال رسول الله ﷺ (طعام أول يوم حق، وطعام اليوم الثانى سنة، وطعام اليوم الثالث سمعة، ومن سمع سمع الله به)[4].

عشرة النساء:

عن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال لها: (للبكر سبع وللثيب ثلاث)[5]، وكان ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: (اللهم هذه قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك)[6]. وقال ﷺ (إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط)[7]. وعن أبى هريرة ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ (استوصوا بالنساء خيراً فإنهن خلقن من ضلع، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج)[8]،

---

(1) أخرجه البخارى والترمذى عن أنس بن مالك.

(2) أخرجه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى.

(3) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة.

(4) رواه الترمذى عن ابن مسعود.

(5) أخرجه البخارى عن أنس.

(6) أخرجه الترمذى عن عائشة.

(7) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة.

(8)أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة.

وقال ﷺ (إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها استمتعت وبها عوج. وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها)[1]. وقالت عائشة رضى الله عنها: (كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ، وكان لى صواحب يلعبن معى، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقنعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معى)، وقالت رضى الله عنها: (والله لقد رأيت النبى ﷺ يقوم على باب حجرتى والحبشة يلعبون بالحراب فى المسجد ورسول الله ﷺ يسترنى بردائه لأنظر إلى لعبهم بين أذنه وعاتقه، ثم يقوم من أجلى حتى أكون أنا التى أنصرف، فأقدروا أقدروا الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو)[2]. وقالت رضى الله عنها: (قال لى رسول الله ﷺ إنى لأعلم إذا كنت عنى راضية. وإذا كنت علىَّ غضبى، فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين لا ورب مُحَمَّد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم، قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك)[3].

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله ﷺ (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح)[4]. وفى رواية: إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها، وقال رسول الله ﷺ فى خطبة حجة الوداع: (اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يواطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[5]، وقال أنس رضى الله عنه:

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم والنسائى.

(3) رواه البخارى ومسلم وأحمد عن عائشة.

(4) رواه مسلم عن أبى هريرة وأخرجه البخارى وأبو داود والنسائى.

(5) رواه ابن ماج والترمذى.

(آلى رســول الله ﴿ﷺ﴾من نسائه وكانت انفكت رجله فأقام فى مشربة تسعا وعشرين ليلة، ثم نزل فقالوا: يا رسول الله آليت شهرا، فقال: إن الشهر يكون تسعا وعشرين)[1].

وقال جابر: عزلهن شهر أو تسعا وعشرين ثم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْن الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً {28} وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾[2]. فبدأ بعائشة رضى الله عنها وقال: يا عائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك، قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، فقالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوى بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت، قال: لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله تعالى لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثنى معلما ميسرا).

عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت مع رسول الله ﴿ﷺ﴾فى سفرة قالت: (فسابقته فسبقته على رجلى، فلما حملت اللحم سابقته فسبقنى، فقال: هذه بتلك السبقة)[3].

وعنها رضى الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى، وإذا مات صاحبكم فادعوا له)[4]. عن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال

---

(1) أخرجه البخارى والترمذى عن أنس.

(2) سورة الأحزاب الآية 28-29.

(3) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة.

(4) رواه ابن ماجة والحاكم.

رسول الله ﴿ﷺ﴾(المرأة إذا صلت خمسها، وصامت شهرها، وأحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، فلتدخل من أى أبواب الجنة شاءت)[1]. قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[2]. وقال ﴿ﷺ﴾(أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)[3].
عن طلق بن على أنه قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأته وإن كانت على التنور). [4]عن معاذ رضي الله عنه عن النبى ﴿ﷺ﴾أنه قال: (لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا)[5].
عن حكيم بن معاوية القشيرى عن أبيه أنه قال: (قلت: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبح، ولا تهجر إلا فى البيت).

أحكام النكاح:

- الحكم الأول: النكاح سنة لمن استطاع الوطء، والصداق، والنفقة على الزوجة، والقيام بتربية الأولاد، فمن لم يستطع فليس بسنة فى حقه، والسنة الصيام إن خشى على نفسه العنت.
- الحكم الثانى: أن السنة أن يتزوج المرأة لمالها ولحسبها ولنسبها وجمالها ودينها

---

(1) رواه أحمد والطبرانى.
(2) رواه الترمذى عن أبى هريرة.
(3) رواه ابن ماجة والترمذى عن أم سلمة.
(4) رواه الترمذى.
(5) رواه ابن ماجة والترمذى.

وذات الدين أولى، والأولى أن يتزوج الرجل البكر.
- الحكم الثالث: السنة أن الرجل له أن ينظر إلى من يريد زواجها ولها أن تنظر إليه، وأدب الشريعة فى هذا أن الخاطب يطلب من الوالد أو الولى أن يعلم المرأة بهذا. ويجمع بينه وبينها مع الولى أو الوالد ويكون ذلك قبل إعلام الناس، فإن رضى ورضيت أشاع الأمر، وإن أبت المرأة أو الرجل لعيب فالأولى ستر هذا الأمر خشية من إشاعة العيوب عن الرجل أو المرأة، فيكون ذلك مضرا بأحدهما، والنظر لابد أن يكون من المرأة إلى الرجل بعد علمها بقصده، ومن الرجل إلى المرأة كذلك، ومن البدع المضلة استغفال المرأة والنظر إليها . ومن البدع المضلة إكراه الرجل ابنته على زواج من لا تألفه نفسها أو عضلها حتى لا تتزوج من تألفه، لأن الزواج متعة ولذة للعين وللأذن وللسان ولليد وللأنف كما أنه لذة للفرج، فعلى الوالد أو الولى أن يهتم فى المحافظة على عروضه وفى راحة أولاده.
- الحكم الرابع: الخطبة عند عقد النكاح وهى مندوبة، ويلزم أن تكون مشتملة على حمد الله والصلاة على رسول الله ﴿ﷺ﴾والشهادتين ويبدأ بالخطبة الزوج، والأحسن تقليل الخطبة، وإفشاء النكاح بولائم، وضرب الدف، وندب شهادة عدلين عند العقد، ووجب إشهار الدخلة، فإن دخل بلا إشهار فسخ النكاح بطلقة لسبوق العقد، ويفسخه الحاكم جبرا، ويحدان إذا أقرا بالوطء، أو شهد عليهما أربعة إن لم يفشيا النكاح بوليمة، أو ضرب دف، أو دخان، أو كان على العقد أو على الدخول شاهد واحد غير الولى.
ومن آداب الشرع أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يخطب الرجل المعتدة من غيره فى عدتها، ولا يواعدها وتواعده، وحرم صريح الخطبة وجاز التعريض من الخاطب فى عدة المتوفى عنها زوجها.

أركان النكاح أربعة:

الأول: الولى، والثانى: الصداق، والثالث: الزوج والزوجة، والرابع: الصيغة، فالصيغة

لا تقييد فيها بلفظ مخصوص إذا ذكر الصداق، فزوجتك، ووهبت لك، ومنحتك، وملكتك، كل ذلك جائز. ومن الزوج: رضيت أو قبلت، ورأى بعض العلماء أن الشهرة من الأركان، وإن كانت خارجة وجعله بعضهم شرطا، والأولى أن يكون فى المسجد، وأن يكون بالدف والأغانى.

الصداق:

الأولى تيسيره على الناس ولا حد له، قلة، وكثرة، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً﴾[1]. وقال ﷺ (التمس ولو خاتما من حديد).

الوليمة سنة وإجابتها واجبة، وهى من أنواع الشهرة، وأحب إلى أن يعتنى فيها بالفقراء، وأن يتوسط فيها الذى أولمها، وينوى بذلك شكر الله تعالى، وإكرام إخوانه، وإحياء السنة لا سمعة.

العدل بين الزوجات:

ومن السنة أن يسوى بينهن فى الملبس والمسكن والمشرب وفى الليلات، ومما يملكه كبشاشة الوجه وحسن الألفاظ واستحسان عملها، وليس عليه العدل فيما لا يملك من محبة القلب، والوطء، وللبكر سبعة أيام، وللثيب ثلاث.

عشرة النساء:

المرأة ضعيفة لا يكرمها إلا كريم ولا يهينها إلا لئيم، وقد خلقت من ضلع أعوج، وأنها إن كره الإنسان منها شيئا أحب منها أشياء، وقد فطر الرجل على طلبها والميل إليها، وأجمل خصلة فيها الحياء، والتمنع من كمالها، والدلال من جمالها،

---

(1) سورة النساء الآية 20.

فعلى الرجل أن يحسن معاشرتها، كما أن المرأة إذا أغضبت زوجها غضب الله عليها وغضبت ملائكته، والفضيلة والمروءة والخير إنما تظهر فى معاشرة المرأة، والدين الإسلامى جعل الرجال قوامين على النساء، فالرجل يصبر على المرأة لأنه يمكنه أن يفارقها، وليس للرجل أن يسئ إلى المرأة لأنها لا يمكنها أن تفارقه، فبقدر ما جعل الله للرجل على المرأة من الحقوق والسيادة بقدر ما أمره بالرحمة والعاطفة، وعلى الرجل إذا كانت المرأة لا تقيم حدود الله أن يطلقها أو يعلمها فإن أقبلت فبها وإلا فارقها، ومن فهم معانى كلام رسول الله ﴿ﷺ﴾السابق يعلم الحقوق الواجبة عليه وعلى المرأة لله ولرسوله وللزوجين.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[1].وقال تعالى: ﴿أَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[3].

الخلع:

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبى ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فقالت: (يا رسول الله إن ثابت بن قيس ما أعتب عليه فى خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر فى الإسلام، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾أتردين عليه حديقته، قالت: نعم، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾إقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[4].

الخلع هو طلاق بعوض، والطلاق إزالة عصمة الزوجة بصريح لفظ، أو كناية

---

(1) سورة البقرة الآية 237.

(2) سورة الطلاق الآية 2.

(3) سورة البقرة الآية 229.

(4) أخرجه البخارى متفق عليه.

ظاهرة، أو بلفظ ما. مع النية، والخلع جائز بطلب الزوجة بعوض أمام الحاكم وبغير الحاكم، وجاز بعوض من غير الزوجة إن كان الذى يدفع العوض رشيدا ويلزمه العوض، وإن كان فى حكم التبرع لأنه عوض عن عصمة لا عن مال. فغير الرشيد لا يلزمه دفع ولا يرد الزوج وهذه الطلقة بائنة.

الطلاق:

تقدم تعريفه فى الخلع (عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأة له وهى حائض، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ فيه رسول الله ﷺ، ثم قال: ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء). [1]وفى رواية: (مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا)[2].عن ثوبان أنه قال: (قال رسول الله ﷺ أيما امرأة سألت زوجها طلاقا فى غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[3]. عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال: أبغض الحلال إلى الله الطلاق)[4]، وعن على عن النبى ﷺ أنه قال: (لا طلاق قبل نكاح، ولا عتاق إلا بعد ملك، ولا وصال فى صيام، ولا يتم بعد احتلام، ولا رضاع بعد فطام، ولا صمت يوم إلى الليل)[5]. عن عمرو بن شعيب رضى الله عنه عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله ﷺ (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا

---

(1) رواه مسلم.

(2) رواه مسلم.

(3) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

(4) رواه أبو داود عن ابن عمر.

(5) رواه ابن ماجة عن على.

عتق فيما لا يملك، ولا طلاق فيما لا يملك، ولا بيع فيما لا يملك)[1].

عن ركانة بن عبد الله أنه طلق امرأته سهيمة البتة ثم أتى النبى ﴿ﷺ﴾فقال: (إنى طلقت امرأتى البتة ووالله ما أردت إلا واحدة، فقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾والله ما أردت إلا واحدة؟ فقال ركانة: والله ما أردت إلا واحدة، فردها إليه رسول الله ﴿ﷺ﴾)[2]، فطلقها الثانية فى زمان عمر، والثالثة فى زمان عثمان. وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﴿ﷺ﴾أنه قال: (ثلاث جدهن جد وهزلهن جد، الطلاق والنكاح والرجعة)[3]. وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾يقول: (لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق)[4] قيل: معنى الإغلاق الإكراه. عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(كل الطلاق جائز إلا طلاق المعتوه والمغلوب على عقله)[5]. عن على عليه السلام أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يبلغ، وعن المعتوه حتى يعقل)[6].

الطلاق إما سنى أو بدعى:

فالسنى ما استوفى الشروط الآتية، والبدعى ما خالفها. والشروط: أن يطلقها طلقة واحدة فى طهر لم يطأها فيه وأن لا يردفها بأخرى فى العدة.

---

(1) رواه الترمذى.

(2) رواه الترمذى.

(3) رواه الترمذى عن أبى هريرة.

(4) رواه أحمد وأبو داود عن عائشة.

(5) أخرجه الترمذى عن أبى هريرة.

(6) رواه الترمذى عن سيدنا الحسين عن سيدنا على عليهما السلام.

فالأول: أن تكون واحدة، الثانى: أن تكون فى طهر، الثالث: أن لا يكون وطئها فيه، الرابع: أن لا يردف الطلقة الرجعية بأخرى فى العدة.

أركان الطلاق أربعة:

- الركن الأول: الزوج أو من ينوب عنه من وصى أو حاكم أو وكيل.
- الركن الثانى: قصد النطق باللفظ الصريح أو بالكناية الظاهرة، فلا يقع الطلاق بسبق اللسان بالنطق به، أو بأن ينطق به بدون قصد النطق، فلو قصد النطق باللفظ الصريح وقع الطلاق ولو لم يقصد زوال عصمة المرأة، ولابد فى الكناية الخفية من قصد زوال عصمتها لوقوع الطلاق.
- الركن الثالث: العصمة المملوكة التى يزيلها الطلاق.
- الركن الرابع: اللفظ الصريح فلا يقع بنية طلاقها، ولا بفعل، ويقع بالكناية الصريحة.

شروط الطلاق:

يصح طلاق المسلم المكلف، غير مجنون، ولا مغمى عليه، ولا سكران بحلال، فمن سكر بحرام وطلقها وقع عليه، وأرى أن السكران بحرام إذا صار لا يميز كان كالمجنون، ولا يقع الطلاق من أعجمى حفظ لفظه ونطق به بدون فهم معناه، ولا ممن يقوله هذيانا لمرض، ولا ممن يقوله لسبق لسان، أراد أن يقول لزوجته: يا صادقة، فقال: يا طالقة.
ولا يقع الطلاق على مكره على إيقاعه، والإكراه إما بخوف مؤلم كالقتل والضرب والسجن والصفع لعزيز قومه إن تيقن ذلك، بل وإن ظنه، أو قتل ولده، أو أخذ ماله لأجنبى، وأمر بالحلف بالطلاق ندبا ليسلم الأجنبى، ووقع الطلاق عليه، وإما

إكراه شرعى وفيه الخلاف، واستحسن أنه لا يقع به الطلاق لعموم الحديث: (لا طلاق فى إغلاق) وهذا القسم هو الإكراه على الفعل.

أمثلة الطلاق لإكراه شرعى:

رجل حلف بالطلاق ألا تخرج زوجته فأخرجها القاضى لتحلف. مثال آخر: رجل حلف بالطلاق ألا يدخل دارا فأكره على دخولها فى صيغة البر، وقيل فى صيغة الحنث يقع عليه الطلاق، مثاله: قال: هى طالق إن لم أدخل الدار فأكره على عدم الدخول فإنه لم يحنث حتى يتمكن من دخولها، على أن المكره لو قصد التورية بقوله: هى طالق يريد من القيد، أو من الطلق للولادة، لا يلزمه، ومثل الطلاق فى عدم اللزوم العتق، وإكراه الرجل على أن يزوج ابنته، وإكراهه أن يقر بدين، والإكراه على اليمين بالله، أو بالعتق، أو بصوم عام، أو بالمشى إلى مكة، أو أن يفعل كذا وإلا قتله، ودخل فيه سائر العقود المكره عليها.

أما الإكراه على الكفر بالله فلا يجوز الإتيان بما يقتضى الكفر من قول وفعل، وسبه ﷺ، وقذف الصحابة وقذف المسلم، فإنما يجوز الإتيان به إذا تيقن القتل لا غيره من قطع يد أو رجل، والصبر على القتل لمن أكره على الكفر دليل على كمال الإيمان، والرضا بما عند الله تعالى، ولو أكره أن يقتل غيره أو يقتل، وجب عليه أن يتباعد عن قتل المسلم ولو رقيقا، ويرضى بقتل نفسه ولا يرضى بقطع أنملة غيره، وإن أكره أن يزنى بامرأة فإن كانت مكرهة أو متزوجة أو مملوكة لسيد فلا يزنى ولو خوف بالقتل.

ومن أكره أن يحلف بالله أو بالطلاق أو بالعتق أو المشى إلى مكة على عمل طاعة مطلقا نفيا كترك شرب الخمر، وغش المسلمين، أو فعلا كالصدقة بكذا، أو ليصلين فى أول الوقت، فعده بعض العلماء إكراها، ولا شئ عليه فى المخالفة، ورآه بعضهم أنه ليس بإكراه ولزمه اليمين، ومن أكره على يمين معلقة على معصية

أو بمباح: مثاله أن يكرهه آخر أن يحلف ليشربن الخمر فى المعصية، أو ليدخلن الدار فى المباح لم تلزمه اليمين اتفاقا.

محل الطلاق:

ومحل الطلاق العصمة المملوكة قبل نفوذ الطلاق، وإن علق ذلك كقوله لأجنبية هى طالق، أو إن دخلت الدار فأنت طالق، ونوى بعد نكاحها لزمه الطلاق، وعليه نصف الصداق قبل الدخول وجميعه بعده، ومن حلف لا يفعل شيئا أو لا تفعل زوجته شيئا وفعله أو فعلته الزوجة حال بينونتها منه، ولو بطلقة واحدة كخلع، أو بانقضاء عدة الرجعى، لا يلزمه الطلاق لعدم ولايته عليه، وفقد المحل، كما لو أقسم بالطلاق الثلاث ليدفعن دينه للغريم يوم كذا وهو معسر، وخالع زوجته قبل مجىء اليوم ثم عقد عليها بصداق فلا شئ عليه من الثلاث ويبقى له طلقتان، ومن قال لزوجته إن فعلت كذا فأنت طالق وأطلق فلم يعين زمنا ولا عددا فلا شئ عليه ولا عليها إن فعلته فى بينونتها، ويلزمه الطلاق إن فعلته بعد أن يتزوجها. ومسائل الطلاق لا يسعها هذا المختصر.

الرجعة:

هى عود الزوجة المطلقة للعصمة من غير تجديد عقد. ومباحثها أربعة: الرجل المطلق، والمرأة المطلقة، وسبب الرجعة، وأحكام المرأة المرتجعة قبل إرجاعها.
الأمر الأول: يصح ارتجاع المطلقة ممن فيه أهلية، فلا تصح من مجنون وسكران.
والأمر الثانى: المرأة المطلقة طلاقا غير بائن بشرط أن تكون فى عدة طلاق من نكاح صحيح.
الأمر الثالث: القول مع النية كراجعت زوجتى لعصمتى، وصحت بنية فقط قبل

مضى العدة وله معاشرتها بعد العدة بدون عقد، إن لم يتمكن من معاشرتها قبل مضى العدة، ولا تصح الرجعة بعمل ولو كان وطأ بدون نية، ومن أحب المزيد فعليه بالمطولات.

الطلاق الثلاث:

من كان يرجو الله واليوم الآخر فليحتط للفروج، ولا يتتبع الرخص طمعا فى الدنيا، فإن ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾[1].

عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (جاءت امرأة رفاعة القرظى إلى رسول الله ﷺ فقالت: إنى كنت عند رفاعة فطلقنى فبت طلاقى، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير وما معه مثل هدبة الثوب، فقال عليه الصلاة والسلام: أتريدين أن ترجعى إلى رفاعة، لا. حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك)[2]. عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: (لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له)[3]، وقال سليمان بن يسار: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى ﷺ كلهم يقول بوقف المحلل.

وصية للزوج:

إن الله تعالى لم يشرع الطلاق ليكون قسما للإثبات والنفى والوفاء والإعطاء، ولا ليكون سوطا تضرب المرأة به عند تأديبها أو عتابها، وإنما شرعه وسعة لعباده، ورحمة بهم، وقصدا لصفاء حياتهم وهناء عيشتهم، فإذا تزوج الرجل المرأة ولم تقم

---

(1) سورة النحل الآية 96.

(2) رواه البخارى ومسلم.

(3) أخرجه الترمذى.

حدود الله معه صبر مرتجيا تقويمها، ثم علمها، وهجرها، ثم ضربها، ثم طلقها واحدة لتتهذب بمفارقته ويتهذب هو بمفارقتها ويراجعها، فإن زكت نفسها أو تحسنت فبها وإلا طلقها الثانية، ويراجعها، فيكون حصل له ولها تهذيب، فإن أقامت حدود الله فحسن، وإلا فإما يصبر، أو يطلقها الثالثة، فإذا تزوجت غيره ثم طلقها بعد المباشرة، فتكون علمت أخلاق الرجال وحنت للأول، ويكون الأول رجع على نفسه باللوم وندم، فإذا طلقها الزوج الثانى فله أن يراجعها. ومن جعل الطلاق قسما أو سوطا أو كلمة يلوكها فى لسانه فهو بدعى وضال، وإنى لأعجب ممن يعظم المرأة فيحلف بالطلاق ويترك اليمين بالله تعالى، وأى غفلة أكبر من هذا، أسأل الله تعالى أن يعيذنى وأهلى وإخوانى من مخالفة سنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

وفى هذا القدر من أبواب المعاملة التى لابد منها للسالك فى معيشته كفاية، أما ما زاد عن ذلك من غوامض المسائل ومن أبواب الوصايا والأعطية والكفالة والحوالة والفرائض والقضاء والحدود والتعازير والديات والعتاقة والولاء، وغير ذلك من الرضاع والأشربة والمقاسمة والقسامة والمكاتب والمدبر، فليس ذلك من الضرورى للسالك الفقير لأنه ليس قاضيا ولا أميرا ولا ذا مال، فإن احتاج إلى حكم من تلك الأحكام تعلمه، وإن هذا المختصر غنية للسالك المريد الدار الآخرة، المقبل على الله تعالى، وقبل أن ننتقل إلى التكلم على علوم الدين واليقين ومقاماتها والأخلاق، الطاهرة التى هى أحوال عنها، نذكر إجمالا ما به يكون المسلم مسلما.

الشروط التى بها يكون المسلم مسلما:

لا يكون معتقدا لبدعة، ولا مقيما على كبيرة، ولا آكلا للحرام، ولا طاعنا على صالح السلف، ويكون كاف اللسان واليد عن أعراض المسلمين وأموالهم، ويكون ناصحا لجميع المسلمين، مشفقا عليهم، يسره ما يسرهم، ويسوؤه ما يسوؤهم موقرا

لأئمتهم داعيا لجملتهم، ويكون مخلصا أعماله كلها لله تعالى. وروى عن النبى ﴿ﷺ﴾(والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه)[1]. وروى عنه ﴿ﷺ﴾(ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)[2]. ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من أولياء الله عز وجل، وهذا أول ولاية وأول نظرة من الله تعالى حامية عاصمة راحمة.

ذكر حسن إسلام المرء وعلامات محبة الله تعالى له:

يكون محبا للخير وأهله، مجانبا للشر وأهله، مسارعا إلى ما ندب إليه، أو أمر به إذا قدر عليه، حزينا على ما فات من ذلك إذا أعجزه، تاركا لما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، بريئا من التكلف وهو اجتناب ما لم يؤمر به ولم يندب إليه من ترك وفعل، مصليا للخمس فى جماعة إذا أمن الفتنة وسلم له دينه، مجتنبا للغيبة ولذكر الناس، يحب للكافة ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، مسارعا إلى الخيرات، مسابقا إلى أعمال البر والقربات، طويل الصمت، لين الجانب ذليلا للمؤمنين، عزيزا على المتكبرين، لا يمارى فى الباطل، ولا يداهن فى الدين، ولا يبغض على شئ من الحق وإن كان عليه أو من أبعد الناس منه، ولا يحب على شئ من الباطل، وإن كان له أو من أقرب الناس إليه، كارها للمدح ممن يحبه، قابلا للنصح ممن يبغضه، يكون المدح والذم يجريان من قلبه مجرى واحدا، صدوقا فيما يضره، غير متصنع بما يستعجل نفعه، سريرته أفضل من علانيته، محتملا لأذى الخلق، صابرا على بلائهم، منفردا بحاله عنهم، تاركا لكثير من مجالسهم واجتماعهم

---

(1) رواه أحمد والعسكرى والحاكم عن ابن مسعود.

(2) رواه ابن حبان فى صحيحه.

خشية دخول الشبهات عليه، وخوفا من تغير قلبه له، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال فى زماننا هذا فهو من المريدين للآخرة، وهذه ولاية ثانية ونظرة ثانية، ويقال إن أبدال كل قرن على قدر زمانهم، وفى كل قرن سابقون ومقربون.

تم بحمد الله الجزء الأول من كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول)

ويليه إن شاء الله الجزء الثانى

وهو الأخلاق

الجزء الثاني

الباب الرابع
علم التصوف

تعريف التصوف:

هذه الكلمة اصطلح عليها أهل المجاهدة، والذي استحسنه فيها أنها مأخوذة من الصفاء، فالصوفي من جاهد نفسه في ذات الله بتوفيق الله حتى صفا قلبه ووقته وحاله، فصافاه الله تعالى، فسمي صوفيا، وهو فعل ماض مبنى للمجهول بشرى له، وهي كلمة ينشرح صدر الموصوف بها لما دلت عليه، وهو مذهب قديم، ومنهج سابق، وفق الله له المقربين، وقد تجمل بهذا المذهب كثيرون من الصحابة في عصر رسول الله﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وهم أهل الصفة من أئمة الصحابة كأبي ذر رضي الله عنه، وصهيب، وسلمان، وسعيد بن جزيمة، والعبادلة، وبلال، وأبو رافع مولى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ورضي الله عنهم أجمعين.

ولولا أن اللفظ مضبوط بالرواية لقلت: أنه صُفَّىْ نسبة إلى أهل الصُّفَّةِ الذين أقبلوا بكليتهم على الله ورسوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾مجاهدين أنفسهم في ذات الله.

وصف رجال التصوف:

وهم في كل عصر وزمان أئمة الهدى، وسرج الدلالة، ومصابيح الظلمة، وهم أهل الله الذين فرغت قلوبهم مما سواه، وصفت لطائف قلوبهم، فأشرفت على

الملكوت الأعلى، وظفروا بأسرار العلوم، وحقائق الفهوم، وهم المحدثون الذين أخبر رسول الله ﴿ﷺ﴾عنهم، الذين تتلقى قلوبهم عن ربهم، وهم الذين أمرهم رسول الله بأن يستفتوا قلوبهم لصفائها وإن أفتاهم المفتون، ولكنهم قليل، وقد دخل فيهم الدخيل من المتمصوفة، ولكن ماء ولا كصدى، ومرعى ولا كالسعدان، فالمخلصون تسبق أنوارهم أقوالهم، وتهجم أحوالهم على القلوب فتجذبها لعلام الغيوب.

موضوع علم التصوف وأهله (1):

حد علم الباطن وحقيقته المصطلح عليه بأنه هو علم التصوف: فهو علم يعرف منه أحوال النفس في الخير والشر، وكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، وتطهرها من الصفات المذمومة، والرذائل والنجاسات المعنوية التي ورد الشرع باجتنابها، والاتصاف بالصفات المحمودة، وهي الصفات التي طلب الشرع تحصيلها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى والفرار إليه.

فائدته وثمرته:

هى النجاة في الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل سعادة الأبد.

موضوعه:

الباطن أعني القلب من ناحية ما يعرض له من اللمحات، والخواطر، والهواجس، والوساوس، والعلوم، والنيات، والقصود، والعزائم ، والاعتقادات، وحديث النفس، وغير ذلك.

---

(1) راجع كتاب (حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب) لعماد الدين الأموي بهامش كتاب قوت القلوب لأبي طالب المكي الجزء الأول ص 260 وما بعدها، ط. 1985 بمصر.

مسائله:

الأحكام المتعلقة بهذه الخواطر، والهواجس، والنيات، والقصود، والعزائم ، وسائر أحوال النفس.

جلالة هذا العلم:

جلالة هذا العلم وشرفه وعظم قدره وبيان أن أهله هم الصفوة من بني آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

اعلم: أن علم الباطن هو علم طريق الآخرة، وهو العلم الذي درج عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهو العلم الذي لم يبعث الله الأنبياء إلا لأجله، وقد سماه الله تعالى في كتابه فقهاً وعلماً وضياءً ونوراً وهدى ورشداً، وهو مستخرج من الكتاب والسنة، ومدلول عليه منهما نصاً وتصريحاً وتلويحاً وكتابة وإشارة وغير ذلك من أصناف الدلالة.

قال الغزالي: علم الباطن هو علم يقين المقربين، وثمرته الفوز برضا الله تعالى ونيل سعادة الأبد، وتزكية النفس وتطهيرها، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث يكشف بذلك النور أموراً جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عنه بصيرة غيره من المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى، وبصفات الله التامات وبأفعاله وحكمته في خلق الدنيا والآخرة، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي، ومعنى الوحي، ومعنى لفظ الملائكة، والشياطين، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان، وكيفية ظهور الملك للأنبياء، وكيفية الوحي والمعرفة بملكوت السماوات والأرض، وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين، ومعرفة الفرق بين لمة الملك، ولمة الشيطان (اللمة: الأتباع والرفقاء)، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط والميزان والحساب، ومعرفة معاني

المتشابهات، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(1). ومعنى لقاء الله تعالى والنظر إليه، ومعنى القرب منه والنزول في جواره، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملك الأعلى، ومرافقة الملائكة والنبيين، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدري في جو السماء، كما ورد ذلك في صحيح البخاري، إلى غير ذلك مما يكثر شرحه ويطول تفصيله.

وهذه هي العلوم التي عناها نبي الرحمة ﴿ﷺ﴾الذي لا ينطق عن الهوى بقوله: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى)(2).

إمتزاج علم الفقه بعلم التصوف:

وقال الغزالي أيضاً في موضع آخر: كان اسم الفقه في الزمن الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة الذي أشار إليه الحق بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(3). وأشار إليه نبيه ﴿ﷺ﴾بقوله:)إن الله أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) [رواه الشيخان عن أبي هريرة]. إلى غير ذلك من دقائق علم القلب، وإنما أرباب العلم الظاهر تصرفوا في هذا اللفظ بالتخصيص والقصر لا بالنقل والتحويل، كما تصرف أهل العرف في لفظ الدابة

---

(1) سورة العنكبوت الآية 64

(2) رواه أبو منصور الديلمى عن أبى هريرة.

(3) سورة السجدة الآية 17.

ويدلك على هذا قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ﴾ (1).

وما به الإنذار والتخويف هو المتعلق بإصلاح القلب واستقامته، والفقه الذي به تزكية النفس وتطهيرها دون تعريفات السلم والبيع والإجارة والطلاق، فإن ذلك لا يحصل به إنذار وتخويف، ولا ينجي النفس من مهلكاتها، ولا يخلصها من ورطاتها.

قال السادة الأئمة أرباب البصائر وأهل اليقين: المعرض عن علم طريق الآخرة وما به النجاة والفوز مع إقباله على العلوم الظاهرة والعمل بها أيضاً يعلم ظاهراً من الحياة الدنيا، وهو عن الآخرة من الغافلين.

وعلماء الآخرة يدورون مع الأعمال الظاهرة بتطهير الباطن ، وقطع مواد الشر والآفات والأمراض بإفساد منابتها، وقلع مغارسها وهي في القلب. قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(ألا إن في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[2].

أهل التصوف هم الصفوة:

أما بيان أن أهل العلم بالله وبطريق الآخرة هم الصفوة من بني آدم بعد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فنقول: إن أرباب هذا العلم، هم الذين ورثوا علوم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، واقتفوا آثارهم، وسلكوا طريقهم فرفضوا الدنيا، وفرغوا عنها، واجتهدوا في جهاد أنفسهم، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا

---

(1) سورة التوبة الآية 172.

(2)أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير.

فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [1]، وصبروا على مرارة الطريق ومشاق السير فكابدوا وحشة الطريق، وصبروا على وعثاء السفر حتى وصلوا إلى مقصودهم، وظفروا بالقرب من معبودهم، فهم الفارون إلى الله عندما سمعوا أمره بالفرار بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[2]، وهؤلاء هم عباد الصحابة وزهادهم من أهل الصفة وغيرهم من التابعين وتابعيهم، فمن الصحابة حارثة وحذيفة وسلمان وبلال وأبو بكر وعثمان وعلي وغيرهم، وهم قريب من ألف عارف، زهاد عباد قائمون لله بالعبودية باذلون له حقوق الربوبية، ومن التابعين: علي بن الحسن زين العابدين وابنه مُحَّد الباقر، وجعفر الصادق وأويس القرني والحسن البصري وغيرهم من كمل الرجال عليهم رضوان الله، ومن أراد أن يطلع على أكثر من ذلك فعليه بالمطولات.

بداية فقهية ونهاية صوفية:

واعلم أن الصوفية دخلوا مع الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمتكلمين في علومهم فسمعوا الحديث، ونظروا في الأحاديث، وقرأوا القرآن، واشتغلوا بتدبره ونظروا في أصول الدين، وعلم الفقه، فالبداية فقهية والنهاية صوفية، ومن لم يبلغ من الصوفية مبلغ الفقهاء وأصحاب الحديث، ولم يحط بما أحاطوا به فإنه يرجع فيما وقع له من المسائل إلى العالمين بأحكام أفعال الجوارح الظاهرة، وهم أصحاب العلوم الظاهرة، والصوفية يلزمون أنفسهم بالأخذ بالأغلظ والأشق، ثم إنهم خصوا مع ذلك بعلوم عالية، وأحوال شريفة، ومقامات رفيعة، فتكلموا في علوم المعاملات، وعيوب

(1) سورة العنكبوت الآية 69

(2) سورة الذاريات الآية 50.

النفس، وآفات القلب، وشريف المقامات مثل اليقظة والتوبة والزهد والخشية والمراقبة واليقين والشرك الخفي والعوارض، والأذكار وتجريد التوحيد ومنازل التفريد، وغير ذلك فهم حماة الدين وأنصاره وأعوانه، وهم ورثة الأنبياء ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾(1).

أول التصوف علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد، والعمل يعين على المطلوب، والموهبة تبلغ غاية الأمل.

طبقات أهل التصوف:

أهله على ثلاث طبقات: طبقة مريد طالب، ومتوسط سالك، ومنتهي واصل، فالمريد صاحب وقت، والمتوسط صاحب حال، والمنتهي صاحب نفس، وعد الأنفاس من أفضل الأشياء عندهم، فالمريد الطالب متعب في طلب المراد، والمتوسط السالك مطالب بآداب المنازل، وهو صاحب تلوين، لأنه يترقى من حال إلى حال، وهو في الزيادة، والمنتهي الواصل محمول قد جاوز المقامات، وهو في محل التمكين لا تؤثر فيه الأهوال، فمقام المريد المجاهدات، والمكابدات، وتحمل المشاق، وتجرع المرارات، ومجانبة الحظوظ، ومقام المتوسط ركوبه الأهوال في طلب المراد، ومراعاة الصدق في الأحوال، واستعمال الأدب في المقامات، ومقام المنتهي الصحو، والتمكين، وإجابة الحق من حيث دعاه، قد استوى في حقه الشدة والرخاء، والمنع والعطاء، والعافية والبلاء، قد فنيت حظوظه، باطنه مع الحق وظاهره مع الخلق، وكل ذلك منقول معلوم مشهور من أحوال النبي ﴿صلى الله

---

(1)سورة الزمر الآية 18.

عليه وآله وسلم﴾، وحركاته وسكناته في ابتداء أمره، ومن أحوال الصحابة والعلماء الحكماء أرباب البصائر واليقين. مثل حارثة وبلال وصهيب وسلمان وغيرهم من أصحاب الصفة، وأصحاب البيعة، والخلفاء، والمهاجرين، والأنصار.

كان النبي ﴿ﷺ﴾قبل نزول الوحي عليه وبعده مختلياً في غار حراء، ثم صار مع الخلق ولا فرق عنده بين الخلوة والجلوة، كذا أصحاب الصفة، صار جماعة منهم بعد التمكين أمراء، لأنهم تمكنوا من الإيمان بالله والمعرفة والإخلاص له، فلم تؤثر المخالطة بالخلق فيهم، ولا في أحوالهم، وهذه أحوال المشايخ من بعدهم.

ظاهر التصوف وباطنه:

والتصوف له ظاهر وباطن، فظاهره: استعمال الأدب مع الخلق بالأخلاق الحسنة معهم، وباطنه: منازلة الأحوال والمقامات مع الحق، فالظاهر علامة الباطن، والباطن حقيقة الظاهر، ألا ترى لقوله ﴿ﷺ﴾لما نظر إلى المصلي وهو يعبث فقال: (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وإلى هنا نكتفي بما فصلناه من تعريف علم التصوف، وشرح فضل أهله، وإن كان محتاجاً إلى بسط وإطناب، ولكني أوجزت لأن المؤمن يكفيه قليل الحكمة.

---

(1) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر عن أبي هريرة.

(2) سورة الحجرات الآية 3.

الفصل الأول

الفقر إلى الله تعالى غنى به سبحانه [1]

حقيقة الفقر وفضائله وأوصاف الفقراء عامة وخاصة

قال الله الكبير المتعال: ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[3]. فقدم وصف أوليائه بالفقر على مدحهم بالهجرة والحصر، والله تعالى لا يصف من يحب إلا بما يحب، فلولا أن الفقر أحب الأوصاف إليه ما مدح به أحباءه، وشرفهم به، وأمر رسول الله ﴿ﷺ﴾بالفقر وأخبر بفضله في غير حديث منها حديث إسماعيل بن عباس عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال لأصحابه: (أي الناس خير؟ فقالوا: موسر من المال يعطي حق الله عز وجل في نفسه وماله، فقال: نعم الرجل هذا، ولا بئس به، قالوا: من خير الناس يا رسول الله؟ قال: فقير يعطي جهده)(4). ومنها حديث بلال أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال له: (إلق الله عز وجل فقيراً ولا تلقاه غنياً)[5]. وقال النبي ﴿ﷺ﴾(لا أفضل من الفقير إذا كان

---

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 2 ص 192 وما بعدها، ط. 1985 بمصر (بتصرف).

(2) سورة الحشر الآية 8.

(3) سورة البقرة الآية 273.

(4) رواه أبو منصور الديلمي.

(5) أخرجه الحاكم عن أبي سعيد.

راضياً)، وقال ﷺ(إن الله تبارك وتعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال)[1]. وقال ﷺ(يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام)[2]. وقال ﷺ(اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين)[3]. فهذا منه ﷺتفضيلاً للفقراء، وإكراماً لهم وتنبيهاً وحثاً على فضل الفقر. وروينا في خبر سيدنا إسماعيل عليه السلام أنه قال: (يارب أين أطلبك؟ فقال عز وجل: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال: ومن هم؟. فقال تعالى: الفقراء الصادقون).

من فرائض الفقر:

وكان بعض الفقراء يقول: هذا العلم- يعني علم المعرفة- عوضه الله سبحانه الفقراء بدلاً من الدنيا لا يظهره إلا هم، ولا يوجد إلا عندهم، روحهم الله عز وجل به في الدنيا، وجعله عوضاً لهم مما تركوه له اليوم فإذا كان غداً فهم الذين ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[4]. وهو المزيد.

ومن فرائض الفقر الصبر عليه بترك المسألة قبل ورود الفاقة، وقطع الهمّ عن التشوف إلى الخلق، وأن لا يتناول عند الحاجة ما أحظره عليه العلم، ولا يجاوز حداً من حدود الأحكام، وإن سأل عند حاجة لم يستكثر، فإن أُعطى فوق كفايته فاقتناه ليكف عن المسألة فلا بأس به، ويتوخى في مسألته المتقين، ومن يعلم أنه يتحرى في مكسبه، فإن مسألته عمل له يلزمه التورع فيها كما يلزمه الورع

(1) رواه ابن ماجة عن عمران بن حصين

(2) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة..

(3)رواه الترمذي وابن ماجة.

(4) سورة الزمر الآية 17.

في مكسبه، ولا يسأل من يعلم أنه لا يبالي من أين يأكل، ومن لا يرتدع عن الحرام في مكسبه. وقد سأل ثلاثة من الأنبياء عند فاقتهم: سليمان ﷺ لما سلب ملكه أربعين يوماً. وموسى والخضر عليهما السلام لما استطعما أهل القرية، وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(للسائل حق وإن جاء على فرس)[1]. فلو كانت المسألة إثماً وعدواناً لم يحث على الإعطاء فيكون معاوناً على الإثم والاعتداء، ولكن ذلك من البر والتقوى، لأنه سبب منه ودال عليه فعاون بالأمر به لحرمة الإسلام، ولأن المواساة من المعروف والإحسان.

وسمع عمر ﷺ سائلاً يسأل بعد المغرب، فقال: يا بني عشِّ الرجل فعشاه، ثم سمعه ثانية يسأل فقال: ألم أقل لك عشِّ الرجل؟ فقال: قد عشيته، فنظر عمر فإذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزاً، فقال: لست سائلاً، ولكنك تاجر. ثم نثر المخلاه بين يدي إبل الصدقة، وضربه بالدرة وقال: لست سائلا أنت تاجر.

وقال علي كرم الله وجهه: إن لله عز وجل في خلقه مثوبات فقر وعقوبات فقر، فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن خلقه، ويطيع به ربه، ولا يشكو حاله، ويشكر الله تعالى على فقره. ومن علامات الفقر إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه، ويعصى به ربه، ويكثر الشكاية، ويتسخط القضاء. وهذا النوع هو الذي استعاذ منه النبي ﴿ﷺ﴾وهو فقر النفس، لأن الفقر من المال إنما هو الافتقار إلى الخلق، والفقر إلى الأشياء مع عدم صدق الحال، وسئل سفيان الثوري عن أفضل الأعمال فقال: التجمل عند المحنة، وعلى الفقير أن لا يزكي غنياً لأجل عطائه، ولا يذمه ولا يمقته لأجل منعه، ولا يعظم أهل الدنيا ولا يكرمهم لأجل دنياهم. وعن

---

(1)رواه مالك في الموطأ من حديث الحسين بن علي.

علي عليه السلام قال: ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله عز وجل. ومن فرائض الفقر أن لا يسكت الفقير عن حق، ولا يتكلم بهوى لأجل دوام العطاء من أحد، فإن ذلك وليجة في الدين ومداهنة للمؤمنين.

من فضائل الفقير:

ومن فضائل الفقير أن لا يدخر لأكثر من أربعين يوماً، وقد جعل غنى الفقير في أربعين درهماً حيث قال﴿ﷺ﴾(من سأل وله خمسون درهماً أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً)[1]. وهذا لعموم الفقراء، أما خصوصهم فإن غناهم غداء يوم أو عشاء ليلة لقصر أملهم، كما قال﴿ﷺ﴾(استغنوا بغنى الله عز وجل، قيل: وما غنى الله تبارك وتعالى؟ قال: غداء يوم أو عشاء ليلة)[2].

ومن فضل الفقير أن لا يهتم برزق غد كما أن الله تبارك وتعالى لا يطالبه بعمل غد قبل مجيئه، ولأن الرزق معلوم مقسوم، والوكيل حفيظ قيوم، وأن يكون راضياً بفقره شاكراً عليه، ويخاف أن يسلب فقره أشد من خوف الغني أن يسلب غناه لشدة اغتباطه به.

وقال﴿ﷺ﴾(يا معشر الفقراء أعطوا الله عز وجل الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا)[3]. وقال﴿ﷺ﴾(أحب العباد إلى الله عز وجل الفقير القانع برزقه الراضي عن الله عز وجل)[4].

---

(1) أخرجه أبو داود والنسائي.

(2) ذكره ابن حبان.

(3) رواه أبو منصور الديلمي من حديث أبي هريرة.

(4) ورد في الإحياء.

وفى الحديث القدسى: (إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل له مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغني مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته)[1]. وقال ﴿ﷺ﴾فى دعائه الذي تلقاه من ربه وأمره به: (أسألك الطيبات وفعل الخيرات وحب المساكين)[2].

فضل الفقر على الغنى:

ومما يعتبر به فضل الفقر على الغنى أن أفضل الخلق رسول الله ﴿ﷺ﴾أحب الفقراء، فمن شاركه وقارنه بمعنى وصفه فهو الأفضل، لأن الأمثل فالأمثل وهم الفقراء وصفهم الله عز وجل بوصفه فقال تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[3]. وكون الرسول ﴿ﷺ﴾هو الأفضل والأتم دل على فضل حالهم على غيرهم، وقد قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاء﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى {6} أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[5]. فوصف الأغنياء بالطغيان، وأوقع عليهم الحجة. وقال في وصف الفقراء: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ﴾[6].

---

(1) أخرجه أبو منصور الديلمي.

(2) رواه الترمذي عن ابن عباس.

(3) سورة التوبة الآية 92.

(4) سورة التوبة الآية 93.

(5) سورة العلق: 6-7.

(6) سورة البقرة الآية 273.

منازل الفقراء:

ثم إن الفقراء على منازل ثلاث:

الطبقة الأولى: فقراء الأغنياء، وهم السؤال عند الفاقات، الكافون نفوسهم مع الكفاية، القانعون بالكفاف، وهم طهرة الأغنياء ومزيدهم من الله تعالى، وهم الذين جعل الله لهم في أموال الأغنياء سهماً، لأن منهم السائل والمحروم ومنهم القانع والمعتر.

والطبقة الثانية: فقراء الفقراء، وهم المتحققون بالفقر المختارون له المؤثرون إياه على الغنى لعظم معرفتهم بعظيم فضيلة أهل التعفف والصيانة: لا يتبذلون للسؤال ولا يعرضون في المقال، راضون بالميسور من مولاهم، تعرفهم إذا رأيتهم بسيماهم، يحسبهم الجاهل أغنياء، لترك المسألة والشكوى، ومنهم المحروم حرم السعي للدنيا. ومنهم القانع قنع بما يصل إليه من غير امتهان وتبذل فيه. ومنهم المعتر رضي عن الله تعالى بما يعتريه.

وأما الطبقة الثالثة: فهم أغنياء الفقراء، وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعطاء، ويأخذون ويخرجون ولا يستكثرون ولا يدخرون، إن منعوا شكروا المانع، لأنه هو المعطي فصار منعه عطاء، وإن ضيق عليهم حمدوا الواسع، لأنه هو المحمود فصار ضيقه رخاء، وإن أعطوا بذلوا وآثروا، فهم الزاهدون في الدنيا لأنهم موقنون، فكفاهم اليقين غنى.

وعن الحسن في قوله عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾[1]. قال الفقراء والأغنياء، فجعل الفقراء أحياء بمولاهم، وجعل الأغنياء موتى بدنياهم. وقال الثوري رحمه الله: إذا رأيت الفقير يداخل الأغنياء فاعلم أنه مراء، وإذا خالط السلطان فاعلم أنه لص. وقال بعض العارفين: إذا مال الفقير إلى بعض الأغنياء انحلت عروته، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته، فإذا سكن إليهم ضل. نعوذ بالله من الجهل والهوى ونسأله التوفيق للعلم والتقوى.

(1) سورة فاطر الآية 21.

الفصل الثانى
العلم ووصف العلماء وذم البدع

إعلم أن العلم إذا أطلقه المتقون فإن المراد به العلم بالله، وبأيام الله وبأحكام الله دون غيره من العلوم، لأنه هو العلم النافع الموصل إلى المقصود الأعظم، وما سواه من العلوم آلة لنوال السيادة في الدنيا، أو السمعة والشهرة، أو وسيلة لمقصد. وقبل أن نتكلم على وصف العلم ونبين فضائله نذكر الأوصاف التي يكون بها العالم عالماً بالله حقاً.

الأوصاف اللازمة للعالم بالله[1]:

لا بد للعالم من خمسة أمور هي علامة علماء الآخرة: الخشية. والخشوع. والتواضع. وحسن الخلق. والزهد. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾[2]. وقال تعالى: ﴿خَاشِعِينَ لِلّهِ﴾[3]. ولا بد من التواضع وحسن الخلق قال الله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ {88} وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[5]. والزهد في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 1 ص 146 وما بعدها (بتصرف).

(2) سورة فاطر الآية 18.

(3) سورة آل عمران الآية 199.

(4) سورة الحجر الآية 88-89.

(5) سورة آل عمران الآية159.

أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾[1]. فمن وجد فيه هذه الخلال فهو من العلماء بالله عز وجل، ولا يستبين العالم إلا عند المشكلات في الدين، ويحتاج إلى العارف عند شبهات حاكت الصدور، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لا تزالون بخير ما إذا حاك في صدر أحدكم شيء، وجد من يخبره به ويشفيه منه، وأيم الله أوشك أن لا تجدوا ذلك. وكما قال له رسول الله ﴿ﷺ﴾(أى الناس أعلم؟ فقال الله ورسوله أعلم، فقال: أعلمهم بالحق إذا اشتبهت الأمور ووقعت المشكلات، وإن كان يزحف على إسته)، فكذلك إذا اختلف الناس- وإن كان في عمله تقصير- وكما قال ﴿ﷺ﴾(إن الله تعالى يحب المبصر الناقد عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات، ويحب السخاء ولو على تمرات، ويحب الشجاعة ولو على قتل الحيات)[2].

ندرة ذلك في هذا الزمان:

وقد وقعنا في زماننا هذا في مثل ما خافه ابن مسعود، لأن مشكلة لو وردت في معاني التوحيد، وشبهة لو اختلجت في صدر مؤمن من معاني صفات الموحد، وأردت كشف ذلك على حقيقة الأمر بما يشهده القلب الموفق، ويثلج له الصدر المشروح بالهدى، كان ذلك عزيزاً في وقتك هذا، ولكنت في استكشاف ذلك بين خمسة نفر:

1- مبتدع ضال، يخبرك برأيه عن هواه، فيزيدك حيرة.

(1) سورة القصص الآية 80.

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية عن عمران بن حصين.

2- أو متكلم يفتيك بقصور علمه عن شهادة الموقنين، وبقياس معقوله على ظاهر الدين وهذا شبهة، فكيف تنكشف به شبهة؟

3- أو صوفي شاطح تائه غالط يجاوز بك الكتاب والسنة لا يباليهما، ويخالف بقوله الأئمة المرشدين، فيجيبك بالظن والوسواس والحدس، والتمويه وبمحو الكون والمكان، ويسقط العلم والأحكام، وهذا ساقط القول إذ ليس معه حجة، ولا هو على سنن المحجة، وهؤلاء تائهون في مفازة التيه لم يقفوا على الحجة، قد غرقوا في بحر التوحيد لم يجعلوا أئمة للمتقين.

4- أو مفت عالم عند نفسه، موسوم بالفقه عند أصحابه، يقول لك هذا من أحكام الآخرة، ومن علم الغيب لا نتكلم فيه، لأنا لم نكلفه وهو في أكثر مناظرته يتكلم فيما لم نكلف، ولا يعلم المسكين أنه كلف علم يقين الإيمان، وحقيقة التوحيد، ومعرفة إخلاص المعاملة، لأن علم الإيمان، وصحة التوحيد، وإخلاص العبودية للربوبية، وإخلاص الأعمال من الأهواء الدنيوية وما يتعلق بها من أعمال القلوب، هو من الفقه في الدين، ونعت أوصاف المؤمنين، إذ مقتضاه الإنذار والتحذير لقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ﴾[1]. ولقول رسول الله ﷺ (تعلموا اليقين فإنى متعلم معكم)[2].

5- أو صاحب حديث وآثار، وناقل رواية الأخبار، يقول لك: إذا سألته اعتقد التسليم، وأمر الحديث كما جاء ولا تفتش، وهذا يتلو المفتي في السلامة، وهو أحسنهم طريقة وأشبههم بسلف العامة خليقة، ليس عنده شهادة يقين، ولا

(1) سورة التوبة الآية 172.

(2) رواه أبو نعيم.

معرفة بحقيقة ما رآه ولا هو مشاهد وصفاً لمعنى ما نقله، وإنما هو للعلم راوية، وللأثر والخبر ناقلة عن غير خبر يخبره، ولا فقه في نقله فهو على بينة من ربه، وليس يتلوه شاهد منه.

العلماء وحقيقة العلم:

وكان مالك بن أنس يقول: أدركت سبعين شيخاً من التابعين منهم عباد، ومنهم مستجاب الدعاء، ومنهم من يستسقى به، ما حملت عنهم علما قط، قيل: ولم ذلك؟ قال: لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وفي رواية: لم يكونوا يدرون ما يحدثون به، ولم يكن لهم فقه فيما يسألون عنه، قال مالك: وتقدم علينا ابن شهاب الزهرى وهو حديث السن فكنا نزدحم عليه حتى لا نصل إليه لأنه كان عالماً بما يحدث به، فهذا بمعنى ما روى عنه ﷺ(رب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[1]. قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾[2].

والعلم نور يقذفه الله تعالى في قلوب أوليائه، والنور إذا جعل في الصدر انشرح القلب بالعلم، ونظر باليقين، فنطق اللسان بحقيقة البيان، وهو الحكمة التي يودعها الله في قلوب أوليائه، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[3]. قيل: الإصابة في القول فكأنه يوفقه للحقيقة، وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي

(1) أخرجه الترمذي عن زيد بن ثابت.

(2) سورة القصص الآية 5.

(3) سورة ص الآية 20.

الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[1] . قيل: الفهم والفطنة. وقد قال ﴿ﷺ﴾في وصف الهداية حيت تلا قوله عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾[2] . فقيل: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ فقال: (إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: فهل لذلك من علامة؟ فقال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله)[3]. فذكر سببه الزهد في الدنيا، والإقبال على خدمة المولى. وحسن التوفيق والإصابة في العلم مواهب من الله عز وجل وأثره يختص بها من يشاء.

القول في تسليم أخبار الصفات، والسكوت عن تفسيرها كما قال أصحاب الحديث، إلا أن بمعرفة معاني الأسماء والصفات وشهودها ينفي الظن والوسواس فيها، وترك التشبيه والتمثيل بها، والطمأنينة إلى اليقين بالمعرفة بمشاهدتها هو مقام الموقنين، واعتقاد أنها صفات الله تعالى يتجلى بها وبما شاء من غيرها بلا حد ولا عدد، يظهر بصفة أي صفة كيف شاء غير موقوف على صفة، ولا محكوم عليه بصورة بلا إظهار غيرها، بل هو كيف ظهر وبأى وصف تجلى مع نفي الكيفية والمثلية لفقد الجنس والجوهرية هو مقام المقربين من الشهداء، وهؤلاء هم الصديقون وخصوص الموقنين، فمن عدل به عن وجهة هؤلاء ولم يواجه شهادتهم عدل إلى التسليم والتصديق فيوقف عنده، فكان أمنه واستراحته، وليس بعد هؤلاء مقام

(1) سورة البقرة الآية 269.

(2) سورة الأنعام الآية 125.

(3) رواه الحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود.

يمدح ولا وصف يذكر، فمن فتش ذلك بعقله، وفسره برأيه، دخل عليه التشبيه أو خرج إلى النفي والإبطال.

فضل هذا العلم على سائر العلوم:

ما جاء في الأخبار المأثورة عن النبي ﴿ﷺ﴾، وعن الصحابة، والتابعين، في فضل مجالس الذكر وفضل الذاكرين، إنما يريدون به علم الإيمان والمعرفة، وعلوم المعاملات والتفقه في بصائر القلوب، والنظر بعين اليقين إلى سرائر الغيوب، وليس يريدون به مجالس القصص، ولا يعنون بذلك القُصَّاصَ لأنهم كانوا يرون القصص بدعة ويقولون: لم يقص في زمن رسول الله ﴿ﷺ﴾، ولا أبي بكر ولا عمر حتى ظهرت الفتنة، فلما وقعت الفتنة ظهر القصاص.

ولما دخل علي كرم الله وجهه البصرة جعل يخرج القصاص من المسجد ويقول: لا يقص في مسجدنا، حتى انتهى إلى الحسن وهو يتكلم في هذا العلم، فاستمع إليه ثم انصرف ولم يخرجه، وجاء ابن عمر إلى مجلسه فوجد قاصاً يقص فوجه إليه صاحب الشرطة أن أخرجه من المسجد فأخرجه، فلو كانت القصص من مجالس الذكر والقصاص علماء، لما أخرجهم ابن عمر من المسجد، هذا مع ورعه وزهده، وروينا في خبر أبي ذر: (حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة، قيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن، فقال: وهل تنفع قراءة القرآن إلا بعلم؟).

وقد كان عبد الله بن رواحة يقول لأصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾(تعالوا حتى نؤمن ساعة فيجلسون إليه فيذكرهم العلم بالله تعالى، والتوحيد، والآخرة، وكان

يخلف رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد قيامه فيجتمع إليه الناس يذكرهم الله تعالى وأيامه ويفقههم فيما قال رسول الله ﴿ﷺ﴾، فربما خرج عليهم رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهم مجتمعون عنده فيسكتون فيجلس إليهم، ويأمرهم أن يأخذوا فيما كانوا فيه، ويقول ﴿ﷺ﴾ بهذا أمرت ولهذا دعوت).

الحث عليه في الكتاب والسنة:

فحقيقة الذكر العلم بالله تعالى، لما روي عنه ﴿ﷺ﴾ أنه قال: (أفضل الذكر قول لا إله إلا الله)[1].

وقال سبحانه وتعالى في تصديقه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[2]. وقال: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾[3].

ثم إن من الذكر علم المشاهدة، والمشاهدة صفة عين اليقين، فإذا كشف الله تعالى غطاء العين شهدت معاني الصفات بأنوارها، وهو مزيد نور اليقين الذي هو كمال الإيمان وحقيقته، ومجالس أهل العلم بالله تعالى وأهل التوحيد والمعرفة هي مجالس الذكر، وهي التي جاءت فيها الآثار.

وفى الخبر: (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر)[4] . وفي الحديث: (إن لله تعالى ملائكة سياحين في الهواء فضلاً

---

(1) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

(2) سورة محمد الآية 19 .

(3) سورة هود الآية 14

(4) أخرجه الترمذي من حديث أنس.

عن كتاب الخلق، إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلموا إلى بغيتكم فيأتوهم حتى يجلسوا إليهم فيحفون بهم ويستمعون منهم، ألا فاذكروا الله واذكروا أيامه أنفسكم)[1]. وروينا عن على كرم الله وجهه قوله: ما يسرني أن الله تعالى أماتنى طفلاً، وأدخلني الدرجات العلا من الجنة، قيل: ولم؟ قال: لأنه أحياني حتى عرفته.

علم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص:

وعند أهل هذا العلم- وهو العلم بالله تعالى- أن علمهم مخصوص لا يصلح إلا للخصوص، والخصوص قليل، ولم يكونوا ينطقون به إلا عند أهله، ويرون أن ذلك من حقه، وأنه واجب عليهم كما وصفهم على كرم الله وجهه في قوله: حتى يودعوه أمثالهم ويزرعوه في قلوب أشكالهم، كذلك جاءت الآثار عن نبينا وعن سيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام: (لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، كونوا كالطبيب الرفيق الذي يضع الدواء في موضع الداء)[2]. في لفظ آخر: (من وضع الحكمة في غير أهلها جهل، ومن منعها أهلها ظلم، إن للحكمة حقاً وإن لها أهلاً وإن لأهلها حقاً، فأعط كل ذي حق حقه).

وفي حديث عيسى صلاة الله وسلامه عليه: (لا تعلقوا الجوهر في أعناق الخنازير، فإن الحكمة خير من الجوهر، ومن كرهها فهو شر من الخنزير).

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(2) رواه ابن عساكر عن ابن عباس وعن عيسى بن مريم عليه السلام.

علم الظاهر وعلم الباطن:

وقد قيل: من لم ينتفع بسكوت العالم لم ينتفع بكلامه، أي ينبغي أن يتأدب بصمته، وخشوعه، وورعه ويقتدي بيقينه في ذلك، كما يتأدب بنطقه ويقتدي بكلامه، على أنهم يقولون: علم الظاهر من علم الملك. وعلم الباطن من علم الملكوت، يعنون أن ذلك من علم الدنيا لأنه يحتاج إليه في أمور الدنيا، وهذا من علم الآخرة لأنه من زادها، وهذا كما قالوه لأن اللسان ظاهر فهو من الملك وهو خزانة العلم الظاهر، والقلب خزانة الملكوت وهو باب العلم الباطن، فقد صار فضل العلم الباطن على الظاهر، كفضل الملكوت على الملك، وهو الباطن الخفي، وكفضل القلب على اللسان، وهو الظاهر الجلي.

والعلماء بالله تعالى هم ورثة الأنبياء لأنهم ورثوا عنهم الدلالة على الله تعالى، والدعوة إليه والاقتداء بهم في أعمال القلوب قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾[1] . وكما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[3]. ويحشرون يوم القيامة مع الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾[4]. وكما قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ

(1) سورة فصلت الآية 33

(2) سورة النحل الآية 125.

(3) سورة يوسف الآية 108.

(4) سورة النساء الآية 69.

وَالشُّهَدَاء﴾[1]. ثم فسره فقال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾[2].

وقد روينا معناه عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم، وأهل الجهاد، أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاء به الأنبياء، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل)[3]. وعلماء الدنيا يحشرون مع الولاة والسلاطين.

واعلم أن العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والإفهام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﴿ﷺ﴾، وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه، وقرأ على أبي بن كعب، ثم خالف زيداً في الفقه، وأبياً في القراءة.

وقال بعض الفقهاء من السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﴿ﷺ﴾فعلى الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ به ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال، قالوا ونقول، ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد ويقولون: لا ينبغي للرجل أن يفتى حتى يعرف اختلاف الفقهاء، أي فيختار منها على علمه الأحوط للدين والأقوى باليقين، فلو كانوا يستحبون أن يفتى العالم بمذهب غيره لم يحتج أن يعرف الاختلاف، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه،

---

(1) سورة الزمر الآية 69.

(2) سورة المائدة الآية 44.

(3)أخرجه أبو نعيم عن ابن عباس.

والعالم الذي هو من أهل الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة، فإنه أداة الصنعة وآلة الصنع لأنه ذو تمييز وبصيرة، ومن أهل التدبر والعبرة، فأما الجاهل والعامي الغافل فله أن يقلد العلماء، ولعالم عموم أيضاً أن يقلد عالم خصوص، وللعالم بالعلم الظاهر أن يقلد من فوقه ممن جعل على علم الباطن من أهل القلوب، لأن النبي ﴿ﷺ﴾رد من علم الألسنة والفتيا إلى علم القلوب، ولم يرد أهل القلوب في علمهم الذين يختصون به إلى المفتين لأنهم يأخذون من المفتين فتياهم، ثم يجدون في قلوبهم حيكا وحزازة فيلزمهم فتيا القلب لقوله: (استفت قلبك)، بعد قوله: (وإن أفتاك المفتون)[1]. مع قوله: (الإثم حزاز القلوب)[2]. إلى قوله: (ما حاك في صدرك فدعه وإن أفتاك وأفتوك)..

أعلم الناس في زماننا:

ثم درست معرفة هذا بجهل فصار كل من نطق بكلام غريب على السامعين لا يعرف حقه من باطله سمي عالماً، وكل كلام مستحسن زخرف رونقه لا أصل له يسمى علماً لجهل العامة بالعلم أي شيء هو، فأعلم الناس في زماننا هذا أعرفهم بسيرة المتقدمين، وأعلمهم بطرائق السالفين، ثم أعلمهم بالعلم أي شيء هو، وبالعالم من هو من المتعلم والمتعالم، وهذا كالفرض على طالبي العلم أن يعرفوه لأنه لما قال ﴿ﷺ﴾(طلب العلم فريضة)[3]. وجب عليهم أن يعرفوا أي شيء هو العلم حتى يطلبوه، إذ لا يصح طلب ما لا يعرف، ثم وجب عليهم من هذا أن

(1) أخرجه أحمد من حديث وامضة.

(2) أخرجه البيهقي عن ابن مسعود

(3) رواه ابن ماجة والبخاري.

يعرفوا العالم من هو ليطلبوا عنده العلم، إذ العلم عرض ولا يقوم إلا بجسم فلا يوجد إلا عند أهله كما قيل لعلي كرم الله وجهه: (أنت خالفت فلاناً في كذا، فقال: خيرنا أتبعنا لهذا الدين).

فأعلم الناس في هذا الوقت وأقربهم من التوفيق والرشد أتبعهم لمن سلف، وأشبههم بشمائل صالحي الخلف، كيف وقد روينا عنه ﴿ﷺ﴾(أنه سئل من أعلم الناس فقال: أعرفهم بالحق إذا اشتبهت الأمور). وفي خطبة له ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكمة، وجانب أهل الذل والمعصية، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خليقته وصلحت سريرته وعزل عن الناس شره، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يعدها إلى بدعة)[1].

وقال علي كرم الله وجهه: (يأتي على الناس زمان ينكر الحق تسعة أعشارهم لا ينجو منهم يومئذ إلا كل مؤمن نومة- يعني صموتاً متغافلاً - أولئك مصابيح العلم، وأئمة الهدى، وليسوا بالمزاييغ البذل). يعني المتكلمين كثيراً المتظاهرين بالكلام افتخاراً.

وفي حديث أبي هريرة: (يأتي على الناس زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا)[2]. وعن بعض الصحابة: (أنتم اليوم في زمان من ترك منكم عشر ما يعلم هلك، ويأتي زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا)[1].

---

(1) أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي.

(2) رواه السيوطي والترمذي والطبراني عن أبي هريرة.

علوم درست في زماننا:

وقد كان للمتقدمين علوم يجتمعون عليها ويتفاوضونها بينهم قد درست في زماننا، ولليقين والمعرفة معان وطرائق يسلكونها ويسألون عنها قد ذهبت في وقتنا، وكان للصالحين مقامات وأحوال يتذاكرها أهلها، ويطلبون أربابها، قد عفت آثارها عندنا لقلة الطالبين لها، ولعدم الراغبين فيها، وفقد العلماء بها، وذهاب السالكين في طرقها منها طلب الحلال، وعلم الورع في المكاسب والمعاملات، وعلم الإخلاص، وعلم آفات النفوس، وفساد الأعمال، وعلم نفاق العلم والعمل، بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين نفاق القلب ونفاق النفس، وبين إخفاء النفس شهواتها وإخفائها ذلك، والفرق بين سكون القلب بالله، وسكون النفس بالأسباب، والفرق بين خواطر الروح والنفس، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل، وعلم خلائق الأحوال، وأحوال طرائق العمال، وتفاوت مشاهدات العارفين، وتلوينات الشواهد على المريدين، وعلم القبض والبسط، والتحقيق بصفات العبودية، والتخلق بأخلاق الربوبية،وتباين مقامات العلماء إلى غير ذلك مما لا نذكره من علم التوحيد ومعرفة معاني الصفات، وعلوم المكاشفة بمجلى الذات، وإظهار الأفعال الدالة على معاني الصفات الباطنة، وظهور المعانى الدالة على النظر والإعراض، والتقريب والإبعاد، والنقص والمزيد، والمثوبة والعقوبة، والاجتباء والاختيار.

---

(1) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

أنواع العلوم فرضها الله تعالى علينا:

إعلم أن من تعلم علماً من العلوم له معلوم من علوم الدين وغيرها من علوم الدنيا كالطب والبيطرة وعلوم القضاء والفتيا للولاية، وعلوم اللسان والإنشاء للوزارة، وعلم حماية الثغور واستحكام المعاقل، وأصالة الرأى، وتدبير الأحكام، وعلم الحوادث والوقائع لقيادة الجيوش كل واحد من هؤلاء يسمى عالماً بعلم نافع.

وقبل أن أشرح هذا الموضوع أورد شرح أئمة السلف هداة الأمة، وما بينوا به قوله ﴿ﷺ﴾(طلب العلم فريضة على كل مسلم)[1] وقوله ﴿ﷺ﴾(اطلبوا العلم ولو بالصين)[2] وبإيراد أقوالهم يمكن لكل مطلع أن يعلم مجموع العلوم التي فرضها الله تعالى ورسوله ﴿ﷺ﴾، وإن تفاوتت بالنسبة لمعلومها، فقد يكون العلم فرض عين وهو أول واجب على المسلم، كعلم التوحيد، وقد يكون فرض عين ولا يفرض عليك إلا بعد فرض عمله كعلم العبادات، لأن عملها فرض وعلم تأدية العمل الفرض كاملاً فرض عين على من فرض عليه العمل.

---

(1) رواه ابن ماجة والمنذري.

(2) رواه ابن عدي والبيهقي من حديث أنس.

أقوال الأئمة في معنى هذين الحديثين [1]:

قال الإمام أبو مُحَمَّد سهل رحمه الله: أراد بذلك علم الحال، يعني علم حال العبد من مقامه الذي أقيم فيه، بأن يعلم أحدكم حاله الذي بينه وبين الله عز وجل في دنياه وآخرته خاصة. فيقوم بأحكام الله تعالى في ذلك.

وقال بعض العارفين: معناه طلب علم المعرفة، وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضي منه في كل ساعة من نهاره.

وقال بعض علماء الشام: إنما عني به طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره، وما يصلح الأعمال ويفسدها، فريضة كله من حيث كان الإخلاص في الأعمال فريضة، ومن حيث أعلم بعداوة إبليس، ثم أمر بمناوأته، وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيي الأرموي ومن تابعه.

وقال بعض البصريين في معناه: طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأنها رسل الله تعالى إلى العبد، ووسواس العدو والنفس، فيستجيب العبد لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه في نفيها، ولأنها أول النية التي هي أول كل عمل، وعنها تظهر الأفعال وعلى قدرها تضاعف الأعمال، فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك، ولمة العدو، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس، وبين علم اليقين وفوادح العقل، ليميز بذلك الأحكام، وهذا عند هؤلاء فريضة وهو مذهب مالك بن دينار، وفرقد السنجي، وعبد

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 1 ص 129 وما بعدها.

الواحد بن زيد، وأتباعهم من النساك. وقد كان أستاذهم الحسن البصري يتكلم في ذلك وعنه حملوا علوم القلوب.

وقال عبّاد أهل الشام: معناه طلب علم الحلال فريضة إذ قد أمر الله تعالى به، وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام، وقد جاء في خبر مفسر (طلب الحلال فريضة بعد الفريضة)، ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، ووهيب بن الورد، وحبيب بن حرب.

وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة: معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله، قالوا: وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن اشتغل به واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين، ولأنه جاء في لفظ الحديث: (تعلموا اليقين) فمعناه: اطلبوا علم اليقين، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين، وهو العلم النافع الذي هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى، كما شهد له الخبر الآخر في قوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(وعلم باطن في القلب وهو العلم النافع) فهذا تفسير ما أجمل في غيره، وقال جندب: (كنا مع رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيماناً، وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان)، يعني تعلمنا علم الإيمان، وهذا مذهب نساك أهل البصرة.

وقال بعض السلف: إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد، وأصول الأمر والنهي، والفرق بين الحلال والحرام، إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك، وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هي معلومات، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضاً، وإنما فيه فضل أو ندب.

وقال بعض فقهاء الكوفة: معناه طلب البيع والشراء، والنكاح والطلاق، وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله في ذلك طلب علمه، لقول عمر بن الخطاب ﷺ: (لا يتجر في سوقنا هذا إلا من تفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى)، وكما قيل: تفقه ثم اتجر. ومال إلى هذا سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابهما.

وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان: هو أن يكون الرجل يريد أن يعمل شيئاً من أمر الدين، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد وعلى العبد في ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة فهذا فريضة، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث.

وقال آخرون: يعني طلب علم التوحيد فرض، وإنما اختلفوا في كيفية الطلب وماهية الإصابة، فمنهم من قال: من طريق الاستدلال والاعتبار. ومنهم من قال: من طريق البحث والنظر. ومنهم من قال: من طريق التوفيق والأثر. وقالت طائفة من هؤلاء: إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلاً عنها على أصل التسليم، ومعتقد جملة المسلمين لا يقع في وهمه ولا يحيك في صدره شيء من الشبهات فيسعه ترك البحث. فإذا وقع في سمعه شيء من ذلك ووقر قى قلبه، ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه، ومعرفة تمييز حقه من باطله، لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلاً أو ينفي حقاً، فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه، حتى يكون على اليقين من أمره، فيعتقد من ذلك الحق وينفي الباطل، ولا يقعد عن

الطلب فيكون مقيماً على شبهة فيتبع الهوى، أو يكون شاكاً في الدين فيعدل عن طريق المؤمنين، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة. وهو لا يعلم.

ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق ﷺ يقول في دعائه: "اللهم أرنا الحق حقاً فنتبعه، وأرنا الباطل باطلاً فنجتنبه، ولا تجعل ذلك متشابهاً علينا فنتبع الهوى". وهذا مذهب أبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي، وداود بن على، والحسين الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي ومن تابعهم من المتكلمين.

فهذه أقوال العلماء في معنى هذا الخبر،حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة، واحتججنا لكل قول، فالألفاظ لنا والمعنى لهم، وهذا كله حسن ومحتمل، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا في تفسير الحديث بألفاظهم فإنهم متقاربون في المعنى إلا أهل الظاهر منهم فإنهم حملوه على ما يعلمونه، وأهل الباطن حملوه على علمهم، هذا ما وصل إلينا من أقوال الأئمة في شرح هذين الحديثين.

والرأي عند أبي طالب المكي ﷺ:

أن الظاهر والباطن علمان لا يستغني أحدهما عن صاحبه بمنزلة الإسلام والإيمان، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه، والأئمة ﷺ وإن اختلفوا في الأقوال فإنهم مجمعون أنه ﴿ﷺ﴾لم يرد بذلك طلب علم الأقضية والفتاوى، ولا علم الاختلاف والمذاهب، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه، وإن كان الله تعالى لا يخلي من ذلك من يقيمه بحفظه، والذي عندنا في حقيقة معنى هذا الخبر والله أعلم، أن قوله ﴿ﷺ﴾(طلب العلم فريضة)، يعني

علم هذه الفرائض الخمس التي بنى الإسلام عليها، من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها.

ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه، فأول العمل العلم به، فصار علم العمل فرضاً من حيث افترض العمل، فلما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس فصار طلب علم هذه الخمس فرضاً، لأنه فرض الفرض، وعلم التوحيد داخل فيها لأنه في أوله شهادة أن لا إله إلا الله، بإثبات صفاته المتصلة بذاته، ونفى صفات سواه المنفصلة عنه إياه، كله داخل في علم شهادة أن لا إله إلا الله، وعلم الإخلاص داخل في صحة الإسلام، إذ لا يكون مسلماً إلا بإخلاص العمل لقوله ﷺ(ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله..) فبدأ به واشترطه للإسلام، والأصل في هذا أنه لم يرد ﷺعلم كل ما جاز أن يكون معلوماً بإجماع الأمة، أنه لم يقصد بذلك علم الطب أو علم النجوم ولا علم النحو أو الشعر أو المغازي وهذه تسمى علوماً لأنها تكون معلومة وأربابها علماء بها، إلا أن الشرع لم يرد بالأمر مقتضاها، والأمة مجمعة أيضاً أنه لم يرد بذلك علم الفتيا والقضاء، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء، وهذه تسمى علوماً عند أهلها، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان، والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية وبمعنى الاسم، فقال: (طلب العلم فريضة)، ثم قال: (على كل مسلم)، بعد قوله: (طلب العلم)، فكان هذا على الأعيان، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه، فأشير بالألف واللام إليه.

علم ما بني الإسلام عليه فريضة:

فإذا بطلت هذه الوجوه صح أن قوله ﴿ﷺ﴾(طلب العلم فريضة على كل مسلم) أي طلب علم ما بني الإسلام عليه فافترض على المسلمين علمه فريضة، بدليل قوله ﴿ﷺ﴾للأعرابي حين سأله: (أخبرني ماذا افترض الله عليَّ؟)، وفي لفظ آخر: (أخبرنا بالذي أرسلك الله تعالى إلينا به، فأخبره بالشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت)، فقال: هل عليَّ غيرها؟ فقال: لا، إلا أن تطوع، فقال: والله لا أزيد عليه شيئاً ولا أنقص منه شيئاً، فقال: (أفلح ودخل الجنة إن صدق) [أخرجه البخاري عن أنس]. فكان علم هذه الخمسة فريضة من حيث كان معلومه فريضة، إذ لا عمل إلا بعلم، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] . وقال في مثله: ﴿حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[2]. وقال: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾[3]. وقال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {18} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾[5] وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [1] وقال: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الزخرف الآية 86.

(2) سورة النساء الآية 43.

(3) سورة الأنعام الآية 148.

(4) سورة الروم الآية 29.

(5) سورة الجاثية الآية 18-19.

فهذه الآيات افترض الله فيها طلب العلم، وذلك الخبر الذي جاء في أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال، ثم قال مجملاً: (طلب العلم فريضة)، ثم وكده بقوله ﷺ (على كل مسلم)، فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم هذه الخمس التي هي أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها.

علم لا يضر جهله :

وقد روينا عن رسول الله ﷺ من طريق مرسل: (أنه مر برجل والناس مجتمعون عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل علامة، فقال: بماذا؟ فقالوا: بالشعر والأنساب وأيام العرب، فقال: هذا علم لا يضر جهله)، وفي لفظ آخر: (علم لا ينفع وجهل لا يضر). وروينا في الخبر: (إن من العلم جهلا وإن من القول عيا)، وفي الخبر الآخر: (قليل من التوفيق خير من كثير من العلم). وفي خبر غريب: (كل شيء يحتاج إلى العلم، والعلم يحتاج إلى التوفيق)، والخبر المشهور قوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(أعوذ بك من علم لا ينفع)(3). فسماه علماً إذ له معلوم، وأن أصحابه علماء عند أصحابهم، ثم رفع المنفعة عنه واستعاذ بالله منه.

---

(1) سورة هود الآية 14.

(2) سورة النحل الآية 43.

(3) ذكره ابن عبد البر من حديث جابر.

العمل بالعلم:

وقد روينا في خبر: (إن الشيطان ربما سبقكم بالعلم، قلنا: يا رسول الله كيف يسبقنا بالعلم؟، قال: يقول اطلب العلم ولا تعمل به حتى تعلم، فلا يزال في العلم قائلاً وللعمل مسوفاً حتى يموت وما عمل)[1] ففي هذا الخبر دليلان:

أحدهما: أنه أريد به طلب فضول العلم الذي لا نفع له في الآخرة ولا قربة في طلبه من الله.

والثاني: أن العلم المفضل المندوب إليه إنما هو الذي يقتضى العمل لأن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ لا يأمر بعمل بغير علم، ولا يكره طلب علم للعمل به، ألا تسمع إلى قوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في الخبر الآخر: (فضل من علم أحب إلى من فضل من عمل وخير دينكم الورع)[2].

فنتج من ذلك كله أن المراد من العلم الذي فرض علينا رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ هو علم التوحيد ثم علم عمل الأركان، ثم العمل بعد ذلك به، وعندها يرث الإنسان علم ما لم يعلم، وإن علم اللسان الذي لم يكن للقلب فيه مشهد للحاكم الذي وضع الأحكام، وخشية عن مراقبة الرقيب، ورغبة في نوال جمال الجميل، وخوف من مقام العلى الكبير، كان وبالا على صاحبه وبلاءً عليه.

---

(1) الحديث في الجامع والإحياء عن أنس.

(2) رواه الطبراني في الأوسط والبزار عن حذيفة بن اليمان.

العلم بالله لا تلزمه علوم الدنيا:

وإذا علم القلب بالحب واليقين والكشف والتمكين وفقه أسرار الدين، بما تلقاه الإنسان من العلوم النافعة التي فرضها عليه رسول الله ﴿ﷺ﴾ولم يتلق غيرها من العلوم التي بها اعتدال اللسان، والشهرة والسمعة والمنافسة في معرفة الأمراء والوزراء والطمع في الوظائف، ومزاحمة كلاب الدنيا، كان صاحب هذا القلب الذي علم ما فرضه رسول الله ﴿ﷺ﴾، وجهل ما زاحم فيه أهل الدنيا، على الصراط المستقيم، من خاصة أهل اليمين، وقد يرفعه الله إلى مقامات المقربين ، ولم يكن أحد أعلم من إبليس، وكم أضل الله قوماً على علم لم يصافهم بعلوم اليقين، ولم يجتبهم للفقه في الدين، ولم يقمهم عمالاً له سبحانه. قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[1] . إلى آخر الآية، فالعلم بالله لا يلزمه تلك العلوم، وكم من أعجمي عرف ربه وعربي عالم بجميع العلوم جهل نفسه.

الواجب على من تعلموا علوم الدنيا:

والأولى لمن تعلموا تلك العلوم أن يشتغلوا بالعمل ببعضها، وأن يستعملوها في إظهار الحق ولو كان عليهم، ومحو الباطل ولو كان منهم، وأن يتعلموا الصبر على العمل الصالح، والزهد والصدق، والإخلاص، والرضا بالقليل من الدنيا، ودوام ذكر الله تعالى، ومكارم الأخلاق، من التواضع، والعفة، والصدق، والأمانة، والوفاء، والبذل للإخوان، وعلو النفس على أهل الدنيا بالعزة عليهم، والذل لأهل الدين

(1) سورة الأعراف الآية 175.

بالمسكنة إليهم من الفقراء أهل الطريق الذين يزدرونهم ويرمونهم بالجهل، مع أن الله علمهم من علوم الأخلاق الفاضلة التي بها يكون الإنسان كاملاً مما لو بذل عالم الدنيا نفسه وماله لنوال بعضه لما تحصل عليه ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [1].

وشتان بين من عرف نفسه فتجمل بجمالها الحقيقي لربه، ومن جهل نفسه فتعزز برذائل الأخلاق من الكبر وتعظيم نفسه، واحتقار الخلق في نظره، وذم عمال الآخرة، ومدح أهل الدنيا، والغرور بعلمه، وجاهه، ومنصبه، وماله، وضياع الأوقات في التزلف للحكام، والتملق لهم طمعاً في جاه أو منصب، أو علو في الأرض بالباطل.

الوسط الذي هو الخير:

والوسط عندى الذي هو الخير: أن كل مسلم يرى لأخيه مزية ليست فيه فيطلبها بطريقها الذي يوصل إليها، فالعلماء يجب عليهم أن يجالسوا العباد ليتعلموا منهم العلوم النافعة، و العباد يجالسون العلماء ليتعلموا منهم ما لا بد لهم منه حتى يكون المؤمنون كجسد واحد ينتفع الجسد كله بكل عضو على حده، والجسد كله في منفعة العضو الواحد، وبذلك يكونون رحماء بينهم كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ [2]. فيمنحهم الله تعالى العزة على الكافرين، والذلة لإخوانهم المؤمنين فيكونون جميعاً في أي مكان "كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً"، والله الموفق للصواب.

---

(1) سورة الروم الآية 32.

(2) سورة الفتح الآية 29.

ذكر عرى الإيمان وجمل الشريعة:

قال الله جل ثناؤه وصدقت أنباؤه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾[1]. فالشريعة اسم من أسماء الطريق، وهو اسم الطريق الواضح المستقيم الواسع، وهو وصف لطريق جامع لجوامع المحاج كلها، كأنه طريق يستوعب ويجمع سائر الطرق، وللطريق أسماء كثيرة منها الصراط المستقيم والسبيل والمنهاج والمحجة، والمنسك، وجاء من اشتقاق هذا اللفظ أربعة أسماء: شارع، ومشرعة، وشرعة، وشريعة، وهو اسم لأوسعها وأوعبها لجميع الطرق، فالشريعة تشتمل على اثنتي عشرة خصلة هي جامعة لأوصاف الإيمان، أول ذلك الشهادتين وهي الفطرة، والصلوات الخمس وهي الملة، والزكاة وهي الطهرة، والصيام وهو الجنة، والحج وهو الكمال، والجهاد وهو النصر، والأمر بالمعروف وهو الحجة، والنهي عن المنكر وهو الوقاية، والجماعة وهي الألفة، والاستقامة وهي العصمة، وأكل الحلال وهو الورع، والحب والبغض في الله، وهو الوثيقة.

وقد روينا بعض هذه الخصال عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وقد جاء نحوها عن ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما.

---

(1) سورة الجاثية الآية 18.

مزيد في تفصيل الإسلام والإيمان وعقود القلب وشرح معاملته [1]:

نتكلم في هذا الموضوع بحقيقة مذاهب أهل الجماعة فيه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ﴾[2]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4] وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[5] فعمد القلوب وكسبها هو عقودها وأعمالها، وعقود القلب التي هي السنة المجمع عليها نقلها الخلف عن السلف، ولم يختلف فيها اثنان من المؤمنين، وهي ست عشر خصلة، ثمان واجبات في الدنيا، وثمان واقعات في الآخرة.

الخصال الواجبة في الدنيا:

1-أن يعتقد العبد أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويقوى بالعلم، ويضعف بالجهل.

2- وأن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وعلمه القديم صفة من صفاته هو متكلم به بذاته. وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(ما تقرب العبد إلى الله عز وجل بأفضل من شيء خرج منه وهو كلامه). وعنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أنه قال: (أعوذ بكلمات الله وأسمائه

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ج 2 ص 123 وما بعدها (بتصرف).

(2) سورة المائدة الآية 1.

(3) سورة المائدة الآية 89.

(4) سورة الأحزاب الآية 5.

(5) سورة البقرة الآية 225.

كلها). كما قال ﴿ﷺ﴾(أعوذ بعزة الله وقدرته). دليل أن الكلام والأسماء صفات.

3- تسليم أخبار الصفات فيما ثبتت به الرواية وصحيح النقل، ولا يتأول ولا يشبه بالقياس والعقل، ولكن يعتقد إثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها لله تعالى، وينفى التشبيه والتكييف عنها، إذ لا كفء للموصوف فيشبه به، ولا مثل له فيجنس منه، وفي رد أخبار الصفات بطلان شرائع الإسلام، من قبل أن الناقلين إلينا ذلك هم ناقلوا شرائع الدين، وأحكام الإيمان، فإن كانوا عدولاً فيما نقلوه من الشريعة فالعدل مقبول القول في كل ما نقله، وإن كانوا كذبوا فيما نقلوا من أخبار الصفات فالكذب مردود القول في كل ما جاء به، والكذب على الله كفر، فهم إلى أن يكذبوا على الرسول فيما هو من الأحكام أولى. ففى ذلك إبطال الشريعة، وتكفير النقلة من الصحابة والتابعين بإحسان، فلذلك كفر أصحاب الحديث من نفى أخبار الصفات.

4- ويعتقد تفضيل أصحاب رسول الله﴿ﷺ﴾، وأهل بيته رضي الله عنهم ورضوا عنه كافة، ويسكت عما شجر بينهم، وينشر محاسنهم وفضائلهم، لتأتلف القلوب بذلك، ونسلم لكل واحد منهم ما فعله، لأنهم أوفر وأعلى عقولاً منا، فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدى إليه اجتهاده، ونقدم من قدمه الله ورسوله، وأجمع المسلمون الذين تولى الله إجماعهم على الهداية، وضمن الله تعالى لرسوله ﴿ﷺ﴾تفضيلاً لهم، وتشريفاً لهم، أن لا يجتمعوا على ضلالة، وقد قال علي كرم الله وجهه لما قيل له: ألا تستخلف علينا؟ فقال: (لا أستخلف عليكم، بل أكلكم إلى الله عز وجل، فإن يرد بكم خيراً، جمعكم بعد نبيكم على خيركم).

قال ابن عمر رضي الله عنه: كنا نقول على عهد رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، فيبلغ ذلك رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فلا ينكر. وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً)[1] فهؤلاء الأربعة خلفاء النبوة، وهم أئمة الأئمة من العشرة، وعيون أهل الهجرة والنصرة، وخيار الخيار من الأصحاب.

وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إن الله عز وجل اختار أصحابي على العالمين، واختار من أصحابى أربعة فجعلهم خير أصحابى، وفي كل أصحابي خير، واختار أمتي على الأمم، واختار من أمتى أربعة قرون فكل قرن سبعون سنة)[2]. فإنا نحن قوم متبعون نقفوا الأثر غير مبتدعين بالرأى والمعقول. وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى، عضوا عليها بالنواجذ ومن شذ ففي النار)، وقال تعالى في تصديق ذلك: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾[3].

ولما سبق في علم الله تعالى، أن يجعل هؤلاء الأربعة خلفاء النبوة بما قدر الله من أعمارهم، فلم يكن يتم ذلك إلا بترتيبهم على ما رتبوا في الخلافة، فكان آخرهم استخلافاً هو آخرهم موتاً، فدبر خلافتهم على ما علم من آجالهم، ووفى لهم بما وعدهم من استخلافهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم من خلائف أنبيائه السوالف، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وبدلهم أمناً بعد خوفهم كما

---

(1) رواه الطيالسي وأحمد وأبو نعيم عن سفينة مولى رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم وآله﴾ واسمه رومان.

(2) رواه أبو نعيم والخطيب وابن عساكر عن جابر.

(3) سورة النساء الآية: 115.

قال الصادق فيما عهد: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾[1] . فذلك تأويل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[2].

5- وأن يعتقد أن الإمامة في قريش خاصة دون سائر العرب كافة إلى يوم القيامة، وأن لا يخرج على الأئمة بالسيف، ويصبر على جورهم، ويشكر على المعروف والعدل، ويطيع إذا أمر بالتقوى والبر، وقال أبو محمد: (الخليفة إذا كان غير صالح فهو من الأبدال، وإذا كان صالحاً فهو القطب الذي تدور عليه الدنيا) قوله من الأبدال يعني أبدال الملك، كما قال جعفر بن محمد الصادق: أبدال الدنيا سبعة على مقاديرهم يكون الناس في كل زمان. من العباد والعلماء والتجار والخليفة والوزير وأمير الجيش وصاحب الشرطة والقاضي وشهوده.

قال ﴿ﷺ﴾(عدل ساعة من إمام عادل خير من عبادة ستين سنة)[3]. وقال ﴿ﷺ﴾(يكون عليكم أمراء يفسدون، وما يصلح الله تعالى بهم أكثر، فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر، وإن أساءوا فعليهم الوزر وعليكم الصبر)[4].

6-لا يكفر أحداً من أهل القبلة وإن عظم ذنبه، ولا ينزله جنة ولا ناراً، بل يرجو له ويخاف عليه، وإن مات مصراً على الكبائر عن غير توبة منها في مشيئة

---

(1) سورة التوبة الآية: 111.

(2) سورة النور الآية: 55.

(3) رواه الطبراني عن ابن عباس وأبي هريرة.

(4) رواه مسلم من حديث أم سلمة.

الله تعالى، إن أثبت وعيده عليه كان عدلاً، وإن عفا وسمح له بحقه كان ذلك منه فضلاً.

7-لا نحكم ولا نقطع على الله تعالى بشيء، ولا نوجب لنا عليه شيئاً، إنما نحن بين عدله وفضله، وبمشيئته واختياره، إن حقق علينا وعيده فنحن أهل ذلك، وإن غفر لنا فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، كيف وقد روينا عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أنه قال: (من وعده الله تعالى على عمل ثواباً فهو منجزه له، ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار)، وقد سئل ﴿ﷺ﴾عن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾[1]. فقال: (جزاؤه جهنم إن جازاه، ففي كل قضاء لله تعالى حكمة بالغة وعدل وحكم صادق وحق).

8- وأن يصدق بجميع أقدار الله تعالى خيرها وشرها، أنها من الله تعالى سابقة في علمه جارية في خلقه بحكمه، وأنهم لا حول لهم عن معصيته إلا بعصمته، ولا قوة لهم على طاعته إلا برحمته، وأنهم لا يطيقون ما حملهم إلا به، ولا يستطيعون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا بمشيئته، ونؤمن بقدرة الله وآياته في ملكه، وغيب ملكوته مما ذكر في الأخبار من كراماته لأوليائه وإجاباته لأحبائه، وإظهار القدرة للصديقين، والصالحين، مزيداً لإيمانهم، وتثبيتاً ليقينهم، وتكرمة وتشريفاً لهم، وأنه ليس في ذلك إبطال لنبوة الأنبياء، ولا إدحاض حججهم، من قبل أن هؤلاء غير مثبتين ولا مخالفين للأنبياء، ولا ادعوا ما ظهر لهم بحولهم وقوتهم، ولا أظهروا دعوة إلى أنفسهم، ولا تظاهراً به، ولا اجتلاباً للدنيا، ولا طلباً للرياسة على أهلها، إنما هو شيء كشفه الله تعالى لهم من سر ملكوته كيف شاء، وأظهرهم عليه من غيب

(1) سورة النساء الآية 93.

قدرته أين شاء كما شاء، تخصيصاً لهم وتعريفاً، وهم للأنبياء متبعون، وعلى آثارهم مقتفون، وبسننهم مقتدون، فآتاهم الله تعالى ذلك ببركة الأنبياء وبحسن اتباعهم لهم، ولأنهم إخوانهم أبدالاً، لا أشكالاً لهم وعنهم أمثالاً، وقد تواترت الأخبار عن الصحابة والتابعين الأخيار بما ذكرناه فغنينا بالتواتر عن التناظر.

الخصال الواقعة في الآخرة:

1- أن يعتقد العبد مساءلة منكر ونكير، يقعدان العبد في قبره فيسألانه عن التوحيد، وعن الرسالة، وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن. وهما فتانا القبر كذلك روينا عن رسول الله ﴿ﷺ﴾، وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾، قيل: عند مساءلة منكر ونكير ﴿وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ﴾[1].

2- وعذاب القبر حق، وحكمة، وعدل، على الجسم والروح والنفس، يشتركون في ذلك حسب اشتراكهم في المعصية، وإن كان نعيماً كان ذلك على الجسم والروح والنفس، يشتركون في النعيم كما اشتركوا في الطاعة. وهذا من أحكام الآخرة يكون بمجارى القدرة، ليس على ترتيب المعقول، ولا عرف العقول، يوصل الله العذاب والنعيم إلى الأرواح والأجسام وهي متفرقة، فيتصل ذلك بهما كأنهما متفقان، وليس في القدرة مسافة، ولا ترتيب، ولا بعد، ولا توقيت.

3- ويؤمن بالميزان أنه حق وعدل وحكمة وفضل، توزن فيه الأعمال بقدرة الله تعالى، والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل بحقيقة العدل: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ

(1) سورة إبراهيم الآية 27.

ظُلْماً﴾[1]، فتكون الحسنات في صورة حسنة تطرح في كفة النور فيثقل بها الميزان برحمة الله تعالى، وتكون السيئات في صورة سيئة تطرح في كفة الظلمة، فيخف لها الميزان بعدل الله تعالى.

4- ويعتقد أن الصراط حق على ما جاء في وصفه في الآثار، كدقة الشعرة وحد السيف، وهو طريق الفريقين إلى الجنة أو النار، تثبت عليه أقدام المؤمنين بقدرة الله تعالى، فيحملهم إلى الجنة بفضل الله تعالى وتزل عنه أقدام المنافقين، فتهوي بهم في النار بحكم الله عز وجل.

5- ويؤمن بوقوع الحساب، وتفاوت الخلق فيه، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً، ومنهم من يدخل النار بغير حساب وهم الكافرون.

6- ويؤمن بالنظر إلى الله ﷻ عياناً بالأبصار، مواجهة تكشف الحجب والأستار، بقدرة الله ومشيئته ونوره ورحمته، كيف شاء وهو معنى قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾[2]. فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى الله تبارك وتعالى.

7- ويعتقد إخراج الموحدين من النار بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله.

8- ويعتقد بشفاعة الشافعين من النبيين والصدِّيقين، وأن لكل مؤمن شفاعة بإذن الله، فيشفع النبيون والصديقون والعلماء والشهداء وسائر المؤمنين، كل واحد وسع جاهه، وقدر منزلته، أجمعت الرواة بذلك عن رسول الله ﴿ﷺ﴾في إثبات

(1) سورة طه الآية 111.

(2) سورة يونس الآية 26.

الشفاعة، وفي إخراج الموحدين من النار وهم الجهنميون من أهل الطبقة العليا في النار، وهو معنى قول الله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[1]. قال المفسرون: ذلك عند إخراج الموحدين من النار، ويبقى الباقي لرحمة أرحم الراحمين، فيخرج من النار بمشيئته وسعة رحمته وفضل فضله من لم يشفع لهم الشافعون، ولم يقدم في الشفاعة لهم المرسلون، هكذا روينا معناه عن رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

فهذه عقود السنة الهادية وطريقة الأمة الراضية: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]. على حسن توفيقه، وجميل هدايته ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ﴾[3]. فنعمة الله تعالى علينا بالسنة كنعمته علينا بالإسلام، إذ نعمته علينا برسول الله ﴿ﷺ﴾ كنعمته علينا بمعرفته لاقتران طاعته بطاعته، ولحاجة الكتاب العزيز إلى تفسير سنته.

الأحوال والمواجيد[4]:

إعلم أننا مأمورون بالإخلاص لذات الله تعالى، وبتحسين النيات في تصريف الأحوال، وقد حذرنا الله تعالى، وحذرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ أن تدخل الآفات على معتقداتنا، وأحوالنا، وأعمالنا، وأقوالنا، فتفسد علينا كل ذلك، وهذا الموضوع هو

---

(1) سورة الحجر الآية 2.

(2) سورة الجاثية الآية 36.

(3) سورة الأعراف الآية 43.

(4) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 2 ص 158 وما بعدها (بتصرف).

أصل الخير وملاكه، فمن لم يتعلم الإخلاص وتحسين النيات هلك من حيث يحسب أنه يحسن صنعاً، وإني أستحسن أن يكون علم الإخلاص والنيات الواجب الأول بعد علم التوحيد، قال الله الكبير المتعال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [1].

وقال رسول الله ﷺ (ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله تعالى، ومناصحة ولاة الأمر ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم [2]. وقال ﷺ (لا يقبل الله تعالى قولاً إلا بعمل، ولا قولاً وعملاً إلا بنية)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى، والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله عز وجل). فينبغي أن يكون للعبد في كل شيء نية، حتى في مطعمه ومشربه وملبسه ونومه، فإن ذلك كله من أعماله التي يسأل عنها، فإن كانت لله تعالى وفيه كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيل الهوى ولغير المولى كانت في ميزان سيآته، وإن كان ذلك غفلة وسهواً من غير نية ولا عقد طوية ولا حسبة لم يكن له في ذلك شيء، ولم يغن عنه عمله في الآخرة شيئاً، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك في الدنيا على مثال الأنعام التي تتصرف عن غير عقول، ولا تكليف، ولكن بإلهام وتوقيف، ودخل في وصف من قال الله تعالى فيهم: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [3]. أي غفلة وسهواً،

---

(1) سورة البينة الآية 5.

(2) رواه ابن حبان في صحيحه.

(3) سورة الكهف الآية 28.

وقيل: تفريطاً وتضييعاً، فالنية الصالحة هي أول العمل الصالح وأول العطاء من الله تعالى، وهي محل الجزاء، وإنما يكون للعبد من ثواب الأعمال على حسب ما يهب الله تعالى له من النيات.

حقيقة النية:

وصورة النية معنيان، أحدهما: صحة قصد القلب إلى العمل بحسن التيقظ فيه، والثاني: الإخلاص به لوجه الله تعالى ابتغاء ما عنده من الأجر، فكل عمل كان على علم بهذه النية فهو صالح متقبل بفضل الله تعالى وبرحمته، لأن صاحبه قد اتقى الشرك والجهل والهوى، فعمله مرفوع في الخزائن مدخر له الجزاء، وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين، وهما الرياء والهوى، ليكون خالصاً كما وصف الله تعالى الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا فقال: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً﴾[1]. فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصاً ولن تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله تعالى إذا شابها رياء بخلق أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة، لم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة، ولم يقبلها الله تعالى منا فاعتبروا.

وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: أنه من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله تعالى منه غير ذلك شانه الله تعالى، فما ظنك؟، وقال تعالى في تصديق ذلك: ﴿إِن يُرِيدَا

(1) سورة النحل الآية 66.

إِصْلاَحاً يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا﴾[1]، فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح، فذلك هو أول التوفيق من الموفق المصلح للعامل الصالح، وقال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة)[2]. وقال﴿ﷺ﴾(نية المرء خير من عمله) [3]. وقال تعالى في بعض الكتب: (ليس كل كلام الحكيم أتقبل، ولكني أنظر إلى همه وهواه، فمن كان همه وهواه لي جعلت صمته ذكراً ونظره عبراً) [4].

القلب هو محل نظر الله تعالى من العبد:

وهذا داخل في عموم قوله ﴿ﷺ﴾(إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[5]. وقال ﴿ﷺ﴾(إن العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة فتلقى بين يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بذلك وجهي، ثم ينادى الملائكة اكتبوا له كذا واكتبوا له كذا، فيقولون: ربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقال: إنه نواه)[6]. وفي حديث أنس بن مالك ﵁ لما خرج رسول الله ﴿ﷺ﴾في غزوة تبوك قال:

---

(1) سورة النساء الآية 35.

(2) متفق عليه.

(3) أخرجه الطبراني من حديث سهل بن سعد.

(4) ذكره السيوطي في الجامع الكبير

(5) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(6) أخرجه الدارقطني من حديث أنس.

(إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا نصبنا نصباً ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا وهم بالمدينة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: حبسهم العذر فشاركونا بحسن النية)[1]. وقال ﷺ(إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوج بها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) [2]. فأخبر أنه لا عمل إلا بالنية، ثم جعل لكل عبد نية، ثم رد طالبي الدنيا والأزواج إلى نياتهم، وحكم عليهم بها وجعلها نصيبهم من الله تعالى، وفق ذلك لهم أو لم يوفقه، فبطلت هجرتهم بفساد نياتهم، وصارت همتهم بدنياهم وهواهم سبب حرمان ثواب المخلصين لله بحسن نياتهم وطلب آخرتهم، وكان ذلك في الآخرة حسرة عليهم، وفي الدنيا شيناً لهم.

ضعف النية:

وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعف النية، فإذا ضعفت النية قويت النفس، فتمكن الهوى، فإذا قويت النية صح العزم، وضعفت صفات النفس، وينتقل العبد من معصية إلى معصية دونها فيكون تاركاً للأولى بنية الترك لله تعالى، وهذا أنفع له وأحمد عاقبة، وأصلح لقلبه، وأقرب إلى توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوى، وفساد النيات، لأنه يكون حينئذ متقلباً في المعاصي بفساد دينه، وخلط عملاً سيئاً بشيء مثله ودرأ بالسيئة السيئة قبلها، وهذا بخلاف وصف الله تعالى من

(1) أخرجه البخاري وأبو داود عن أنس.

(2) رواه البخاري ومسلم.

قولـه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾[1]. وقولـه: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[2]. ومخالف لأمر رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في قوله: (أتبع السيئة الحسنة تمحها)[3].

معاملة القلوب:

وقال بعضهم: القصد إلى الله تعالى بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه. وقال الأنطاكي: إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح، وقد تلتبس الفضائل بالنقائص لدقة معانيها وخفي علومها كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب، ومن ذلك: (أن رجلاً كان يصلي فدعاه رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، فلم يجبه فظن أن وقوفه بين يدى الله تعالى بالغيب أفضل له، فلما سلم جاءه، فقاله له﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ما منعك أن تجيبنى حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلي، فقال: ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[4]. فكانت إجابة النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أفضل له، لأن صلاته نافلة، وإجابة الرسول فرض عليه.

قال سفيان: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه، ثم وقوفه على حده، ثم إحكامه لحاله التي أقيم فيها، ثم قيامه بعلمه الذي

---

(1) سورة التوبة الآية 102.

(2) سورة الرعد الآية 22.

(3) رواه الترمذي عن أبى ذر.

(4) سورة الأنفال الآية 24.

فتح له، فيبتديء العمل بما افترض عليه بعد اجتنابه ما نهى عنه مبلغ علمه ووسع وجده، لا يشتغل بطلب فضل حتى يحكم عمل فرض، لأن الفضل ربح لا يصح إلا بعد رأس المال، ولكنه فضل آفة قاطعة، فمن سلم منها حاز فضله، ولكل أمر نفيس مؤنة ثقيلة فمن تحملها أدرك نفيسها، ومن تعذرت عليه السلامة فهيهات أن يصبر إلى فضل كرامة، ومن لم يصبر على تحمل غرامة، لم يدرك علو مقامه، وقد يلتبس التكلف بالإخلاص وإظهار العلم بظهور التزين به. قال الثوري، رحمه الله: (زين نفسك بالعلم ولا تزين به)، أي أدبها لله عز وجل، فتكون زينا في أوليائه، ولا تتزين به عند الناس ليمدحوك عليه.

وقال ﷺ(إذا دعي أحدكم للطعام فإن كان مفطراً فليجب، وإن كان صائماً فليقل أني صائم)، فأمره بإظهار عمله وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر في قلب أخيه وجداً أفضل من إخفائه لنفسه مع تفسير ذلك في قلب أخيه، لتفضيل العمال على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل فإنما يعطى الثواب على قدر العامل لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء عز وجل على غيره في العمل الواحد.

تعريف النفس وتصريف مواجيد العارفين [1]:

إذا عرف الإنسان ما جبلت عليه النفس ومعاني ما هي مفطورة عليه، ظهر له جلياً أنها لا تقبل مواجيد اليقين إلا بالجهاد الأكبر، ويكون المجاهد عالماً بما به يكون جهاده في ذات الله تعالى أو في سبيله، وبذلك تزكو نفسه، ويتحلى بأحوال

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ج 1 ص 84 وما بعدها (بتصرف).

أهل المقامات، وبمواجيد العارفين. إذا تقرر ذلك فاعلم أن النقصان يبدو من الغفلة، والغفلة تنشأ من آفات النفس، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون وهو ابتلاؤها، لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقواها. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1]، لتفزعوا إليه فتقولوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾[2]، وكما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[3]. و ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[4]. ثم قال: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[5]. وقال: ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[6]. فأخبر عن وصفه بالعجلة، ثم أمره بتركها للبلوى، فإن نزلت السكينة وهي مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن منفسها، وإن حجب القلب بالغفلة وهي علامة على الافتقار والتضرع، تحركت النفس بطبعها فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل، وإن تحركت بوصفها فبالابتلاء والعدل، فأول الابتلاء اختلافها، وأول اختلافها خلافها، ومقدمته الهمة، وبابه السمع، وهو طريق إلى الكلام والنظر، والقول طريق إلى الشهوة، والشهوة مفتاح الخطيئة، والخطيئة مقام من النار حتى يزحزح غيها الجبار، بالتوبة في الدنيا والعفو في العقبى.

(1) سورة البقرة الآية 132.

(2) سورة الأعراف الآية 126.

(3) سورة الإسراء الآية 11.

(4) سورة الأنبياء الآية 27.

(5) سورة الأنبياء الآية 27.

(6) سورة النحل الآية 1.

وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشد من النار، كما حدثت عن بعضهم، قال: لأن أبتلى بدخول النار أحب إلى من أن أبتلى بمعصية، قيل: ولم؟ قال: لأن في المعصية مخالفة ربي وسخطه، وفي النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه، قال: فسخطه أعز إليَّ وأعظم من تعذيب نفسي. وكذلك حدثونا في معناه عن بعض الموقنين من العمال أنه قال: ركعتان تتقبل مني أحب إلي من دخول الجنة، قيل: وكيف؟ قال: لأن في الركعتين رضا ربى عز وجل ومحبته، وفي الجنة رضاي وشهوتي، فرضا ربي عز وجل أحب إليَّ من محبتي.

وقد قال وهيب بن الورد المكي في لبن سئل أن يشربه، فلم يفعل لأنه سأل عن أصله فلم يستطبه، فقالت له أمه: إشرب فإنى أرجو إن شربته أن يغفر الله لك، فقال: ما أحب أن أشربه وإن الله يغفر لى، قالت: ولم؟ قال: لا أحب أن أنال مغفرته بمعصية.

وصف النفس:

لوصف النفس معنيان: الطيش والشره، فالطيش عن الجهل، والشره عن الحرص، وهما فطرة النفس. فمثلها في الطيش كمثل كرة أو جوزة في مكان أملس منحدر سكونها بالمنة، فإن أشرت إليها وحركتها أدنى حركة تحركت بوصفها، وهو صفتها واستدارتها. وصورتها في الشره المتولد من الحرص، على صورة الفراشة وأنها تقع في النار جاهلة شرهة تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها، فإذا وصلت إلى شيء منه لم تقتنع بيسيره لشرهها، فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته، وهو نفس المصباح فتحترق، ولو قنعت بقليل الضوء عن بعد سلمت،

فكذلك النفس في طيشها الذي يتولد من العجلة، وفي شرهها الذي ينتج من الحرص والطمع، وهما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة، لأنه طمع في الخلود فحرص على الأكل. وقد مثل بعضهم النفس في شرهها بمثل ذباب مرَّ على رغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله، وآخر مر به فدنا من بعضه فنال حاجته، فرجع إلى ورائه سالماً.

وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز، لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى لا يكون له مخلص لأن القز يلتف عليه، فيروم الخروج منه فيشمس فيقتل نفسه ويصير القز لغيره، وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه، وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت لئلا يقطع القز وليخرج القز صحيحاً، فهذه صورة المكتسب الجاهل، الذي أهلكه أهله وماله فتنعم ورثته بما شقي به، فإن أطاعوا به كان أجره لهم وحسابه عليه، وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية، لأنه أكسبهم إياها به، فلا يدري أي الحسرتين عليه أعظم؟ إذهابه عمره لغيره، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره.

وجبلات النفس الأربعة هي أصول ما تفرع من هواها، وهي مقتضى ما فطرها عليه مولاها، أولها الضعف: وهو مقتضى فطرة التراب، ثم البخل: وهو مقتضى جبلة الطين، ثم الشهوة: وموجبها الحمأ المسنون، ثم الجهل: وهو ما اقتضاه موجب الصلصال، وهذه الصفات على معاني تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج ففيه بدء الأمت والاعوجاج: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

(1) سورة الأنعام الآية 96.

ثم إن النفس مبتلاة بأوصاف أربعة متفاوتة، أولها معاني صفات الربوبية نحو الكبر والجبرية وحب المدح والعز والغنى. ومبتلاة بأخلاق الشياطين، مثل: الخداع والحيلة والحسد والظنة. ومبتلاة بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح، وهي مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل الخوف والتواضع والذل بمعنى ما قلناه. قيل: إنها خلقت متحركة، وأمرت بالسكون وأنى لها ذلك؟ إن لم يتداركها المالك، وكيف تسكن بالأمر إن لم يسكنها محركها بالخير.

إخلاص العبودية:

فلا يكون العبد عبداً مخلصاً حتى يكون للمعاني الثلاثة محصلا، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصاً من المعاني التي هي بلاؤه من صفات الربوبية. فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الإخلاص في المعاملة عند العاملين، وبذلك رفعوا إلى مقامات القرب، وذلك أنه لا يكون عندهم عبداً، حتى يكون مما سوى الله عز وجل حراً، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد؟ لأن ما قاده إليه فهو إلهه، وما ترتب عليه فهو ربه، وهذا شرك في الإلهية عند المتألهين، ومزج بالربوبية عند الربانيين، فهو ملك متعوس منكوس بدعاء الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾إذ يقول: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الزوجة، تعس عبد الحلة)[1]. فهؤلاء عبيد العدد الذين قال مولاهم: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً {93} لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ

(1) رواه البخاري عن أبي هريرة.

عَدّاً﴾[1]. أصحاب النفوس الأمارة بالسوء المسولة الموافقة للهوى المخالفة للمولى. ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً﴾ [2]. إلى آخر وصفهم، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية، هم عباد الرحمن، أهل العلم والحكمة، علمهم من لدنه، واختارهم لنفسه.

بم يكون المريد بدلاً؟!:

ولا يكون المريد بدلاً حتى يبدل بمعاني صفات الربوبية صفات العبودية، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم، فعندها يكون بدلاً مقرباً، والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها، وتسخر له فيسلط عليها، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيق عليها، ولا توسع لها، فإن ملكتها ملكتك، وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك، فإن أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها، واحتبسها عن معتاد بلاها، فإن لم تمسكها انطلقت بك، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسباب هواها، وحبس موارد شهواتها، وإلا قويت عليك فصرعتك، فأول الملكة لها أن تحاسبها في كل ساعة، وتراقب حسبتها في كل وقت، وتقف عند كل همة من خواطرها، فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت، وبادرت الفوت في إمضائها، وإن كانت الهمة لغير الله تعالى سابقت وبادرت في محوها، لئلا تثبت وعملت في الاستبدال بها كيلا

(1) سورة مريم الآية 93-94.

(2) سورة الفرقان الآية 63.

تستبدل بك. وفي تأويل الخبر المروي: (البر يزيد في العمر)[1]. وهو معنى الدعاء المشهور من قول الناس: جعل الله في عمرك البركة، وقد بورك له في عمره فإن البركة في العمر أن تدرك في عمرك القصير بيقظتك، ما فات غيرك من عمره الطويل بغفلته، فيرتفع لك في سنة ما لا يرتفع له في عشرين سنة، وللخصوص من المقربين في مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفيع الدرجات، وتدارك ما فات عند أذكارهم، وأعمال قلوبهم اليسيرة في هذه الأوقات، فكل ذرة من ذكر بتسبيح أو تهليل أو حمد أو تدبر وتبصرة وتفكر وتذكرة بمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو إلى قريب، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم بنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون، مثل العارفين فيما ذكرته من قيامهم بمشاهدتهم، ورعايتهم لأمانتهم، وعهدهم في وقت قربهم وحضورهم، مثل العامل في ليلة القدر العمل فيها لمن وافقها. خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر، وروينا عن على عليه السلام أنه قال: (كل يوم لا يعصى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد). وكان الحسن إذا تلا قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾(2). قال: يا إخواني، هي والله أيامكم هذه، فاقطعوها بالجد والاجتهاد ولا تضيعوها فتخلوها فراغاً من حسن المعاملة، وبطالتك فيها عن الشغل بمعادك المحصول عليك منها كما قال المبطلون: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[3]. يعني في الأيام الخالية

---

(1) رواه ابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ثوبان.

(2) سورة الحاقة الآية 24.

(3) سورة الأنعام الآية 31.

التي هي محصولهم ومرجعهم ومثواهم، وكما قالت النفس الأمارة بالسوء: ﴿يَا حَسْرَتَى علَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[1] يعني أيام الدنيا التي ضيعت العمر فيها فخلت من الثواب والجزاء غداً، وهذا أحد الوجهين في قوله: "الأيام الحالية". والوجه الآخر (الخالية) أي: الماضية، خلت أوقاتها وخلدت أحكامهما وذهبت شهواتها وبقيت عقوباتها.

محاسبة النفس:

فإن قصرت عن هذه المحاسبة للحبيب ولم يكن كل مقام المراقبة للرقيب، ولا مكان المحاسبة للحبيب، فلا يفوتنك مقام الورعين ولا تبن عن حال التائبين، وهو أن تجعل لك وردين في اليوم والليلة لمحاسبة النفس ومواقفتها مرة بعد صلاة الضحى لما مضى من ليلتك، وما سلف من غفلتك، فإن رأيت نعمة شكرت الله، وإن رأيت بلية استغفرت الله، فإن وجدت في حالك أوصاف المؤمنين التي وصفهم الله عز وجل ومدحهم عليها، رجوت وطمعت واستبشرت، وإن وجدت من قلبك وحالك وصفاً من أوصاف المنافقين، أو خلقاً من أخلاق الجاهلين التي ذمهم الله عز وجل بها، ومقتهم عليها، حزنت وأشفقت وتبت من ذلك واستغفرت.

والمرة الثانية أن تحاسب نفسك بعد الوتر وقبل النوم، لما مضى من يومك من طول غفلتك، وسوء معاملتك، وما فعلته من أعمالك، كيف فعلتها، ولمن فعلتها، وما تركته من سكوتك وصمتك، لم تركته، ولمن تركته، فتتفقد الزيادة والنقصان، وتعرف بذلك التكلف والإخلاص من حركتك وسكونك، فما تحركت فيه

(1) سورة الزمر الآية 56.

وسكنت لأجل الله عز وجل به فهو الإخلاص، ثوابك فيه على الله عز وجل، عند مرجعك إليه، فاعمل في الشكر على نعمة التوفيق وحسن العصمة في التهلكة. وما سكنت فيه أو تحركت لهواك وعاجل دنياك فهو التكلف الذي أخبر رسول الله ﴿ﷺ﴾(أنه هو والأتقياء من أمته براء من التكلف)[1]. وقد استوجبت فيه العقاب عند نشر الحساب، إلا أن يغفر المولى الكريم الوهاب فاعمل حينئذ في الاستغفار بعد حسن التوبة، وجميل الاعتذار، وخف أن يكون قد وكلك إلى نفسك فتهلك، فلعل مشاهدة هذين المعنيين من خوف ما سلف منك، والطمع في قبول ما أسلفت يمنعك من المنام، ويطرد عنك الغفلة، فلتحي ليلتك بالقيام، فتكون ممن وصف الله عز وجل في قوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[2]. وقد قال بعض السلف: كان أحدهم يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه.

وقد قال بعض العلماء: من علامة المقت أن يكون العبد ذاكراً لعيوب غيره، ناسياً عيوب نفسه، ماقتاً للناس على الظن، محباً لنفسه على اليقين، وترك محاسبة النفس ومراقبة الرقيب من طول الغفلة عن الله عز وجل، والغافلون في الدنيا هم الخاسرون في العقبى، لأن العاقبة للمتقين، قال الله عز وجل، ﴿وَأُولَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ {108} لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرونَ﴾[3]. وطول الغفلة من العبد على طبائع القلب فقد المعبود، والغفلة في الظاهر غلاف القلب في الباطن

---

(1) أخرجه الدارقطني والفردوسي من حديث الزبير بن العوام.

(2) سورة السجدة الآية 16.

(3) سورة النحل الآية 108-109.

تقول العرب: غفلة وغلفة بمعنى كما تقول جذب وجبذ، وخشاف وخفاش، وطبائع القلب على ترادف الذنب بعضه فوق بعض وهو الران الذي يتعقب الكسب فيكون عقوبة له، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1]. قيل: المكاسب الخبيثة وأكل الحرام، وفي التفسير هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب وأصل الرينة الميل والغلبة وهو التغطية أيضاً، يقال: ران عليه النعاس إذا غلبه، ورانت الخمر على عقله أي غطته.

وأصل ترادف الذنوب من إغفال المراقبة، وإهمال المحاسبة، وتأخير التوبة، والتسويف بالاستقامة، وترك الاستغفار والندم، وأصل ذلك كله هو حب الدنيا وإيثارها على أمر الله عز وجل وغلبة الهوى على القلب، ألم تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾[2]. إلى قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[3]. وقال في دليل الخطاب: ﴿نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾[4]. يعني إيثار الدنيا، لأن صريح الكلام، وقع في وصفهم بالطغيان، وإيثار الحياة الدنيا ثم قال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ﴾[5]. فاتباع الهوى عن طبائع القلب وطبائع القلب عن عقوبة الذنب وميراث العقاب الصمم عن فهم الخطاب، أما سمعته يقول: ﴿لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

(1) سورة المطففين الآية 14.

(2،2) سورة النحل الآية 107-108.

(3) سورة النازعات الآية 40.

(4) سورة محمد الآية 16.

(5) سورة الأعراف الآية 100.

فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾[1]. وقد جعل علي عليه السلام الغفلة مقاماً من مقامات الكفر، فقال في حديثه الطويل: (فقام إليه سلمان فقال: أخبرنا عن الكفر على ما بني؟ فقال: على أربع مقامات، على الشك والجفاء والغفلة والعمى، فإذا كثرت غفلة القلب قل إلهام الملك للعبد، وهو سمع القلب، لأن طول الغفلة يصمه عن السمع، وعدم سماع الكلام من الملك عقوبة الخطايا، وتثبيت الملك للعبد على الخير والطاعة وحي من الله عز وجل إليهم، وتفضيل للعبد، أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[2]. وفي الخبر: (أن آدم عليه السلام حجب عن سماع كلام الملائكة فاستوحش بذلك، فقال: يا رب مالى لا أسمع كلام الملائكة، فقال خطيئتك يا آدم). فإذا لم يسمع العبد كلام الملائكة لم يفهم كلام الملك، وإذا لم يسمع الكلام لم يستجب للمتكلم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[3].

المراقبة والمشاهدة:

إعلم أن مشاهدة المقربين هي أول مراقبة المشاهدين، وذلك أن من كان مقامه المراقبة كان حاله المحاسبة، ومن كان مقامه المشاهدة كان وصفه المراقبة، فأول شهادة المراقب هو أن يعلم يقيناً أن لا يخلو في كل وقت- وإن قصر- من أحد ثلاثة معان:

---

(6) سورة الأنفال الآية 12.

(2) سورة الأنفال الآية 12.

(2) سورة الأنعام الآية 36

- المعنى الأول: أن يكون لله عز وجل عليه فرض، والفرض: على ضربين شيء أمر بفعله، أو شيء أمر بتركه، وهو اجتناب المنهي.

- والمعنى الثاني: ندب حث عليه وهو المسابقة بخير يقربه إلى الله عز وجل، والمسارعة بعمل بر يبتدره قبل فواته.

- والمعنى الثالث: شيء مباح فيه صلاح جسمه وقلبه.

وليس للمؤمن وقت رابع، فإن أحدث وقتاً رابعاً فقد تعدى حدود الله: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾[1]. وقد أحدث في دين الله سبحانه وتعالى، ومن أحدث في دين الله فقد سلك غير طريق المتقين، ألم تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[2]. فهل ترى بين هذين وقتاً يجهل، أو هوى كما لا ترى بين الليل والنهار وقتاً ثالثاً، فالذكر الإيمان والعلم، فهذان ينتظمان جهل أعمال القلوب، والشكر والعمل بأخلاق الإيمان وأحكام العلوم، وهذان يشتملان على جميع أعمال الجوارح، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً﴾[3]. وقال: ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]. وقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ﴾[5]. إلى قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ

(1) سورة الطلاق الآية 1.

(2) سورة الفرقان الآية 62.

(3) سورة ص الآية 13.

(4) سورة آل عمران الآية 133.

(6،5) سورة البقرة الآية 151-152.

وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[2]. وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾وقد عوتب في طول قيامه حتى تورمت قدماه فقال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)[3]. ففسر الشكر بالعمل، كما فسر الله تعالى العمل بالشكر. والوقت الثالث هو المباح، داخل فيهما لأنه معين عليهما، وبه استقامة العبد فيهما.

وقد كان بعض العلماء يقول لنا: (فى معاصي الطاعات هم، وشغل عن معاصي المخالفات) فيبتديء العبد المراقب فينظر بيقظته في أدنى وقت هل لله عز وجل فيه فرض من أمر أو نهي، فيبدأ بذلك حتى يفرغ منه، فإن لم يجد فإنه لا يخلو من نوادب وفضائل، فيبتديء بالأفضل، فإن لم يكن عمل في أدنى الفضيلتين فيأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن يومه لأمسه، ومن ساعته ليومه، ومن دنياه لآخرته، كما أمره مولاه سبحانه وتعالى بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[4]. أي لا تترك أن تأخذ نصيبك من الدنيا، ولا تترك أن تأخذ نصيبك للآخرة من دنياك، وهو أن تحسن كما أحسن الله إليك، ولا تطلب الفساد في الدنيا، فتكون قد نسيت نصيبك من الآخرة، فيتركك الله من جزيل ثوابه، الذي أعد لأحبابه كما قال: ﴿نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[5]، أي تركوه فتركهم، وتركهم له ترك نصيبهم منه، وتركه عز وجل لهم ترك محابهم من الآخرة، فيبتديء العبد الفطن،

---

(7) سورة النساء الآية 147.

(8) رواه البخاري ومسلم عن عائشة.

(4) سورة القصص الآية 77.

(5) سورة التوبة الآية 67.

فيأخذ من عمره ووقته، فيجعله لآخرته التي أيقن بها، ثم يأخذ من وقته أعلى ما فيه مما يختص به الوقت، ولا يوجد إلا فيه، يفوت دركه بفوت وقته، وهو أفضل ما يقدر عليه مما أداه علمه إليه فيجعله لمولاه.

شهود نعمة أو شهود منعم:

ثم إن العبد لا يخلو في كل وقت وإن قل من أحد مقامين، مقام نعمة أو مقام بلية، فحاله عن مقام النعمة الشكر، وحاله عن مقام البلية الصبر، ثم ليس يفقد أحد مشاهدتين، شهود نعمة أو شهود منعم، من حيث لا يخلو من وجود مالك ومملوك، فعليه الخدمة للموجود، وعليه الحضور في خدمة المعبود، والمراقبة علامة الحضور، والمحاسبة دليل المراقبة، ويكون له أيضاً في أدنى أوقاته، وهي الوقت الثالث الذي هو لمباحه، وهو أدنى أحوال المؤمن يكون له فيه مشاهدة منعم أو شهود نعمة، لئلا يذهب وقته هذا أيضاً فارغاً من دنياه، ولا يعود عليه شيء من ذكر مولاه، أو يذكر نعمة تدل على منعم أو تخرجه إليه فينفعه ذلك في عقباه، إذ العاقبة للمتقين، فإن شهد منعماً اقتطعه الحياء بالسكينة والوقار للهيبة وهذا مخصوص، وإن شهد نعمة استغرقه بالشكر والاعتبار، فكان لديه تبصرة وتذكار، وهذا لعموم الخصوص، قال الله عز وجل في وصف الأولين: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ {49} فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾[1]. وقال في المقام الثاني: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾[2]. وقال في مقام الأولين: ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ

(1) سورة الذاريات الآية 49-50.

(2) سورة المؤمنون الآية 84-85.

كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[1]. إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾. وقال في وصف الآخرين: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾[2]. إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾. ومن علامة العاقل: أن يكون مقبلاً عن شأنه، حافظاً للسانه، عارفاً بزمانه، مكرماً لإخوانه.

مقامات العباد في مشاهدة الملك:

ثم إن العباد في مشاهدة الملك على أربعة مقامات، كل عبد يشهد الملك من مقامه بعين حاله:

1- فمنهم من ينظر إلى الملك بعين التبصرة والعبرة، فهؤلاء أولو الألباب الذين كشفت عن قلوبهم الحجب، وهم أولو الأيدي والأبصار الذين أقامهم مقام الاعتبار، وهذا مقام العلماء الذين هم ورثة الأنبياء.

2- ومنهم من ينظر إلى الملك وأهله بعين الرحمة والحكمة، وهذا مقام الخائفين.

3- ومنهم من ينظر إلى الملك وأهله بعين المقت والبغضة، وهذا مقام الزاهدين.

4- ومنهم من ينظر إلى الملك بعين الشهوة والغبطة، وهذا مقام الهالكين، وهم أبناء الدنيا الذين لها يسعون، وعلى فوتها يتحسرون.

---

(3) سورة الذاريات الآية 51.

(4) سورة المؤمنون الآية 88- 89.

فإن أعطى العبد النظر إلى الملك بعين العبرة والحكمة، أدخله الملك على الملك فاستغنى به عما سواه، وإن أعطى الخائف النظر إلى الملك بعين الرحمة اغتبط بمقامه، وعظمت لربه تعالى عليه النعمة، وإن أعطى الزاهد النظر إلى الملك بعين البغضة، أخرجه الملك عن الملك بالزهد فيه، فعوضه من فوت الملك الصغير درك الملك الكبير. ومن ابتلى بالنظر إلى الملك بعين الغبطة والحسرة، أوقعه الملك في الهلكة، فسلك طريق المهالك.

شهادة العارفين:

ومن شاهد معنى خلق من أخلاق الذات، أو معنى وصف من الصفات، كان مقتضاه ما يوجب الخلق أو الوصف، من شهود نعيم أو عذاب، وهو مقام له في التعريف يرفعه إلى مقام التعرف، وهذه شهادة العارفين من كل ما شهدوه من الأفعال التي تدل على معاني الأخلاق والأوصاف، لأنه أظهرها عنه ليستدل عليه بها، وينظر إليه منها، فأما من شهد شهوة من شهوات النفس، بعين الهوى، أخرجته إلى الأهواء، فتخطفه الشياطين، وهوت به الريح في مكان سحيق، وتنكب طريق المسالك إلى المولى، التي تخرجه إلى القريب، وتقعده عند الحبيب: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1].

(1) سورة القمر الآية 55.

حياة أهل البعد:

فمن فاته القرب وقع في التيه والبعد، فهو اليائس المغبون الخائن المفتون، الذي يكون أبداً يومه شراً من أمسه، وغده شراً من يومه، فالموت خير له من حياته، لأن حياته عن الحبيب تبعده، وبقاؤه عن السبيل يصده، ووجده لهواه يفقده، وظهور نفسه عليه من السوابق يقعده، لأنه إذا كان في إدبار، وكان إدباره في إقبال، فقد فاته عمره عن آخره كفوت وقت واحد، وفوت شيء واحد، لأن العمر ليس مما يتأتى فوته دفعة واحدة، وإنما يفوت جزءاً، جزءاً، على حكمة من الله عز وجل، وتمهل واستدراج منه، وقتاً بعد وقت، ويوماً بعد يوم، وعلى هذا سائر أوقاته، تارة يقطعه عنه وتارة يصله بغيره، حتى تفنى الأيام بالفوت، وتنقضي الأوقات إلى الموت، وفي ذلك يسبل عليه الستر ليغتر، ويسبغ عليه النعم كيلا يعلم، ويديم له العوافى لئلا يفطن، ويبسط له الأمل ليزداد من سوء العمل، ويقبض عنه الأجل ليقبض منه الوجل، وينشر له الرجاء ويطوى عنه الخوف، حتى يبغتهم فجأة من حيث أمنهم، ويأخذهم بغتة في حال غمرتهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[1].

الوصول بحفظ الأصول:

المخدوع هو من كان طلب الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض، ومن شغل بغيره عن نفسه فقد مكر به، وقال سفيان الثوري وغيره: إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول، فأفضل شيء للعبد معرفته بنفسه، ووقوفه على حده، وإحكامه لحاله التي أقيم فيها، فابتداؤه بالعمل بما افترض عليه، بعد اجتنابه ما نهى عنه بعلم

(1) سورة النمل الآية 50.

يدبره في جميع ذلك، وورع يحجزه عن الهوى في ذلك، ولا يشتغل بطلب فضل حتى يفرغ من فرض، لأن الفضل لا يصح إلا بعد حوز السلامة، كما لا يخلص الربح للتاجر إلا بعد حصول رأس المال، فمن تعذرت عليه السلامة كان من الفضل أبعد، وإلى الاغترار أقرب، وقد تلتبس الفضائل بالفرائض لدقة معانيها وخفي علومها، فيقدم العبد النفل، وهو يحسب أنه الواجب.

فمن ذلك أن أبا سعيد رافع بن المعلى كان قائماً يصلي، فدعاه رسول الله ﴿ﷺ﴾فلم يجبه- فظن أنه وقوفه بين يدي الله عز وجل بالغيب أفضل له- فلما سلم جاءه، فقال له رسول الله ﴿ﷺ﴾ما منعك أن تجيبني حين دعوتك؟ فقال: كنت أصلي، فقال: ألم تسمع الله عز وجل يقول: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]. فكأن رسول الله ﴿ﷺ﴾دعاه وهو في الصلاة، ليفيده باطن العلم، أو لينظر مبلغ علمه كيف يعمل، وكأن إجابته لرسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أفضل من صلاته، لأن صلاته نافلة له، فهو مطيع لله عز وجل في الغيب باختياره، وإجابته لرسول الله ﴿ﷺ﴾أفضل من صلاته، لأنها فريضة عليه، فهو مطيع لله تعالى في الشهادة بإيجابه، ففضل استجابته لرسول الله ﴿ﷺ﴾على صلاته لنفسه، كفضل الفرض على النفل، وقد قال سبحانه: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾(2). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ

(1) سورة الأنفال الآية 24.

(2) سورة النساء الآية 80.

ٱللَّهَ﴾(1). والله تعالى معه في المكانين معاً، وهو عند الرسول ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾على يقين، فعبادة الله عز وجل هاهنا أبلغ في مرضاته، وأثوب له في آخرته.
مسألة أصولية:

سر استنباط العلماء بالله تعالى وبكتابه سبحانه، يؤخذ من مثل هذه الأحاديث، ومن عمل الصحابة رضوان الله عليهم، يظهر ذلك جلياً لمن منحهم الله تعالى الفقه في دينه. يقول أبو طالب المكي: وفي هذا الحديث دليل أن الخبر إذا ورد في أمر، كان على جملة عمومه، وكلية ما تعلق به، حتى تخص السنة أو الإجماع بعض شأنه، ومن ذلك أن قول الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(2). أن ظاهره مقصور على الاستجابة للرسول ﴿ﷺ﴾بالإيمان والطاعة في أوامر القرآن لا الإجابة له في النداء خاصة في الصلاة، وهذا هو الذي حمله أبو سعيد بن المعلى وتأوله من الآية فأشكل عليه، ومثل هذا فعل عمار في التيمم، لما نزلت آية الإباحة في التيمم في صلاة الفجر وهم في سفر، فقال عز وجل: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم﴾(3). ولم يكن يسمع من النبي ﴿ﷺ﴾في تخصيص بعض اليد شيئاً، قال: فتيممنا إلى المناكب، واستوعب جملة اليد لعموم الخطاب، حتى أخبر النبي ﴿ﷺ﴾بالتيمم إلى المرفقين، وفي خبر إلى الزند باختلاف الروايتين. فلذلك اختلف العلماء في تبعيض اليد في المسح، وكذلك العمل فيما ورد مجملاً، أن يستعمل في الجملة حتى تخصصه السنة.

---

(1) سورة الفتح الآية 10.

(2) سورة الأنفال الآية 24.

(3) سورة النساء الآية 43.

فمن ذلك ما روي (أن رجلين على عهد رسول الله ﴿ﷺ﴾تآخيا في العبادة فاعتزلا الناس، فقال أحدهما لصاحبه: هلم اليوم فلننفرد عن الناس، ونلزم الصمت فلا نكلم من يكلمنا فإنه أبلغ في عبادتنا، فاعتزلا في خلوة وصمتا، فمر بهما رسول الله ﴿ﷺ﴾، فسلم عليهما فلم يردا عليه السلام، قال: فسمعناه يقول حين جاوزنا: هلك المتعمقون المتنطعون) (1). فاعتذرا إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾، وتابا من ذلك إلى الله عز وجل.

وروينا (أن عمر ﵁ كان يعس ليلة مع ابن مسعود، فاطلع من خلل الباب، فإذا شيخ بين زق خمر وقينة تغنيه، فتسور عليه وقال: ما أقبح بشيخ مثلك أن يكون على مثل هذه الحال، فقام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، أناشدك الله إلا أنصفتني حتى أتكلم، فقال له: قل، فقال: إن كنت قد عصيت الله عز وجل في واحدة فقد عصيته أنت في ثلاث، قال: وما هي؟ قال: قد تجسست، وقد نهاك الله عز وجل عن ذلك، وتسورت، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (2). ودخلت بغير إذن، وقد قال الله عز وجل: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾(3). فقال عمر: صدقت، فهل أنت غافر لي ذلك؟ فقال: غفر الله لك. فخرج عمر وهو يبكى حتى علا نشيجه وهو يقول: ويل لعمر إن لم يغفر الله له، تجد الرجل كان يتخفى بهذا عن ولده وجاره، فالآن يقول: رآني أمير المؤمنين). ونحو ذلك.

---

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(2) سورة البقرة الآية 189.

(3) سورة النور الآية 27.

فضل العمال على الأعمال:

وفي الخبر: (إذا دعي أحدكم إلى طعام فإن كان مفطراً فليجب، وإن كان صائماً فليقل إني صائم). فأمره بإظهار عمله، وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عمله من حيث لا يؤثر في قلب أخيه وجداً، أفضل من إخفائه لنفسه مع تأثير ذلك في قلب أخيه، لتفضيل المؤمن وحرمته على الأعمال، إذ الأعمال موقوفة على العامل، وإنما يعطى الثواب على قدر العامل، لا على قدر العمل، لتضعيف الجزاء لمن يشاء على غيره في العمل الواحد، فدل ذلك أن المؤمن أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل، مع وجد أخيك عليك، لأن أخيك إذا دعاك إلى طعام صنعه لك فلم تجبه، ولم تعتذر إليه عذراً بيناً يقبله منك ويعرفه، شق عليه إن كان صادقاً في دعائك.

حال للعبد أولى من حال غيره:

وما هو حال للعبد وأولى به من حال غيره، ما رواه أبو نصر التمار أن رجلاً جاء يودع بشر بن الحرث، وقال: قد عزمت على الحج، أفتأمرني بشيء؟ فقال له بشر: كم أعددت للنفقة؟ قال: ألفي درهم، قال: فأي شيء تبتغى بحجك، نزهة أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله عز وجل؟ قال: أبتغي مرضاة الله عز وجل، قال: فإن أصبت رضا الله عز وجل وأنت في منزلك، وتنفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله عز وجل، أتفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس، مدين يقضي بها دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يحيي عياله، ومربي يتيم يفرحه، وتغيث لهفاناً، وتكشف ضر محتاج، وتعين رجلاً ضعيف

اليقين، وإن قوى قلبك أن تعطيها لواحد فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب امريءِ مسلم، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك، فقال: يا أبا النصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس إلى أن تقضى به وطراً يشرع إليه، فظاهرت أعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

وفى نحوه قيل له أيضاً: إن رجلاً غنياً يصوم كثيراً ويصلي كثيراً، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، إنما حال هذه إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه نفسه، ومن صلاته لنفسه، مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

وقد يكون اختفاء الأوجب من الفرائض والتباسه بالفضائل، محنة من الله عز وجل لعباده وحكمة له فيهم، فيرتكبون التأويل للسعة، ويتركون الضيق لخفائه عليهم لينفذ فيهم العلم، ويجري عليهم الحكم، ويكون ذلك تأديباً لهم وتعريفاً، ومزيداً في التسليم وتوفيقاً.

لا عتاب على الحبيب الرشيد:

وقد فهم البعض أن الله تعالى عتب على نبيه ﴿ﷺ﴾، ووعظه وزجره في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾(1). فقالوا: إن رسول الله ﴿ﷺ﴾لم يغتم في عمره، كغمه حين أنزل عليه سورة عبس، لأن فيها عتباً شديداً على مثله لأنه الحبيب الرشيد، ومع ذلك لم يقصده في الخطاب، فيكون أيسر للعتاب، بل كشف ذلك للمؤمنين،

(1) سورة عبس الآية 1.

ونبه على فعله عباده المتقين، لأن معنى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ أي: انظروا أيها المؤمنون أو اعجبوا إلى الذي: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى {1} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى﴾، وكان المقصود بذلك هو الوليد بن المغيرة.

ولذلك روى أن عمر بن الخطاب ﵁ بلغه أن بعض المنافقين يؤم قومه، فكان لا يقرأ بهم إلا بسورة ﴿عَبَسَ﴾، ليضع من شأن الرسول ﴿ﷺ﴾بذلك عنده وعند قومه، فأرسل فضرب عنقه يستدل بذلك على كفره.

ومثله قولهم أن الله عز وجل قال عاتباً على رسوله﴿ﷺ﴾﴿عَفَا اللّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾(1). ورده أن الله تعالى هو الذي طلب منه ﴿ﷺ﴾أن يأذن لهم فقال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (النور: 62) فكيف يعاتبه على شيء أمره به؟!!. ونحوه:

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾(2). ورده أن الله تعالى فوض رسول الله ﴿ﷺ﴾أن يحل ويحرم عليه كتحريمه ﴿ﷺ﴾للمدينة، وتحريمه كل ذي ناب والحمار الأهلي، فكيف يعاتبه على عمل هو مقام فيه؟!!. وبمعناه قوله عز وجل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾(3). وهذه الآية أيضا ليس فيها عتاب ولا لوم لأن رسول الله كان يطلب من زيد ﵁ أن يمسك زوجته ويحسن إليها، وهو يعلم أنه سيطلقها وأنها ستتزوج برسول الله،

(1) سورة التوبة الآية 43.

(2) سورة التحريم الآية 1.

(3) سورة الأحزاب الآية 37.

فكان رسول الله يردد في نفسه قوله: تخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فأظهر الله ما أخفاه رسول الله في خاطره.

حتى قالت عائشة رضي الله عنها: (لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية). قال صاحب قوت القلوب: والعالم عند العلماء من علم خير الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شر الخيرين فأعرض عنه، لئلا يشغله عن الأخير منهما، وعلم أيضاً خير الشرين ففعله إذا اضطر إليه وابتلي به، وعلم شر الشرين فأمعن في الهرب منه، واحتجب بحجابين عنه. وفي هذه المعاني دقائق العلوم، وغرائب الفهوم، وأدلة للسائلين، وعبرة وآيات للعالمين، فأما شر الشرين ومعرفة الخير من الشر فهو معروف بأدلة العقول وظاهر العلوم.

مراقي المريدين(1):

الخلق محجوبون بثلاث: حب الدرهم، وطلب الرياسة، وطاعة النساء. وقال بعض العارفين: الذي قطع العباد عن الله عز وجل ثلاثة أشياء: :(الصدق في الإرادة، والجهل بالطريق، ونطق علماء السوء بالهوى). وقال بعضهم: إذا كان المطلوب محجوباً، والدليل مفقوداً، والاختلاف موجوداً، لم ينكشف الحق، وإذا لم ينكشف الحق تحير المريد.

المريد لا بد له من خصال سبع:

1- الصدق في الإرادة، وعلامته إعداد العدة.

2- لا بد له من التسبب إلى الطاعة، وعلامة ذلك هجر قرناء السوء.

---

(1) (قوت القلوب) جـ 1 ص 94(بتصرف).

3- لا بد له من المعرفة بحال نفسه، وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس.

4- لا بد له من مجالسة عالم بالله، وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه.

5- لا بد له من توبة نصوح، فبذلك يجد حلاوة الطاعة ويثبت على المداومة، وعلامة التوبة قطع أسباب الهوى، والزهد فيما كانت النفس راغبة فيه.

6- لا بد له من طعمة حلال لا يذمها العلم، وعلامة ذلك الحلال المطالبة عنه وحلول العلم فيه يكون بسبب مباح وافق فيه حكم الشرع.

7- لا بد له من قرين صالح يؤازره على ذلك، وعلامة القرين الصالح معاونته على البر والتقوى، ونهيه إياه عن الإثم والعدوان.

فهذه الخصال السبع قوت الإرادة لا قوام لها إلا بها، ويستعين على هذه السبع بأربع، هن أساس بنيانه، وبها قوة أركانه، أولها الجوع. ثم السهر. ثم الصمت. ثم الخلوة، فهذه الأربع سجن النفس وضيقها، وضرب النفس وتقييدها، بهن تضعف صفاتها، وعليهن تحسن معاملاتها، ولكل واحدة من الأربع صفة حسنة في القلب.

الجوع:

فأما الجوع، فإنه ينقص من دم القلب فيبيض، وفي بياضه نوره، ويذيب شحمة الفؤاد، وفي ذوبه رقته، ورقته مفتاح كل خير، لأن القسوة مفتاح كل شر. وفي خبر عيسى عليه السلام: (يا معشر الحواريين جَوَّعُوا بطونكم وعطشوا أكبادكم وأعروا أجسادكم لعل قلوبكم ترى الله عز وجل)، يعني بحقيقة الزهد وصفاء القلب. فالجوع مفتاح الزهد وباب الآخرة، وفيه ذل النفس واستكانتها وضعفها وانكسارها، وفي ذلك حياة القلب وصلاحه، وأقل ما في الجوع إيثار الصمت، وفي الصمت السلامة وهي غاية للعقلاء، وقال سهل رحمه الله: اجتمع الخير كله في

هذه الأربع خصال وبها صار الأبدال أبدالاً: إخماص البطون، والصمت، والسهر، والاعتزال عن الناس. وقال: من لم يصبر على الجوع والضر، لم يتحقق بهذا الأمر.

وروينا عن مكحول: (ثلاث خصال يحبها الله عز وجل، وثلاث يبغضها الله عز وجل، فأما اللاتى يحبها فقلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام، وأما اللاتي يبغض: فكثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم).

السهر:

وقال بعض العلماء: من سهر أربعين ليلة خالصاً، كوشف بملكوت السماء. واعلم أن نوم العلماء عن غلبة النوم، بعد طول السهر بالقيام، مكاشفة لهم وشهود، وتقريب لهم منه وورود. ومن صفة الأبدال أن يكون أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة، ومن سهر بالليل لأجل الحبيب لم يخالفه بالنهار، فإنه أسهره بالليل في خدمته، وفي الخبر: (قيلوا فإن الشياطين لا تقيل، واستعينوا على قيام الليل بقائلة النهار).

فأما النوم: فإن في مداومته طول الغفلة، وقلة العقل، ونقصان الفطنة، وسهوة القلب، وفي هذه الأشياء الفوت، وفي الفوت الحسرة بعد الموت، وروينا عن النبي ﷺ أنه قال: (قالت أم سليمان بن داود لابنها: يا بنى لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تترك العبد فقيراً يوم القيامة). وقيل: (كان شابان يتعبدان في بني إسرائيل، فكانوا إذا حضر عشاؤهم قام فيهم عالمهم فقال: يا معشر المريدين: لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فتخسروا كثيراً).

الصمت:

وأما الصمت: فإنه يلقح العقل، ويعلم الورع، ويجلب التقوى، ويجعل الله عز وجل به للعبد بالتأويل الصحيح والعلم الرجيح مخرجاً، ويوفقه بإيثار الصمت للقول السديد والعمل الرشيد. وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله فيم النجاة؟ قال: (أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)(1). وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ في الخبر الجامع المختصر: (من سره أن يسلم فليلزم الصمت)(2). وفي الخبر: (لا يتقي العبد ربه حق تقاته حتى يخزن من لسانه). وفي الحديث: (لا يصلح العبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)، وقال بعض السلف: (تعلم الصمت كما تتعلم الكلام، فإن يكن الكلام يهديك فإن الصمت يقيك، ولك في الصمت خصلتان، تدفع به جهل من هو أجهل منك، وتتعلم به علم من هو أعلم منك). وعن جماعة من السلف: (أن تسعة أعشار السلامة في الصمت). ويقال: كل كلمة من هزل أو مزح أو لغو يوقف العبد عليها خمس مواقف بتوبيخ وتقرير، أولها: أن يقال له: لم قلت كلمة كذا أكانت فيما يعنيك؟ والثانية: هل نفعتك إذ قلتها؟ والثالثة: هل ضرتك لو لم تقلها؟ والرابعة: ألا سكت فربحت السلامة من عاقبتها؟ والخامسة: هلا جعلت مكانها قول سبحان الله والحمد لله فنعمت ثوابها. ويقال: ما من كلمة إلا وينشر لها ثلاثة دواوين، الديوان الأول: لم، والثاني: كيف، والثالث: لمن، فإن نجا من الثلاث وإلا طال وقوفه للحساب.

---

(1) رواه الترمذي وأبو داود وابن أبى الدنيا والبيهقي.

(2) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن أنس.

وأمـا كثـرة الكـلام: ففيـه قلـة الـورع، وعـدم التقـوى، وطـول الحسـاب، وكثـرة المطـالبين وتعلـق المظلـومين، وكثـرة الأشـهاد مـن الأمـلاك الكـاتبين، ودوام الإعـراض مـن الملـك الكـريم، لأن الكـلام مفتـاح كبـائر اللسـان، فيـه الكـذب والغيبـة والنميمـة والبهتـان، وفيـه شـهادة الـزور، وفيـه قـذف المحصـن، والافـتراء علـى الله تعـالى، وفيـه القول فيما لا يعني، والخوض فيما لا ينفع، وقد جاء في الخبر: (أكثر خطايا ابن آدم في لسانه، وأكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم خوضاً فيما لا يعنيه)(1)، وفي اللسـان التـزين والتصـنع للخلـق، والتحريـف والإحالـة لمعـانى الصـدق، وفيـه المداهنة والمواراة والتملق لأهل الأهواء. وفي اجتماع هذا على العبد شتات قلبه، وفي شتاته تفريق همه، وفي تفريق همه سقوطه من مقام المقربين.

الخلوة:

وأما الخلوة، فإنها تفرغ القلب من الخلق، وتجمع الهم بأمر الخالق، وتقوي العزم على الثبات، إذ في مخالطة الناس وهن العزم وشتات الهم، وضعف النية، والخلوة تقل الأفكار في عاجل حظوظ النفس لفقد مشاهدتها بالأبصار، لأن العين باب القلـب، ومنهـا تـدخل آفاتـه وعنـدها توجـد شـهواته، ولذاتـه، ومـن كثـرت لحظاتـه دامـت حسـراته، والخلـوة تجلـب أفكـار الآخـرة، وتجـدد الاهتمـام بهـا لمـا شـهد بـه الإيقان، وتنسى ادّكار العباد، وتواصل ذكر المعبود، والخلوة من أكبر العوافي وذلك أنه قد جاء في الحديث: (سلوا الله العافية فما أعطى عبد بعد اليقين أفضل من العافية)(2). وفي الخبر: (العزلة عن الناس عافية)، ولا يكون المريد صادقاً حتى يجد

---

(1) رواه الطبراني عن ابن مسعود.

(2) رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة.

في الخلوة من اللذة والحلاوة والمزيد مالا يجده في الجماعة، ويجد في السر من النشاط والقوة ما لا يجده في العلانية، ويكون أنسه في الوحدة، وروحه في الخلوة، وأحسن أعماله في السر.

مخالطة الناس:

وأما مخالطة الناس فإنها تضعف العزم الذي كان قوياً في أعمال البر، وتحل العقد المبرم الذي استوطنه العبد في الخلوة، لقلة المتعاونين على البر والتقوى، وكثرة المتعاونين على الإثم والعدوان، وقوة الطلب والحرص على عاجل الدنيا، لما يعاين من إقبال أهلها عليه، وأعظم ما في مخالطة الناس ومجالسة أهل البطالة وذوي غفلتهم، ضعف اليقين برؤيتهم، وأضر ما ابتلي به العبد وأعمله في هلاكه وأشده لحجبه وإبعاده، ضعف يقينه بما وعد به الغيب وتوعد عليه في الشهادة، وهذا أخوف ما خافه رسول الله ﴿ﷺ﴾على أمته فإنه قال: (أخوف ما أخاف على أمتي ضعف اليقين)(1)، لأن قوة اليقين أصل كل عمل صالح، لأن في قوة يقين العبد سرعة منقلبه، ومع طول مثواه في دار إقامته، إيثار التقلل في الفانى وتقديمه للباقي، وضعف حرصه، وقلة طلبه، وفقد طمعه وفراغه من الاشتغال بعاجله، وإقباله وشغله بما ندب إليه من مستقره، وفي جميع ذلك إخلاصه في أعماله، وحقيقة زهده في تصرف أحواله، وفي قصر أمله وتحسين عمله، ألم تسمع لقوله تعالى:
﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾، أي شغلكم الجمع للمكاثرة حتى حللتم القبور، ثم قال: ﴿كَلَّا

(1) رواه ابن المبارك عن أبي هريرة.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾. (1) أي لشغلكم العمل الصالح للآخرة عن اللعب واللهو الذي هو مقتضى الشك، وذلك في وصف الذي أخبر عنه سبحانه بالتكاثر الذي ألهاه، حتى زار برزخه ومثواه.

وقد جاء في فضل العزلة والانفراد، وفي فضل الصمت، وفي جميع ما ذكرنا من الجوع والسهر، ومن مكابدة الليل ما يكثر جمعه، وفيما نبهنا عليه وأشرنا إليه بلاغ، وهداية لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(1) سورة التكاثر الآية 5.

الفصل الثالث
علوم اليقين

تفضيل علوم اليقين(1):

قبل أن نتكلم على علوم اليقين نبين تفضيلها على سائر العلوم. واعلم أن كل علم من العلوم قد يتأتى حفظه ونشره لمنافق أو مبتدع أو مشرك، إذا رغب فيه وحرص عليه، لأنه نتيجة الذهن، وثمرة العقل، إلا علم الإيمان واليقين، فإنه لا يتأتى ظهور مشاهدته، والكلام في حقائقه إلا لمؤمن موقن، من قبل أن ذلك تقرير مزيد الإيمان، وحقيقة العلم والإيقان، فهو آيات الله تعالى، وعهده عن مكاشفة قدرته وعظمته، وآيات الله تعالى لا تكون للفاسقين، وعهده لا ينال للظالمين، وعظمته وقدرته لا تكون شهادة للزائغين، ولا وجداً للمبطلين، لأن في ذلك توهين لآيات الله وحججه، وانتقاص لبراهينه وقدرته، ودخول الشك في اليقين الذي هو محجة المخلصين، والذين هم بقية الله تعالى من عباده، واشتباه الباطل بالحق الذي هو وصف أهل الصدق الذين هم أدلته عليه من أهل وداده، وهذا أدل دليل على فضل علم المعرفة على غيره.

قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾(2). وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(1). وقال: ﴿إِنَّ فِي

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي ج 1 ص 173 وما بعدها (بتصرف).

(2) سورة الشعراء الآية 197.

ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(2). وقال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(3). وقال عز وجل:

﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (4)﴾. فهؤلاء العلماء بالله تعالى، الناطقون عن الله عز وجل، جعل لهم أنصبة منه مكاناً عنده، ولا يكون ذلك لمن ليس أهلاً له ولا حقيقاً به، لأنهم آيات الله تعالى، وبيناته، وشهوده، وبصائره، كاشفوا طريقه، ومظهروا بيانه، إذ يقول تعالى: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾(5). ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ {3} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(6)، بعد قوله: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(7). مع قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾(8). فنصروه بما نصرهم به، وتحققوا بما حققهم منه، وشهدوا له ما شهد لهم عنه، فكانوا للمتقين إماماً، وإلى الهداية أعلاماً. وقال بعض أهل المعرفة: (من لم تكن له مشاهدة من هذا العلم لم يخل من شرك أو نفاق، لأنه عار من علم اليقين، ومن عرى من اليقين وجد فيه دقائق الشك)، وقال بعض العارفين: من لم يكن له نصيب من هذا العلم، أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النصيب منه التصديق به، وتسليمه لأهله.

---

(1) سورة العنكبوت الآية 49.

(2) سورة الحجر الآية 75.

(3) سورة البقرة الآية 118.

(4) سورة الأنعام الآية 105.

(5) سورة القيامة الآية 19.

(6) سورة الرحمن الآية 3-4.

(7) سورة الروم الآية 47.

(8) سورة الفتح الآية 26.

وقال آخر: من كان فيه خصلتان لم يفتح له من هذا العلم بشيء، بدعة أو كبر. وقالت طائفة من أهله: من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به. وقال بعضهم: أقل عقوبة من أنكر هذا العلم أن لا يرزق منه شيء أبداً. واتفقوا على أنه علم الصديقين، وأن من كان له منه نصيب فهو من المقربين، وينال درجة أصحاب اليمين.

الفرق بين علم التوحيد والعلوم الظاهرة:

واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مباين لسائر العلوم، فالاختلاف في سائر العلوم الظاهرة رحمة، والاختلاف في علم التوحيد ضلال وبدعة، والخطأ في علم الظاهر مغفور، وربما كانت حسنة إذا اجتهد، والخطأ في علم التوحيد وشهادة اليقين كفر، من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى في طلب العلم الظاهر، وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله في التوحيد، ومن ابتدع شيئاً ردت عليه بدعته، وكان مسئولاً عنه، ولم يكن حجة لله تعالى على عباده، ولا غيثاً نافعاً في بلاده، بل كان موصوفاً بالدنيا، وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلاً على الله عز وجل، ولا من دعاة الدِّين، ولا إماماً للمتقين.

الحذر من مخالفة السنة:

وقد جاء في الخبر: (العلماء أمناء الرسل، ما لم يدخلوا في الدنيا فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم)(1) والخبر المشهور (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)(2) وروى عنه ﷺ أنه قال: (مما أخاف على أمتي زلة عالم، وجدال منافق في القرآن)(3)، وكان بعض السلف يقول: (مثل العالم إذا زل مثل سفينة، إذا غرقت غرق معها خلق كثير). ويروى في خبر: (من غش أمتي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، قيل يا رسول الله، وما غش أمتك؟ قال: أن يبتدع بدعة

(1) رواه القضاعي وابن عساكر عن أنس.

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود عن عائشة.

(3) أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء.

في الإسلام يحمل الناس عليها)(1). وكان ابن عباس ﵁ يقول: ويل للعالم من الأتباع، وويل للأتباع من العالم، يزل العالم بزلة فيتبعه عليها فئة من الناس وتبلغ الآفاق، وما أعلم أحداً أعظم جرماً ممن ابتدع في دين الله عز وجل، فنطق في كتاب الله تعالى، وفي علم المعرفة بما لم يأذن به الله، ثم لم يعبأ بسنن رسول الله ﴿ﷺ﴾، الذي هو حجة الله تعالى على جميع خلقه، وطريق مقربيه من عباده، فأضل بذلك عباد الله عز وجل.

وروينا عن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (إن لله تعالى ملكاً ينادي كل يوم، من خالف سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾لم تنله شفاعته). وقال علي كرم الله وجهه: (الهوى شريك العمى)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً﴾(2). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾(3)، ثم قال تعالى: ﴿أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللهُ﴾(4)، فسوى بين الكذاب في الفرية على الله تعالى، وبين المتشبه المضاهي للربوبية. وكذلك من أعظم المنكر بعد هذا إنكار الحق من أهله ورده عليهم بالتكذيب، وقد سوى الله تعالى بين التكذيب بالحق وبين ابتداء الكذب على الخالق في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُ﴾ (5)، وقال تعالى في مثله:

---

(1) رواه الدارقطني من حديث أنس.

(2) سورة النساء الآية 122.

(2،3) سورة الأنعام الآية 93.

(4) سورة العنكبوت الآية 68.

(5) سورة الزمر الآية32.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءهُ﴾(1)، كذلك أيضاً في ضده سوى كما سوى عز وجل بين الصادق بالصدق والمصدق به فقال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(2).

أهل العلم بالله:

وقال ﷺ (العالم والمتعلم شريكان في العلم)(3)، ولكن الله تعالى قد جعل هذه الطائفة من أهل العلم بالله تعالى، ترد على جميع الطوائف من الشاطحين والمبتدعين، أهل الجهالة بالدين، والحيدة عن سبيل المؤمنين، بما أراهم الله تعالى من علم اليقين، وبما شهد لهم رسول الله ﷺ بالعلم والتعديل في قوله: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)، فالغالون هم الشاطحون، لأنهم قد جاوزوا العلم، ومحوا الرسم فأسقطوا الحكم، والمبطلون هم المدعون المبتدعون، لأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وافتروا بالدعوى، وابتدعوا بالرأى والهوى، والجاهلون هم المنكرون لغرائب العلم، المغترون لما عرفوا من ظاهر العقل، كما روينا عن النبي ﷺ (إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله عز وجل، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل

---

(1) سورة الزمر الآية 33

(2) رواه الترمزي عن أبى هريرة

الاغترار بالله تعالى، ولا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه)(1).

وكل من تأول السنن بالرأي أو المعقول أو نطق بما لم يسبق إليه السلف من القول أو بمعناه، فهو متكلف مبطل. فأهل العلم بالله يردون علوم المعقول بعلم اليقين، وعلم الرأى بعلم السنة، ويثبتون أهل الآثار، ويؤيدون نقلة الأخبار بما يفصلون من أخبارهم، ويفسرون من حديثهم، مما لم يجعل للنقلة طريق إليه، ولم يهتد الرواة إلى كشف منه، بما أشهدهم الله عز وجل واستودعهم، ونور به قلوبهم ونطقهم، فهم ينطقون عن الله سبحانه وتعالى فيما يخبرون عنه: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾(2)، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(3).

النمط الوسط

وقال على كرم الله وجهه: عليكم بالنمط الأوسط، يرجع إليه الغالي ويرتفع عنه القالى. وهكذا سيرة السلف، أنه لا يستمع إلى مبتدع لأنه منكر، ولا يرد عليه بالجدال والنظر لأنه بدعة، ولكن يخبر بالسنن ويحتج بالأثر، فإن قبل فهو أخوك في الله، ووجبت عليك موالاته، وإن لم يرجع وأنكر قضي بإنكاره، وعرف ببدعته، وحقت عداوته، وهجر في الله تعالى.

(3) رواه أبو منصور الديلمي في المسند.

(2) سورة المائدة الآية 54.

(3) سورة السجدة الآية 24.

وروى عنه ﴿ﷺ﴾(أنه قيل له: أي جلسائنا خير؟ قال: من ذكركم بالله تعالى رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، وذكركم بالآخرة عمله)(1). فأما الذي يطلب دنياهم حتى يكون مثلهم، فإذا رأوه اغتبطوا بحالهم فهذا شر منهم، لأنه يدعو إلى نفسه لا إلى مولاه، ولأنه طامع فيهم وهم زاهدون فيه. فالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء هم الورعون في دين الله، الزاهدون في فضول الدنيا، الناطقون بعلم اليقين والقدرة، لا علم الرأي والهوى، الصامتون عن الشبهات والآراء، لا يختلف هذا إلى يوم القيامة عند العلماء الشهداء على الله تعالى برأي قائل، ولا بقول مبطل جاهل، كما روي عنه ﴿ﷺ﴾(صلح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)(2)، وهذا طريق لا يسلكه في وقتنا هذا إلا من عرف فضله، وطريقة السلف فيه، والله أعلم.

علوم اليقين عن مشاهدات مقام اليقين:

أصول مقاماتها التي تنتج عنها أحوال الموقنين، وترد إليها فروع أحوال المتقين تسعة مقامات، وهي: التوبة. والصبر. والشكر. والرجاء. والخوف. والزهد. والتوكل. والرضا. والمحبة، وبعد المحبة مقامات محبوب، ومنازلات علام الغيوب، ثم الرهبة والرغبة، ثم اللقاء بالله تعالى والفناء عما سواه، ومن مقام محبوب تقصر العبارة عن بيان مشاهداتهم، ووصف مراقباتهم، وكشف ما يواجههم به ربهم سبحانه وتعالى من أسرار عين اليقين وحق اليقين(3).

(1) رواه أبو يعلى عن ابن عباس.

(2) رواه الطبراني عن ابن عمر.

(3) راجع كتابنا مقامات الصوفية.

أولاً: مقام التوبة:

التوبة الرجوع إلى الله والندم على ما فات.

مشاهدات التوبة(1):

إما للعامة أو للخاصة، توبة العامة: قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(2). معنى هذا الخطاب ارجعوا إلى الله تعالى من حظوظ أنفسكم وهواها، ومن وقوفكم مع شهواتكم لتظفروا بالفلاح وهو نيل بغيتكم يوم القيامة، وليحصل لكم البقاء ببقاء الله عز وجل في نعيم لا زوال له، وبهجة لا نفاد لها، ولتفوزوا وتسعدوا بدخول الجنة وتنجوا من النار، وهذا هو فلاح العامة.

توبة الخاصة:

عن مشاهدات الخصوص، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾(3)، فنصوحاً يعني خالصة من النصح، وهو الاستقامة على الطاعة من غير زوغان إلى معصية، مجاهداً نفسه أن يخطر على قلبه خاطر العودة إلى ذنب وهو قادر عليه، وأن يترك عمل الذنوب والمعاصي لأجل الله تعالى، خالصاً لوجهه الكريم، كما فعلها خالصاً لحظه وهواه، فإذا أتى الله بقلب سليم من الهوى، وعمل خالص مستقيم على السنة، فهو الذي ختم الله له بحسن الخاتمة، وأدركته الحسنى

---

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 1 ص 179 وما بعدها (بتصرف)

(2) سورة النور الآية 31.

(3) سورة التحريم الآية 8.

السابقة، وهذا العمل هو التوبة النصوح، وعامله هو العبد التواب المتطهر الحبيب الذي سبقت له من الله الحسنى، وتداركه نعمة من ربه فرحمه بها من أدران السوءى، وهو وصف من قصده سبحانه بخطابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (1). وقال ﷺ(التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له) (2).

وسئل الحسن عن التوبة النصوح فقال: هي ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود إليه. وقال أبو مُحَمَّد سهل رحمه الله: ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة، ولا عقوبة أشد من فقد علم التوبة، وجهل الناس علم التوبة. وقال: من يقل إن التوبة ليست بفرض فهو كافر، ومن رضي بقوله فهو كافر. وقال: التائب، الذي يتوب من غفلته في الطاعات في كل طرفة ونفس.

وقد جعل علي كرم الله وجهه ترك التوبة مقاماً في العمى، وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر، فقال في الحديث الطويل: (ومن عمى نسي الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة).

فرض التوبة الذي لا بد للتائب منه:

ففرض التوبة الذي لا بد للتائب منه، ولا يكون محقاً صادقاً إلا به، الإقرار بالذنب، والاعتراف بالظلم، ومقت النفس على الهوى، وحل الإصرار الذي كان عقده على أعمال السيئات، وإطابة الغذاء بغاية ما يقدر عليه، لأن الطعمة أساس

(1) سورة البقرة الآية 222.

(2) رواه ابن ماجة عن ابن مسعود.

الصالحين، ثم الندم على ما فات من الجنايات، وحقيقة الندم، إن كان حقاً- إذ لكل حق حقيقة- أن لا يعود إلى مثل ما وقع الندم عليه، ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهي، وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به، وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله، وأن لا يصحب جاهلاً فيرديه، ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد في أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا، فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين، كما لا يضيع أجر المحسنين، ثم استبدال السيئات بالحسنات ليكون ممن يبدل بالأعمال السوءى أعمالاً حسنى بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(1). فإذا غير ما بهم من سيىء حسناً بدل سيئاتهم حسنات، ثم الندم ودوام الحزن، وحقيقة الندم والحزن على الفوت أن لا يفرط ولا ينسى في دركه، ولا يرجع ولا ينثني في حيز استبداله، فيفوت نفسه وقتاً ثانياً إذا كان يعمل في درك ما فات، ولا يفوت ما أدرك في حال يقظته، فتكون يقظته شبيهاً بما مضى من غفلته، إذ كان في درك ما فات شبيهاً بما مضى من غفلته، إذ لا يدرك الفوت بالفوت، ولا النعيم بالنعيم، ليكون كما وصف الله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾(2). قيل الاعتراف الندم.

وقال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوات ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات، فكيف بمن يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله، وقال ﴿ﷺ﴾ في حديث أبي

---

(1) سورة الرعد الآية 11.

(2) سورة التوبة الآية 102.

ذر: (فإذا عملت سيئة فاعمل بعدها حسنة، السر بالسر والعلانية بالعلانية). وفي وصية معاذ: (أتبع السيئة الحسنة تمحها). ولتدخل في الصالحين لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾(1). ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قدر عليها ليدرك بها ما ضيع وفات ليكون من الصالحين، وفي هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾(2).

وما على العبد في التوبة وما تعلق بها عشر خصال، أولها: فرض عليه أن لا يعصى الله تعالى. الثانية: إذا ابتلى بمعصية لا يصر عليها. الخصلة الثالثة: التوبة إلى الله تعالى منها. الرابعة: الندم على ما فرط منه. الخامسة: عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت. السادسة: خوف العقوبة. السابعة: رجاء المغفرة. والثامنة: الاعتراف بالذنب. والتاسعة: اعتقاد أن الله تعالى قدر ذلك عليه وأنه عدل منه. والعاشرة: المتابعة بالعمل الصالح ليعمل في الكفارات لقوله ﴿ﷺ﴾(وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وفي جميع الخصال آثار عن الصحابة والتابعين يكثر ذكرها.

---

(1) سورة العنكبوت الآية 9.

(2) سورة الأعراف الآية 196.

التوبة من قريب:

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾(1). قيل: الوقت القريب، أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخرنى يوماً أعبد فيه ربى، وأعتب فيه ذنبي وأتزود صالحاً لنفسي، فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول أخرني ساعة فيقول: فنيت الساعات فلا ساعة، قال: فتبلغ الروح الحلقوم، فيؤخذ بكظمة عند الغرغرة، فيغلق باب التوبة ويحجب عنه، وتنقطع الأعمال، وتذهب الأوقات، وتتصاعد الأنفاس، يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره، فإذا كان في آخر نفس زهقت نفسه، فيدركها ما سبق لها من السعادة فتخرج روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، أو يدركها ما سبق لها من الشقوة فتخرج روحه على الشك، فهذا الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾(2). فهذا سوء الخاتمة، أعاذنا الله منه، وقيل هذا هو المنافق، وقيل: المدمن على المعاصي المصر عليها، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾(3). قيل: قبل الموت وقبل ظهور الآيات الآخرة، وقبل الغرغرة أي تغرغر النفس في الحلقوم، لأنه تعالى قد حكم أن التوبة بعد ظهور أعلام الآخرة لا تقبل.

---

(1) سورة المنافقون الآية 10.

(2) سورة النساء الآية 18.

(3) سورة النساء الآية 17.

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ﴾(1). يعني من قبل معاينة الآيات: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾(2). قيل: التوبة هي كسب الإيمان وأصول الخيرات، وقيل بالأعمال الصالحة، هي مزيد الإيمان وعلامة الإيقان، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أي عن قريب عهد بالخطيئة لا يتمادى فيها ولا يتباعد عن التوبة، وتوبة من قريب أن يعقب الذنب عملاً صالحاً ولا يردفه بذنب آخر، وأن يخرج من السيئة إلى الحسنة، ولا يدخل في سيئة أخرى.

وقال بعض العارفين: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه، يوجده ذلك بإلهام يلهمه، أحدهما إذا ولد وخرج من بطن أمه يقول له: عبدي، قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً نظيفاً، واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر كيف تلقانى كما أخرجتك. وسر عند خروج روحه يقول: عبدي، ماذا صنعت في أمانتي عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك بالوفاء والجزاء؟ أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب. وفي خبر عن ابن عباس رضي الله عنهما: (من ضيع فرائض الله عز وجل خرج من أمانة الله). وعند التوبة النصوح تكفير السيئات، ودخول الجنات.

ثانياً: مقام الصبر:

الصبر هو ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى، لأنه لغة: ثبات جند في مقاومة عدو قام القتال بينهما، والجندان جند منهما شهوة المأكل والمشرب

(1،5) سورة الأنعام الآية 158.

والمنكح والحظ والهوى، وجميع الرذائل الكامنة في النفس، والجند الآخر العقل ونور اعتقاد الدين، وحب الله ورسوله، وحب الآخرة وفضائل الدين، وهذان الجندان. الحرب بينهما سجال، وميدان المعركة القلب، والصبر نصرة جند العقل والدين على جند الحظ والهوى، وقد عرف بعضهم الصبر بأنه حبس النفس عن المكروه، وهو يناسب المعنى.

فضائل الصابرين(1):

قد جعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين، وتمم كلمته الحسنى عليهم في الدين، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(2).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾(3). وقال ﴿ﷺ﴾(إن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً)(4)، وروي عن المسيح عليه السلام أنه قال: (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون) وقال ابن مسعود: الصبر نصف الإيمان. وقد جعل علي كرم الله وجهه الصبر ركناً من أركان الإيمان وقرنه بالجهاد والعدل والإيقان فقال: (بني الإسلام على أربع دعائم، على اليقين والصبر والجهاد والعدل). وقال علي كرم الله وجهه: (الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا صبر له) ورفع رسول الله ﴿صلى

(1) راجع كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي جـ 1 ص 193 وما بعدها (بتصرف).

(2) سورة السجدة الآية 24.

(3) سورة الأعراف الآية 137.

(4) أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

الله عليه وآله وسلم﴾الصبر في العلو والفضل إلى مقام اليقين وقرنه به، وأخبر ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(بأن من أوتي نصيبه منهما لم يبال ما فاته)، وأخبر ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أن الصبر كمال العمل والأجر فقال: (من أكمل ما أوتيتم، اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه، أحب إلى من أن يوافيني كل امريء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه، ثم قرأ: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (1)،وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾.(2) وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.(3) فضاعف أجر الصابرين على كل عمل، ثم رفع جزاء الصبر فوق كل جزاء، فجعله بلا نهاية ولا حد، فدل ذلك على أنه أفضل المقامات.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين) يعي بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الهدى، والعلاوة ما يعلى به فوق الحملين على البعير فيكون كعدل ثالث، وقد أخبر الله تعالى أنه مع الصابرين، ومن كان الله تعالى معه غلب، كما أن من كان معه علا، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(4). كما قال تعالى:

(1) سورة النحل الآية 96.

(2) سورة القصص الآية 54.

(3) سورة الزمر الآية 10.

(4) سورة الأنفال الآية 46.

﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾(1). واشترط الصبر لإمداده بجنده ولنصرة تأييده بقوله تعالى: ﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾(2). وكان سهل يقول: الصبر تصديق الصدق، وأفضل منازل الطاعة الصبر على ترك المعصية مع الباعث، ثم الصبر على الطاعة، وقال في معنى قوله عز وجل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ﴾(3). أي استعينوا بالله على أمر الله، واصبروا على أدب الله، وقال: لم يمدح الله تعالى أحداً إلا من صبر للبلاء والشدة فبذلك يثنى عليه. وكان يقول: الصالحون في المؤمنين قليل، والصادقون في الصالحين قليل، والصابرون في الصادقين قليل، فجعل الصبر خاصية الصدق، وجعل الصابرين خصوص الصادقين، وكذلك الله تعالى قد رفع الصابرين على الصادقين في ترتيب المقامات، فجعل الصبر مقامات في الصدق، إن كانت الأوصاف المسوقة نعتاً واحداً للمسلمين وكانت الواو للمدح، وإن كانت مقامات فالواو للترتيب، فقد جعل الله الصابرين فوق الصادقين والقانتين، أعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.(4)

الصبر من علامات الإيمان:

وفى حديث عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، (لما دخل رسول الله ﴿ﷺ﴾على بعض المسلمين، فقال: (أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمررضى الله

(1) سورة محمد الآية 25.

(2) سورة آل عمران الآية 125.

(3) سورة الأعراف الآية 128.

(4) سورة الأحزاب الآية 35.

عنه: نعم، قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر في الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة)(1).

والصبر ينقسم إلى عملين: أحدهما لا صلاح للدين إلا به. والثاني هو أصل فساد الدين. ثم يتنوع الصبر فيكون المؤمن صابراً على الذي فيه صلاح الدين فيكمل به إيمانه، ويكون صابراً على الذي فيه فساد الدين فيحسن به يقينه. روينا في معنى هذا عن على عليه السلام، أنه لما دخل البصرة واستقام له الأمر دخل جامعها، فجعل يخرج القصاص ويقول: القصص بدعة، فانتهى إلى حلقات شاب يتكلم على جماعة، فاستمع إليه فأعجبه كلامه، فقال: يا فتى، أسألك عن شيئين فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس، وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك؟ فقال: سل يا أمير المؤمنين، فقال: أخبرني ما صلاح الدين وما فساده؟ قال: صلاحه الورع، وفساده الطمع، قال: تكلم، فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس، يقال: إن هذا الشاب هو إمام الأئمة الحسن بن يسار مولى الأنصار البصري، وكان ميمون بن مهران يقول: الإيمان والتصديق والمعرفة والصبر واحد، وقال أبو الدرداء: ترجيح الإيمان الصبر للحكم، والرضا بالقدر.

واعلم أن الورع أول الزهد، وهو باب من أبواب الآخرة، والطمع أول الرغبة، وهو باب كبير من أبواب الدنيا، وهو استشعار الطمع من حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة.

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط.

من نتائج الصبر

ومن نتائج الصبر حبس النفس على عبادة الخالق سبحانه وتعالى، وصبرها على القناعة وعلى صنع الرازق، ومن الصبر كف الأذى عن الخلق، وهو مقام العالين يدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾(1). ثم احتمال الأذى عن الخلق وهو مقام المحسنين، يدخل في قوله: ﴿وَالإِحْسَانِ﴾.

ومن الصبر. الصبر على الإنفاق، وإعطاء أهل الحقوق حقوقهم، الأقرب فالأقرب وهذا مقام المنفقين، يدخل في قوله: ﴿وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾. ومنه الصبر عن الفحشاء، وهو الأمر الفاحش في العلم والإيمان، والصبر على المنكر وهو ما أنكره العلماء، والصبر على البغي وهو التطاول والغلو ومجاوزة الحد والإسراف في أمور الدنيا. ومن الصبر حبس النفس عن المكافأة، والصبر على الأذى، توكلاً على المولى عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(2). وفي الحديث: (الصبر في ثلاث: الصبر عن تزكية النفس، والصبر عن شكوى المصيبة، والصبر على الرضا بقضاء الله تعالى على خيره وشره). ومن الصبر حمل النفس على الخمول والتواضع والذل، إيثاراً للآخرة على الدنيا، وهرباً إلى الله تعالى، وتحققاً بوصف العبودية، وترك المنازعة والتشبه بمعاني أوصاف الربوبية، تسليماً للألوهية واستسلاماً للأحدية، فلا تخرجك قلة الصبر عن ذلك إلى الطلب بشيء منه، فتزل قدم بعد ثبوتها نعوذ بالله من ذلك. ومن الصبر صبر على العيال في الكسب لهم،

---

(1) سورة النحل الآية 90.

(2) سورة إبراهيم الآية 12.

والإنفاق عليهم، والاحتمال للأذى منهم، فإن في العيال طرقات إلى الله تعالى أدناها الاهتمام بهم، وأعلاها الرضا عن الله تعالى والتوكل عليه فيهم، وأوسطها الإنفاق وحبس النفس عليهم.

واعلم أن أكثر معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، أو قلة الصبر على ما يكرهون، وقد قرن الله تعالى الكراهة بالخير، والمحبة بالشر في قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾(1). والصبر فريضة، ومن فضائل الصبر حبس النفس عن حب المدح والحمد والرياسة، وإخفاء أعمال البر والمعروف والصدقات والأوجاع والمصائب، وغيرها من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى.

ثالثاً: مقام الشكر:

الشكر هو الاعتراف بالنعمة من الله تعالى، وطهارة القلب من أن ينسب فضلاً أو نعمة أو إيجاداً أو إمداداً لغير الله تعالى، فالشكر أدق بكثير من الذكر، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(2). والشكر عمل بالجوارح الظاهرة، وبالقوى الباطنة من القلب والنفس والعقل والروح، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً﴾(3). فالشكر عمل، وإنما يشكر الله تعالى من عرفه بأسمائه الحسنى فلم ير في الوجود بأجمعه أثر لغير الله تعالى، بل الوجود جميعه آثار قدرة الله وحكمته.

---

(1) سورة البقرة الآية 216.

(2،2) سورة سبأ الآية 13.

ومن جهل ذلك كيف يشكر الله تعالى؟ ولا يشكر على السراء والضراء إلا الله تعالى، فما من نعمة ولا نقمة إلا وهي جواذب من الله لعبده، فالنعمة تسر العبد وتذكره المنعم، والنقمة تخيفه وتذكره المنتقم فيرجع إليه سبحانه، فجعل مقابل الشكر الكفر، كما جعل مقابل الحج الكفر في قوله تعالى: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ﴾.(1) أي من لم يحج مع الاستطاعة في موضع (ومن كفر).

شكر القلب وشكر الجوارح:

والشكر في الحقيقة عمل، فشكر القلب عقده على التوحيد، وتقلبه بالفكر في آلاء الله تعالى، وتصريف النوايا في محاب الله ومراضيه. وشكر الجوارح قيامها بالعمل في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(2). أي القائم بقلبه وجوارحه موجهاً وجهه إلى الله تعالى بكله.

التفضيل بين الغنى الشاكر والفقير الصابر:

وقد اختلف علماء السلف في التفضيل بين الغني الشاكر والفقير الصابر، وعندي أن كل واحد منهما في حال ما يوصف بالصبر يكون أفضل، فإذا صبر الغني مع قدرته على تنفيذ مراده، وجاهد نفسه، كان أفضل من صبر الفقير مع عجزه عن تنفيذ مراده، لكمال مشاهدة الغنى ومراقبته للرقيب، وخوفه من الحسيب، ومجاهدته نفسه، وأما في مقام شكره على النعم، وصبر الفقير على النقم، فلا مناسبة في التفضيل بينهما، لأن هذا منعم به عليه مما يوجب السرور

(3) سورة آل عمران الآية 97

(2) سورة سبأ الآية 13.

والفرح والثناء والحمد للمنعم، فقام بما وجب عليه، وهذا مبتلى بما لو أنه انزعج أو التجأ إلى الخلق لعذر ولكنه صبر واحتسب وكتم أمره وجاهد نفسه، فهذا في مقام عليّ، ممن قال الله فيهم: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(1). ولأن الصبر أشق على النفس وأكرهه، وأمره على الطبع وأصعبه، فيه الألم والكظم عند الذل والحلم، ومنه التواضع والكتم، وفيه الأدب وحسن الخلق، وبه يكون كف الأذى عن الخلق، واحتمال الأذى من الخلق، وهذه من عزائم الأمور التي يضيق منها أكثر الصدور.

رابعاً: مقام الرجاء(2):

الرجاء هو اسم لقوة الطمع في الشيء، بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء في التثنية، وأقام الحذر مقام الخوف فقال علت كلمته: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾(3). وقال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(4). وهو وصف من أوصاف المؤمنين وخلق من أخلاق الإيمان لا يصلح إلا به كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف، فالرجاء بمنزلة أحد جناحي الطير لا يطير إلا بجناحيه، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه، وهو مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له، فلذلك أوصى رسول الله

(1) سورة الزمر الآية 10.

(2) راجع كتاب (قوت القلوب) جـ 1 ص 215 (بتصرف).

(3) سورة السجدة الآية 16.

(4) سورة الزمر الآية 9.

﴿ﷺ﴾بقوله: (لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى) (1). لأنه قال عن الله تعالى: (أنا عند حسن ظن عبدي بي فليظن بى ما شاء)(2). وكان ابن مسعود ﵁ يحلف بالله تعالى: ما أحسن عبد بالله تعالى ظنه إلا أعطاه الله تعالى ذلك، لأن الخير كله بيده. أى: فإذا أعطاه حسن الظن به فقد أعطاه ما يظنه، لأن الذي حسن ظنه به هو الذي أراد أن يحققه له.

ودخل رسول الله ﴿ﷺ﴾على رجل وهو في سياق الموت فقال: (كيف تجدك؟ فقال: أجدنى أخاف ذنوبى، وأرجو رحمة ربي، فقال ﴿ﷺ﴾ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف). ولذلك قال على كرم الله وجهه للرجل الذي أطار الخوف عقله حتى أخرجه إلى القنوط، فقال له: (يا هذا يأسك من رحمة الله تعالى أعظم من ذنبك) صدق رضوان الله عليه، لأن اليأس من روح الله تعالى الذي يستريح إليه المكروب من ذنوبه، والقنوط من رحمة الله التي يرجوها المبتلى بالذنوب، أعظم من ذنوبه، لأنه قطع بهواه على صفات الله تعالى المرجوة، وحكم على كرم وجهه سبحانه بصفته المذمومة، فكان ذلك من أكبر الكبائر وإن كانت ذنوبه كبائر، وهكذا جاء في تفسير: ﴿وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾(3). قال: هو العبد يذنب الكبائر، ويلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب، ويقول: قد هلكت لا ينفعني عمل، فنهوا عن ذلك.

---

(1) رواه مسلم عن جابر.

(2) الصحيحين من حديث أبى هريرة.

(3) سورة البقرة الآية 195.

الرجاء مقام الكرماء:

الرجاء مقام جليل وحال شريف نبيل، لا يصح إلا للكرماء، من أهل العلم والحياء، وهو حال يحول عليهم بعد مقام الخوف، يروحون به من الكرب، ويستريحون إليه من مفارقة الذنب، ومن لم يعرف الخوف لم يعرف الرجاء، ومن لم يقم في مقام الخوف لم يرفع إلى مقامات أهل الرجاء على صحة وصفاء، ورجاء كل عبد من حيث خوفه، ومكاشفته عن أخلاق مرجوة، من معنى ما كان كوشف به من صفات مخوفة، فإن كان أقيم مقام المخوفات، مثل الذنوب والعيوب والأسباب، رفع من حيث تلك المقامات إلى مقامات الرجاء، بتحقيق الوعد وغفران الذنب وتشويف الجنان، وما فيها من الأوصاف الحسان، وهذه مواجهات أصحاب اليمين، وإن كان أقيم مقام مخاوف الصفات، عن مشاهدة معاني الذات، مثل سابق العلم وسوء الخاتمة، وخفي المكر وباطن الاستدراج وبطش القدرة وحكم الكبر والجبروت، ورفع من هذه المقامات إلى مقام المحبة والرضا، فرجا من معاني الأخلاق وأسماء الكرم والإحسان، والفضل، والعطف واللطف والامتنان، وليس يصح أن نخبر بكل ما نعلم من شهادة أهل الرجاء، في مقامات الرجاء من قبل أنه لا يصلح لعموم المؤمنين، فليس يصلح إلا بخصوصه وهو يفسد من لم يرزقه أشد الفساد ولا يجديه ولا يستجيب له، ولا يستخرج إلا من المحبة، ولا محبة إلا بعد نصح القلب من الخوف، وأكثر النفوس لا يصلح إلا على الخوف، كعبيد السوء لا يستقيمون إلا بالسوط والعصا.

صحة الرجاء:

ومن علامة صحة الرجاء في العبد كون الخوف باطناً في رجائه، لأنه لما تحقق برجاء شيء خاف فوته، لعظم المرجو في قلبه وشدة اغتباطه به، فهو لا ينفك في حال رجائه من خوف فوت الرجاء، والرجاء هو ترويحات الخائفين، ولذلك سمت العرب الرجاء خوفاً، لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر. كذلك حقيقة الرجاء والخوف في معاني الملكوت، إذا ظهر الخوف كان العبد خائفاً، وظهرت عليه أحكام الخوف عن مشاهدة التجلى بوصف مخوف، فسمي العبد خائفاً لغلبته عليه، وبطن الرجاء في خوفه، وإذا ظهر الرجاء كان العبد راجياً، وظهرت منه أحكام الرجاء عن مشاهدة تجلي الربوبية بوصف مرجو، فوصف العبد به لأنه الأغلب عليه وبطن الخوف في رجائه، لأنهما وصفان للإيمان كالجناحين للطير، فالمؤمن بين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه.

وقال مطرف: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا. فهذا أصل في معرفة حقيقة الرجاء وصدق الطمع في المرجو. فللمؤمنين في اعتدال الخوف والرجاء مقامان، أعلاهما مقام المقربين، وهو ما حال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوة. والثانى مقام أصحاب اليمين، وهو ما عرفوه من بدائع الأحكام.

وروى أن لقمان عليه السلام قال لابنه: (خف الله تعالى خوفاً لا تأمن فيه مكره، وارجه رجاء أشد من خوفك، قال: كيف أستطيع ذلك وإنما لي قلب واحد؟ قال: أما علمت أن المؤمن كذى قلبين يخاف بأحدهما ويرجو بالآخر؟).

ثم إن الخلق خلقوا على أربع طبقات في كل طبقة طائفة:

1- فمنهم من يعيش مؤمناً ويموت مؤمناً، وهؤلاء رجاؤهم لأنفسهم ولغيرهم من المؤمنين، إذ قد أعطاهم فرجوا أن يتم عليهم نعمته، وأن لا يسلبهم بفضله ما به بدأهم.

2- ومن الناس من يعيش مؤمناً ويموت كافراً والعياذ بالله، فهؤلاء موضع خوفهم عليهم وعلى غيرهم، لمكان علمهم بهذا الحكم ولغيب حكم الله تعالى بعلمه السابق فيهم.

3- ومن الناس من يعيش كافراً ويموت مؤمنا.

4- ومنهم من يعيش كافراً ويموت كافراً، فهذان الحكمان أوجبا رجاءهم، الثاني للمشرك، إذ رأوه فلم يقنطوا بظاهره أيضاً، خوف هذا الرجاء خوفاً ثانياً أن يموت على تلك الحال، وأن يكون ذلك هو حقيقة عند الله.

فعلم المؤمن بهذه الأحكام الأربعة، ورثه الخوف والرجاء معاً، فاعتدل حاله بذلك لاعتدال إيمانه به، وحكم على الخلق بالظاهر، ووكل إلى علام الغيوب السرائر، ولم يقطع على عبد بظاهره من الشر، بل يرجو له ما بطن عند الله من الخير، ولم يشهد لنفسه ولا لغيره بظاهر الخير، بل يخاف أن يكون قد استتر عند الله تعالى باطن شر، إلا أن حال التمام أن يخاف العبد على نفسه، لأن ذلك وجد المؤمنين من قبل أنهم متعبدون بحسن الظن، فهم يحسنون الظن بالناس، ويخرجون لهم المعاذير بسلامة الصدور، وتسليم ما غاب إلى من إليه تصير الأمور، ثم هم في ذلك يسيئون الظن بنفوسهم لمعرفتهم بصفاتها، ويوقعون الملام عليها، ولا يحتجون لها لباطن الإشفاق منهم عليهم، ولخوف التزكية منهم لهم، فمن عكس

عليه هذان المعنيان فهو مستدرج يحسن الظن بنفسه، ويسيء ظنه بغيره، فيكون خائفاً على الناس راجياً لنفسه محتجاً لها، لائماً للناس ذاماً لهم، فهذه أخلاق المنافقين، أعاذنا الله من النفاق وأهله.

علامات الرجاء عن مشاهدة المرجو:

دوام المعاملة لله تعالى وحسن التقرب إليه، وكثرة التقرب بالنوافل لحسن ظنه به وجميل أمله منه، وأنه يتقبل صالح ما أمر به تفضلاً منه من حيث كرمه، لا من حيث الواجب عليه ولا الاستحقاق منا، وأنه يكفر سيء ما عمله إحساناً منه ورحمة، من حيث لطفه بنا وعطفه علينا لأخلاقه السنية، وألطافه الخفية، لا من حيث اللزوم له بل من حيث حسن الظن به، كما قال سفيان الثوري ﵁: من أذنب ذنباً فعلم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه، غفر الله عز وجل له ذنبه. قال: لأن الله تعالى عير قوماً فقال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾(1)، وقد جاء في الخبر: (أن من أذنب ذنباً فأحزنه ذلك، غفر الله له ذنبه وإن لم يستغفر).

ومقام الرجاء كسائر مقامات اليقين منها فرض وفضل، فعلى العبد فرض أن يرجو مولاه وخالقه، معبوده ورازقه، من حيث كرمه وفضله لا من حيث نظره إلى صفات نفسه ولومه. وجاء في الخبر: (إذا دعوتم فكونوا موقنين بالإجابة، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من موقن، ومن داع دعاءً بيناً من قلبه) لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له باب من العبادة. وفي الخبر: (الدعاء نصف

(1) سورة فصلت الآية 23.

الإيمـــــــــان)(1). وروينـــــــا عــــــــــن رســــــــول الله ﷺ(ما من داع دعا موقناً بالإجابة في غير معصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث: إما أن يجيب دعوته فيما سأل، أو يصرف عنه من السوء مثله، أو يدخر له في الآخرة ما هو خير له)(2). وروينا عن نبينا ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أنه قال للرجل الذي قال: أوصني، فقال: (لا تتهم الله تعالى في شيء قضاه عليك)(3). وفي خبر آخر: (أنه نظر إلى السماء وضحك ﴿ﷺ﴾، فسئل عن ذلك، فقال: عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن، في كل قضائه له خير، إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً له، وإن قضى عليه بالضراء رضي وكان خيراً له)(4).

حسن الظن بالله:

ومن حسن الظن بالله تعالى التملق له سبحانه وتعالى، وهو من قوة الطمع فيه، ومن الرجاء انشراح الصدر بأعمال البر، وسرعة السبق والمبادرة بها خوف فوتها ورجاء قبولها، ثم مهاجرة السوء ومجاهدة النفس رجاء انتجاز الموعود، وتقرباً إلى الرحيم الودود. ومن الرجاء القنوت في ساعات الليل، وهو طول القيام للتهجد والدعاء عند تجافي الجنوب عن المضاجع، لما وقر في القلوب من المخاوف.

---

(1) ذكره السيوطي في الجامع الكبير عن أنس.

(2) رواه أحمد عن أبي سعيد الخدري والبزار.

(3) رواه أحمد والطبراني من حديث عبادة.

(4) رواه النسائي عن سعد بن أبي وقاص.

ولذلك وصف الله الراجين بهذا في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(1). ومن الرجاء الأنس بالله في الخلوات، ومن الأنس به الأنس بالعلماء والتقرب من الأولياء، وارتفاع الوحشة بمجالسة أهل الخير وسعة الصدر والروح عندهم، ومن الرجاء سقوط ثقل المعاونة على البر والتقوى لوجود حلاوة الأعمال، والمسارعة إليها والحث لأهلها عليها، والحزن على فوتها والفرح بدركها. ومن ذلك الخبر المأثور: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن). وأيضاً: (خيار أمتي الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساءوا استغفروا). ومن الرجاء التلذذ بدوام حسن الإقبال، والتنعم بمناجاة ذي الجلال والإكرام، وحسن الإصغاء إلى محادثة القريب، والتلطف في التملق للحبيب، وحسن الظن به في العفو الجميل، ومنال الفضل الجزيل. وقال بعض العارفين: للتوحيد نور وللشرك نار، ونور التوحيد أحرق لسيئات المؤمن من نار الشرك لحسنات المشرك.

وروي عنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله تعالى)(2). (وخير الدين أيسره)(3). وقال: (هلك المتعمقون، هلك المتنطعون)، وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(بعثت بالحنيفية السهلة السمحة)(4). وقال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(5). واستجاب للمؤمنين في

---

(1) سورة الزمر الآية 9.

(2) أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي عن جابر.

(3) رواه أحمد من حديث محجن بن الأدرع.

(4) أخرجه أحمد من حديث أبي إمامة.

(5) سورة الأعراف الآية 157.

قولهم: ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾(1). فقال عز وجل: قد فعلت.

وعن سيدنا داود وغيره من الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام: (أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى خلقي، قال: رب هذا أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ فقال عز وجل: أذكرني بالحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني، وذكرهم ذلك فإنهم لا يعرفون منى إلا الجميل). وفي الخبر: (إذا حدثتم الناس عن ربهم فلا تحدثوهم بما يفزعهم أو يشق عليهم)، وفي كلام لعلي كرم الله وجهه: (إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم مكر الله تعالى). ومن الرجاء شدة الشوق إلى ما شوق إليه الكريم، وسرعة التنافس في كل نفس ندب إليه الرحيم.

خامساً مقام الخوف(2):

الخوف اسم لحقيقة التقوى، والتقوى معنى جامع للعبادة، وهي رحمة الله تعالى للأولين والآخرين، ينظم هذين المعنيين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(3). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ

(1) سورة البقرة الآية 286.

(2) راجع كتاب (قوت القلوب) جـ 1 ص 225 وما بعدها (بتصرف).

(3) سورة البقرة الآية 21.

مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ﴾(1). وهذه الآية قطب القرآن مداره عليها، والتقوى سبب أضافه تعالى إليه تشريفاً له، ومعنى وصله به وأكرم عباده عليه تعظيماً له، فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾(2). وقال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(3).

وفي الخبر: (إذا جمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم، يقول: يا أيها الناس: إني قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلىَّ يوم، فإنما هي أعمالكم ترد عليكم، أيها الناس: أني جعلت نسباً وجعلتم نسباً، فوضعتم نسبي ورفعتم نسبكم، قلت: إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وأبيتم إلا فلان وفلان أغنى من فلان وفلان، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي، أين المتقون، قال فينصب للقوم لواءهم إلى منازلهم، فيدخلهم الجنة بغير حساب)(4).

والخوف حال من مقام العلم، وقد جمع الله تعالى للخائفين ما فرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان، وهذه جمل مقامات أهل الجنان، فقال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾(5). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ

(1) سورة النساء الآية 131.

(2) سورة الحج الآية 37.

(3) سورة الحجرات الآية 13.

(4) رواه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك.

(5) سورة الأعراف الآية 154.

مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءِ﴾ (1). وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾(2).

وفى خبر موسى عليه السلام: (وأما الخائفون لهم الرفيق الأعلى لا يشاركون فيه). فأفردهم من غير مشاركة بالرفيق الأعلى، كما حققهم اليوم بشهادة التصديق، وهذا مقام من النبوة، فهم مع الأنبياء في المزية من قبل أنهم ورثة الأنبياء، لأنهم هم العلماء، قال تعالى: ﴿فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّـذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾(3). وقال تعالى في وصف منازلهم: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾. بمعنى رفقاء، عبر عن جماعتهم بالواحد لأنهم كانوا كأنهم واحد، وقد يكون رفيقاً مقاماً في الجنة من أعلى عليين، لقول رسول الله ﴿ﷺ﴾عند الموت وقد خير بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله تعالى فقال: (أسألك الرفيق الأعلى) (4). وفي خبر موسى ﵁ المتقدم: (فأولئك لهم الرفيق الأعلى) فدل أنهم مع الأنبياء بتفسير النبي ﴿ﷺ﴾لذلك، وشرف مقامهم فوق كل مقام، لطلب رسول الله ﴿ﷺ﴾ذلك، فالخوف اسم جامع لحقيقة الإيمان، وهو علم الوجود والإتقان، وهو سبب اجتناب كل نهي ومفتاح كل أمر، وليس يحرق شهوات النفوس فيزيل آثار آفاتها إلا مقام الخوف.

---

(1) سورة فاطر الآية 28.

(2) سورة البينة الآية 7-8.

(3) سورة النساء الآية 69.

(4) متفق عليه من حديث عائشة.

خوف المؤمن على قدر قربه:

وقال أبو مُحَّد سهل رحمة الله عليه: كمال الإيمان العلم، وكمال العلم الخوف. وقال مرة: العلم كسب الإيمان، والخوف كسب المعرفة. وقال أبو الفيض المصري: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا بعد أن ينضج الخوف في قلبه، وقال: خوف النار عند خوف الفراق بمنزلة قطرة قطرت في بحر لجي. وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه، خوفه على قدر قربه فخوف الإسلام اعتقاد العزة والجبرية لله تعالى وتسليم القدرة والسطوة له، والتصديق لما أخبر به من عذابه وما تهدد به من عقابه. وقال الفضيل: إذا قيل لك: تخاف الله فاسكت، لأنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم فليس وصفك وصف من يخاف، وشكا واعظ إلى بعض الحكماء فقال: ألا ترى إلى هؤلاء أعظهم وأذكرهم فلا يرقون؟ فقال: وكيف تنفع الموعظة من لم تكن في قلبه لله تعالى مخافة؟، وقال تعالى في تصديق ذلك: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى {10}وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾(1). أي يتجنب التذكرة الشقي، فجعل من عدم الخوف شقياً حرمه التذكرة، فخوف عموم المؤمنين بظاهر القلب عن باطن العلم بالعقد، وخوف خصوصهم وهم الموقنون بباطن القلب عن باطن العلم بالوجد، أما خوف اليقين فللصديقين من شهداء العارفين عن مشاهدة ما آمن به من الصفات المخوفة. وفي الخبر: (إذا دخل العبد قبره لم يبق شيء كان يخافه دون الله عز وجل إلا مثل له يفزعه ويرعبه إلى يوم القيامة). فأول خوف اليقين الموصوف الذي هو نعت الموصوفين من المؤمنين، المحاسبة للنفس في كل وقت، والمراقبة للرب في كل

---

(1) سورة الأعلى الآية 10-11.

حين، والورع عن الإقدام على الشبهات من كل شيء من العلوم بغير يقين بها، ومن الأعمال بغير فقه فيها.

ثمرة الخوف:

اليقين بالله عز وجل، والحياء من الله عز وجل، وهو أعلى سريرات أهل المزيد، يستبين أحكام ذلك في معنيين هما جملة العبد، أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان، وأن يحفظ بطنه وما وعاه، وهو القلب والفرج واليد والرجل، وهذا خوف العموم وهو أول الحياء، أما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع ما لا يأكل، ولا يبنى مالا يسكن، ولا يكاثر فيما عنه ينتقل، ولا يغفل ولا يفرط عما إليه يرتحل، وهذا هو الزهد، وهو حياء مزيد أهل الحياء من تقوى أصحاب اليمين.

خوف الخاتمة:

وفى الأخبار: كل من لم يستعمل قلبه في بدايته، ويجعل الخوف حشو إرادته لم ينجح في خاتمته، ولم يكن إماماً للمتقين عند علو معرفته. وأعلى الخوف أن يكون قلبه معلقاً بخوف الخاتمة، لا يسكن إلى علم ولا إلى عمل، ولا يقطع على النجاة بشيء من العلوم وإن علت، ولا لسبب من أعماله وإن جلت، لعدم علمه تحقيق الخواتم، فقد قيل: إنما يوزن من الأعمال خواتمها.

وعن النبي ﷺ (أن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى يقال إنه من أهل الجنة) (1). وفي خبر: (حتى ما يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر، ثم يسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار)، ولا يتأتى في هذا المقدار من

(1) رواه أبو هريرة عن ابن مسعود.

الوقت شيء من عمل الجسم بالجوارح، إنما هو من أعمال القلوب بمشاهدة العقول، وهو شرك التوحيد الذي لم يكن متحققاً به، وشك في اليقين الذي لم يكن في الحياة الدنيا مشاهداً له، فظهر له بيان ذلك عند كشف الغطاء، فغلب عليه وصفه وبدت فيه حاله، كما يظهر له أعماله السيئة فيستحليها قلبه، أو ينطق بها لسانه، أو يخامرها وجده، فتكون هي خاتمته التي تخرج عليها روحه، وذلك في سابقته التي سبقت له من الكتاب كما قال تعالى: ﴿أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ﴾(1). عند مفارقة الروح من الجسد: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾(2).

وأكثر ما يقع سوء الخاتمة لثلاث طوائف من الناس:

1- الطبقة الأولى: أهل البدع والزيغ في الدين، لأن إيمانهم مرتبط بالمعقول، فأول آية تظهر لهم من قدرة الله تعالى أن يطيح عقله عند شهودها فيذهب إيمانه ولا يثبت لمعاينتها، كما تحترق الفتيلة فيسقط المصباح.

2- الطبقة الثانية: أهل الكبر والإنكار لآيات الله عز وجل، وكراماته لأوليائه في الحياة الدنيا، لأنهم لم يكن لهم يقين يحمل القدرة ويمده الإيمان، فيعتورهم الشك ويقوى عليهم لفقد اليقين.

3- الطبقة الثالثة: ثلاثة أصناف متفرقون متفاوتون في سوء الخاتمة، وجميعهم دون رتبة الطائفتين المتقدمتين في سوء الخاتمة، لأن سوء الختم على مقامات أيضاً، كمقامات اليقين والشرك في عمر الحياة، منهم المدعى المتظاهر، الذي لم يزل إلى

---

(1) سورة الأعراف الآية 37.

(2) سورة هود الآية 109.

نفسه وعمله ناظراً، والفاسق المعلن، والمصر المدمن، تتصل بهم المعاصي إلى آخر العمر، ويدوم تقلبهم فيها إلى كشف الغطاء، فإذا رأوا الآيات تابوا إلى الله بقلوبهم وقد انقطعت أعمال الجوارح، فليس يتأتى منهم، فلا تقبل توبتهم، ولا تقال عثرتهم، ولا ترحم عبرتهم، وهم من أهل هذه الآية: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾(1). فهم مقصودون بقوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(2). وهم معنيون بمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾(3). نصوص الآية للكفار ومعناها ومقام منها لأهل الكبائر وذوي الإصرار من الفاسقين الزائغين، من حيث اشتركوا في سوء الخاتمة ثم تفاوتوا في مقامات منها تظهر لهم شهوات معاصيهم ويعاد عليهم تذكرها، لخلو قلبهم من الذكر والخوف حتى يختم لهم بشهادتها، فهذه الأسباب تجلب الخوف وتقطع قلوب ذوى الألباب.

وكان أبو مُحَّد سهل يقول: المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر، وروى في معنى ذلك أن عيسى عليه السلام قال: (يا معشر الحواريين أنتم تخافون المعاصى، ونحن معشر الأنبياء نخاف الكفر). والعدو يدخل على العارفين من طريق الإلحاد في التوحيد، والتشبيه في اليقين، والوسوسة في صفات الذات، ويدخل على المريدين من طريق الآفات والشهوات، فلذلك كان خوف العارفين أعظم.

---

(1) سورة النساء الآية 18.

(2) سورة سبأ الآية 54.

(3) سورة غافر الآية 84.

وقد كان بعض الصحابة عليهم رضوان الله يتمنون أنهم لم يخلقوا بشراً، وقد بشروا بالجنة يقيناً في غير خبر، من ذلك قول أبي بكر ﷺ: ليتني مثلك يا طير وأني لم أخلق بشراً. وقول عمر ﷺ: وددت أني كنت كبشاً ذبحني أهلى لضيفهم. وغيرهم من الصحابة كأبى ذر وطلحة والزبير ﷺ وابن مسعود رضي الله عن الجميع، ونحن في ارتكاب الكبائر ونحدث نفوسنا بالدرجات العلا، والقرب من سدرة المنتهى، ونسينا أن أبانا آدم صلوات الله عليه أخرج من الجنة بعد أن دخلها بذنب واحد، ونحن لم نرها بعد، فإنما نضرب في حديد بارد، وفي سورة التكوير خواتم المصير، وهي صفة القيامة لمن أيقن، وفيها تجلى معاني الغضب لمن عاين، آخر ذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ {12} وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ {13} عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾(1).

هذا فصل الخطاب عند تسعير النيران، واقتراب الجنان، حينئذ، يتبين للنفس ما أحضرت من شر يصلح له الجحيم، أو خير يصلح له النعيم، وتعلم إذ ذاك من أي أهل الدارين تكون، وفي أي منزلة من المنزلين تحل، فكم قلوب قد تقطعت حسرات على الإبعاد من الجنان بعد اقترابها، وكم من نفوس تصاعدت زفرات عن يقينها بمعاينة النيران أنها تصيبها، وكم من أبصار ذليلة خاشعة لمشاهدة الأهوال، وكم من عقول طائشة لمعاينة الزلزال.

الخوف من مكر الله تعالى:

حدثنا عن أبي مُحَّد سهل رحمه الله قال: رأيت كأني أدخلت الجنة فلقيت فيها ثلاثمائة نبى، فسألتهم: ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا؟ قالوا: سوء الخاتمة.

---

(1) سورة التكوير الآية 12-14.

فالخاتمة هي من مكر الله تعالى الذي لا يوصف، ولا يفطن له ولا عليه يوقف، ولا نهاية لمكره، لأن مشيئته وأحكامه لا غاية لها، ومن ذلك الخبر المشهور: أن النبي ﴿ﷺ﴾ وجبريل بكيا خوفاً من الله تعالى، فأوحى الله إليهما: لم تبكيان وقد أمنتكما ؟ فقالا: ومن يأمن مكرك) ؟(1). فلولا أنهما علما أن مكره لا نهاية له لأن حكمه لا غاية له، لم يقولا: (ومن يأمن مكرك) مع قوله: (قد أمنتكما) ولكان قد انتهى مكره عنهما، وعلما أنهما لا يقفان على غيب الله تعالى إذ هو علام الغيوب. فلا نهاية للعلام في علم، ولا غاية للغيوب بوصف، فلم يحكم عليهما القول لعنايته بهما، وفضل نظره إليهما، لأنهما على مزيد من معرفة الصفات، إذ المكر عن الوصف وإظهار القول لا يقضى على باطن الوصف، فكأنهما خافا أن يكون قوله تعالى: (قد أمنتكما مكري) مكراً منه أيضاً بالقول على وصف مخصوص، عن حكمة قد استأثر بعلمها، يختبر بذلك حالهما، وينظر كيف يعملان تعبداً منه لهما به، إذ الابتلاء وصفه من قبل أن المبتلي اسمه، فلا يترك مقتضى وصفه لتحقق اسمه، ولا تبدل سنته التي قد خلت في عباده، كما اختبر خليله عليه السلام لما هوى به المنجنيق في الهواء فقال: (حسبي الله ربى، فعارضه جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ قال: لا) وفاء بقوله: (حسبي الله)، فصدق القول بالعمل فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وفي﴾.(2) أي بقوله: (حسبي الله) ولأن الله تعالى لا يدخل تحت الأحكام، ولا يلزمه ما حكم به على الأنام، ولا يختبر صدقه سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يوصف بضد الصدق، وإن

---

(1) أخرجه ابن شاهين من حديث عمر.

(2) سورة النجم الآية 37.

بدل الكلم هو بتبديل منه، لأن كلامه قائم به فله أن يبدل به ما شاء، وهو الصادق في الكلامين، العدل في الحكمين، الحاكم في الحالين، لأنه حاكم عليه ولا حكم يلزمه فيه، لأنه قد جاوز العلوم والعقول التي هي أماكن للحدود من الأمر والنهي، وفات الرسوم والمعقول التي هي أواسط الأحكام والأقدار.

وفى مشاهدة ما ذكرناه علم دقيق من علوم التوحيد، ومقام رفيع من أحوال التوحيد، وبمثل هذا المعنى وصف صفيه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾(1). بعد قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾(2). الآية، فلم يأمن موسى عليه السلام بخفى المكر أن يكون الوصف قد أسر عنه في غيبه، واستثنى في نفسه سبحانه ما لم يظهره له في القول، لمعرفة موسى عليه السلام بخفي المكر وباطن الوصف، ولعلمه أنه لم يعطه الحكم إذ هو محكوم عليه مقهور، فخاف خوفاً ثانياً حتى أمنه أمناً ثانياً بحكم ثان فقال: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَى﴾(3). فاطمأن إلى القائل ولم يسكن إلى الإظهار الأول، لعلمه بسعة علمه أنه هو علام الغيوب التي لا نهاية لها، ولأن القول أحكام والحاكم لا تحكم عليه الأحكام، كما لا تعود عليه الأحكام، وإنما تفصل الأحكام من الحاكم العلام، ثم تعود على المحكومات أبداً، ولأنه جلت قدرته لا يلزمه ما لزم الخلق الذين هم تحت الحكم، ولا يدخل تحت معيار العقل والعلم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً عند من عرفه فأجله وعظمه.

---

(1) سورة طه الآية 67.

(2) سورة طه الآية 46.

(3) سورة طه الآية 68.

ذكرى لمن كان له قلب:

ولا يصلح أن نكشف حقيقة ما فصلناه في كتاب، ولا ينبغي أن نرسم ما رمزناه من الخطاب، خشية الإنكار، وكراهة تفاوت علم أهل المعقول والمعيار، إلا أن يسأل عنه من أقيم فيه وأريد به من ذوي القوة والأبصار، فينتقل من قلب إلى قلب، فحينئذ يتلوه شاهد منه، أو يكشفه علام الغيوب في سرائر القلوب بوحي الإلهام، ويقذفه بنور الهدى للأعلام، والله الموفق لمن شاء من الحيطة بالعلم وهو الفتاح العليم، إذا فتح القلب علمه، وإذا نوره باليقين ألهمه. ومن خوف العارفين علمهم، بأن الله تعالى يخوف عباده بمن شاء من عباده الأعلين، يجعلهم نكالاً للأدنيين، ويخوف العموم من خلقه، بالتنكيل ببعض الخصوص من عباده حكمة له وحكماً منه، فعند الخائفين في علمهم أن الله تعالى قد أخرج طائفة من الصالحين، نكالاً خوف بهم المؤمنين، ونكل طائفة من الشهداء خوف بهم الصالحين، وأخرج جماعة من الصديقين خوف بهم الشهداء، والله تعالى أعلم بما وراء ذلك، فأجهل الناس من آمن غير مأمون، وأعلمهم من خاف في الأمن حتى يخرج من دار الخوف إلى مقام أمين، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾(1). وهذا خوف لا يقوم له شيء، وكرب لا يوازيه مقام ولا عمل، لولا أن الله تعالى عدله بالرجاء، لأخرج إلى القنوط، ولولا أنه روحه بروح الأنس بحسن الظن، لأدخل في الإياس، ولكن إذا كان هو المعدل وهو المروح، كيف لا يعتدل الخوف والرجاء ولا يمتزج الكرب بالروح والرضا؟ حكمة بالغة، وحكم نافذ لعلم سابق، وقدر جار، ما شاء الله تعالى، لا قوة إلا بالله.

(1) سورة المعارج الآية 28.

وأقل ما يفيد علم هذا الخائفين ترك النظر إلى أعمالهم، ورفع السكون إلى علومهم، وصدق الافتقار في كل حال، ودوام الانقطاع بكل هم، والإزراء على النفس في كل وصف، وهذه مقامات لقوم، فيكون هذا الخوف سبب نجاتهم من هذه الوقائع، إذ قد جعل الله التخويف أمنة من الأخذ بالمفاجأة، وسبباً للرأفة والرحمة لمن ألبسه إياه.

أنواع المخاوف:

خوف الجنايات والاكتساب، وخوف الوعيد وسر العقاب، وخوف التقصير في الأمر، وخوف مجاوزة الحد، وخوف سلب المزيد، وخوف حجاب اليقظة بالغفلة، وخوف حدوث الفترة بعد الاجتهاد عن المعاملة، وخوف وهن العزم بعد القوة، وخوف نكث العهد بنقض التوبة، وخوف الوقوع في الابتلاء بالسبب الذي وقعت منه التوبة، وخوف عود الاعوجاج عن الاستقامة، وخوف العادة بالشهوة، وخوف الحور بعد الكور، وهو الرجوع عن الحجة إلى طريق الهوى وحرث الدنيا، وخوف إطلاع الله تعالى عليهم عند ما سلف من ذنوبهم، ونظره إليهم على قبيح فعلهم، فيعرض عنهم ويمقتهم، وخوف النفاق، وخوف حبوط الأعمال، وخوف سلب الإيمان. وهذه كلها مخاوف، وطرقات لأهل المعارف، وبعضها أعلى من بعض، وبعضهم أشد خوفاً من بعض.

سادساً: مقام الزهد(1):

معرفة الزهد متوقفة على معرفة الدنيا أي شيء هى، فقد قال الناس في الزهد أشياء كثيرة، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه

(1) راجع (قوت القلوب) جـ 1 ص 245(بتصرف).

الذي جعل فيه الشفاء والغنى، وقد قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(هو الحبل المتين والصراط المستقيم، من طلب الهدى في غيره أضله الله)(1). وقال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾(2). وقال عز وجل: ﴿فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾.(3) فقد ذكر الله جل اسمه في كتابه أن الدنيا سبعة أشياء، وهو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ ثم قال تعالى في آخرها: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (4).

فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا، وأن هذه الدنيا، هذه الأوصاف السبعة، وما تفرع من الشهوات رد إلى أصل من هذه الجمل، فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب، ومن أحب أصلاً منها أو فرعاً من أصل، فقد أحب بعض الدنيا، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنيا لأنها تقع ضرورات، فإذا لم تكن الحاجة دنيا، دل أنها لا تسمى شهوة، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا. واستند ذلك لخبر عن الله تعالى في الإسرائيليات: (أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجة، فذهب إلى صديق يستقرض منه شيئاً فلم يقرضه، فرجع مغموماً فأوحى الله إليه:

---

(1) ذكره السيوطي في الجامع الكبير.

(2) سورة الشورى الآية 10.

(3) سورة البقرة الآية 213.

(4) سورة آل عمران الآية 14.

لو سألت خليلك لأعطاك، فقال: يا رب عرفت مقتك الدنيا فخشيت أن أسألك منها فتمقتني، فأوحى الله تعالى إليه: ليس الحاجة من الدنيا).

ورد سبحانه وتعالى في آية أخرى السبعة أوصاف المتقدمة إلى خمسة بقوله جل وعلا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ﴾(1). فهذه الخمسة هي وصف من أحب تلك السبعة، ثم اختصر سبحانه الخمسة في معنيين منها، هما جامعان للسبعة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾(2). وقد رد الجميع إلى وصف واحد بقوله: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى {40} فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(3). فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَى {37} وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {38} فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(4). فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا لأن النهي عنه ضد الإيثار له، فمن نهى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا وإذا لم يؤثر الدنيا فهو الزاهد، وكانت له الجنة التي هي ضد الجحيم، فصارت الدنيا هي طاعة الهوى وإيثاره في كل شيء، فينبغي أن يكون الزهد مخالفة الهوى في كل شيء، فمن زهد في الحياة الفانية وفي ماله المجموع بالجهاد للنفس والإنفاق في سبيل الله فقد زهد في الدنيا، ومن زهد في الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله ﴿صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ﴾، ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد في الدنيا، ولأن الله تعالى يحب من زهد في الدنيا، ثم

---

(1) سورة الحديد الآية 20.

(2) سورة محمد الآية 36.

(3) سورة النازعات الآية 40-41.

(4) سورة النازعات الآية 37-39.

كانت مخالفة الهوى من أفضل الجهاد- لأنه هو حقيقة الرغبة في الدنيا- وقد عبر رسول الله ﴿ﷺ﴾عن الزهد في الدنيا فقال: (ازهد في الدنيا يحبك الله تعالى) (1). فالزاهد في الدنيا حبيب ربه تعالى، والراغب في حب البقاء لنفسه منافق في دين ربه تعالى، ومنه الخبر الذي جاء: (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق)(2). وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. يعني نفاقاً: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾. تهدد ووعيد أي وليهم العذاب وقرب منهم، ثم قال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ أي يظهر منهم طاعة وقول معروف ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ وحققت الحقائق كذبوا ونكثوا: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في الوفاء: ﴿لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ﴾(3).

لما حقق الله الزهد بغنى النفس وإخراج المال، في ذكر المبيع والمشترى في قوله: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(4). وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى، وكان العوض من ذلك الجنة، كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع نفسه طوعاً قبل أن يخرج نفسه إليه كرهاً، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه، فصار العبد محباً له فجعله من المقربين عنده

---

(1) أخرجه ابن ماجة من حديث سهل بن سعد.

(2) رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة.

(3) سورة محمد الآية 20-21.

(4) سورة التوبة الآية 111.

تعالى، وإذا كانت الدنيا هي طاعة الهوى، وحب الحياة الدنيئة لمتعة النفس الشهوانية، كان الراغب في ذلك آمنا لمكر الله تعالى، مشتريا للحياة الدنيا بائعاً بذلك الحياة العليا فلم يكن محباً له، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره، وحق عليه الخسران والجحيم في الآخرة، لأنه ضد الزاهد المقرب، الظافر بدار القرب في جوار الحبيب القريب.

تفصيل حقيقة الزهد:

إذا كان الشيء موجوداً عندك وأنت ممسكه لنفسك، ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد، فقد كذبت على نفسك بتسميتك إياها زاهداً، وكذبتك نفسك بوجوده جهلاً منها بالعلم بتسميتها لك زاهداً، أو كذبك وجدك على العلم جهلاً منك بربك عز وجل، أو موهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد، وهذا زهد منك في الزهد، ورغبة منك أيضاً في الدنيا. حتى يخرج الشيء الذي تظن أنك زهدت فيه، وتعتاض منه محبة إليه تعالى، وطلب مرضاته تبارك وتعالى أو ما عنده من ثوابه، فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء فتكون صادقاً، فهناك وصفك الزاهد بالزهد وسماك الزاهدون زاهداً. فأما إذا لم يكن الشيء موجوداً لك فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح، والزهد في معدوم باطل، من قبل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك، فكذلك لا يصح زهدك فيه، ولعله لو كان موجوداً تغير قلبك به وتقلب فيه، إذ ليس الخبر كالمعاينة، لأن الخبر قد يشتبه ويوهم، والمعاينة تكشف الحقيقة، وتحكم على الخلقة، ولأن النفس ذات بدوات لما طبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية، فكذلك لا يجعل ظناً معدوماً كيقين موجود، إذ لو كان كيف يكون الأمر؟، ولكن قد يكون لك مقام من

المعدوم في المعدوم بقيامك بشرطه، وهو أن لا تحب وجود الشيء ولا تأس على فقده، أو تكون مغتبطاً بعدمك، مسروراً بفقرك، يعلم الله ذلك منك من غيبك، ويطلع على سرك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته، وتخرجه إن دخل عليك، وأن قلبك قانع بالله سبحانه، راض عن الله سبحانه وتعالى بحالك التي هي العدم من الدنيا، غير محب للاستبدال بها من الغنى بصدق يقينك بفضيلة الزهد، فإذا كنت بهذا الوصف حسب لك جميع ذلك زهداً، وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين، وإن لم تكن للدنيا واجداً.

وصف الزاهد وفضل الزاهد:

قوة الزهد الذي لا بد منه وبه تظهر صفة الزاهد، وينفصل به عن الراغب هو أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس، ولا يحزن على مفقود من ذلك، وأن يأخذ الحاجة من كل شيء عند الحاجة إلى الشيء، ولا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة، ولا يطلب الشيء قبل الحاجة، وأول الزهد دخول غم الآخرة في القلب، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى، ولا يدخل غم الآخرة إلا بعد خروج هم الدنيا، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى، وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه، ومن ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع في الدنيا، ولا يذوق حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى. وخالص الزهد هو إخراج الموجود من القلب، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد، وهو عدم الموجود على الاستصغار له، والاحتقار والتقالل لهوان الدنيا عنده، وصغرها في عينه، فبهذا يتم الزهد، ثم ينسى زهده في زهده، فيكون حينئذ زاهداً في زهده لرغبته في مزهده، وبهذا يكمل الزهد وهذا لبه وحقيقته، وهو أعز الأحوال في

مقامات اليقين، وهو الزهد في النفس لا الزهد لأجل النفس، ولا للرغبة في الزهد للزهد، وهذه مشاهدة الصديقين وزهد المقربين عن وجد عين اليقين، ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظرته إليه، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين، وذلك العمل بالزهد عقد وعمل إذا كان الزهد عن الإيمان. والإيمان قول وعمل، وكذلك الزهد عقد وعمل، فالعقد خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة في القلب، والفعل بالزهد إخراج المحبوب من اليد في سبيل الله، معتاضاً منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جل وتعالى، أو قرب جواره في داره.

وقد روينا عن رسول الله ﴿ﷺ﴾(أن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يحب)(1). والذي يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى، إذ قد تولاه فيما أعطاه.

سابعاً: مقام التوكل:

هو تسليم الأقدار كلها للقادر، واعتقاد أن جميعها قضاؤه وقدره، وقبل أن أتكلم على علوم التوكل وفضائلها ومشاهدة المتوكلين، أذكر مقدمة أبين فيها ما اختلف الناس فيه من سر التوكل:

جهل الناس حقيقة التوكل، فظنوا أن التوكل ترك الأسباب جملة واحدة توكلاً على الوكيل، وليس هذا من التوكل في شيء، لأن الله تعالى قادر حكيم، فأظهر أشياء عن وصف القدرة، وأجرى أشياء عن معاني الحكمة، فإذا كوشف المؤمن بغرائب

---

(1) رواه الحاكم والبيهقي من حديث ابن مسعود.

تصريف القدرة، وشهد ظهور كل شيء عن قدرة القادر، رأى لجهله بحكمة الحكيم أن الأسباب كالعمل للكسب والادخار، والتداوي والمحافظة على الصحة، والقيام بحقوق الشريعة ينافي التوكل أو يقدح في التوحيد. والقيام بالأعمال التي اقتضتها الحكمة، من السعي للنفع واستعمال الأسباب لجلب المنفعة له ولجميع المسلمين، ودفع المضرة عنهم وعنه، هو عين التوكل، وحقيقة التوحيد، فالمتوكل لا يسقط ما أثبته الله تعالى من حكمته لأجل ما شهد هو من قدرته، لأن الله تعالى حكيم، فالحكمة صفته، ولا يشهد المتوكل الأشياء التي أجرتها الحكمة جاعلة نافعة ضارة بنفسها، فيشرك في توحيده، من جهة أن الله قادر، والقدرة صفته، وأنه حاكم جاعل نافع ضار لا شريك له في أسمائه، ولا معين له في أحكامه، كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ﴾(1). ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾(2). قال أبو طالب المكي: فالمتوكل حقيقة هو الذي شاهد قدرة الله على الأشياء، وأنه منفرد بالتقدير والتدبير قائم بالمالك والمملوك، وعلم مع تلك المشاهدة وجوه الحكمة في التصريف والتقليب، بإظهار الأسباب لإظهار الأشخاص والأشباح، لحكمة إيقاع الحكم على المحكوم، وعود الثواب والعقاب على المرسوم، من حيث أن المتوكل مطالب أن يقوم بأحكام الشريعة، ومطالبات العلم مع تسليمه الحكم الأول لله، واعتقاده أن كل شيء بقدر الله، لأنه سمع الله تعالى يقول: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(3).

(1) سورة الأنعام الآية 57.

(2) سورة الكهف الآية 110.

(3) سورة الأنبياء الآية 23.

سر تصريف القدرة وعلم الحكمة(1):

هذا وإن الله تعالى أخفى قدرته في جميع ما أظهر في حكمه، فظهرت حكمته في الأشياء لعود الأحكام على من ظهرت على أيديهم، وبطنت قدرته في الأشياء لرجوع الأمر كله إليه، ولإتقان الصنعة الظاهرة لصنع الباطن، فلذلك قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾(2). أي صنعه الباطن أتقن صنعه الظاهر، ثم قال سبحانه:
﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ من الظاهر والباطن ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾(3). في جميع ذلك.

فللعارف بالله تعالى المتوكل على جنابه العلي في سر تصريف القدرة في الباطن شهادة هي مقامه وهو قائم بها، وله في الحكمة الظاهرة علم شرع وتسليم اسم ورسم هو عامل به، وهذا هو شهادة التوحيد ومقام العلماء الربانيين. وكل مؤمن متوكل على الله تعالى، وتوكل كل عبد على قدر يقينه، فالعارف توكله ما ذكرنا من مشاهدة القدرة، وعلم الحكمة ومعاني الرضا، وتوكل العموم صحة الإيمان بالأقدار خيرها وشرها من الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ (4). فقرن بين هذه الأربع في نسيج واحد مع ترتيب الحكمة والقدرة، فكيف يختلف حكمها أو يتبعض وصفها لظهور الأسباب والأواسط.

---

(1) راجع (قوت القلوب) جـ 2 ص 10 (بتصرف).

(2) سورة النمل الآية 88.

(3) سورة هود الآية 123.

(4) سورة الروم الآية 40.

أنت ترى أباك سبباً في خلقك، فهل تقول خلقني أبي؟ وترى فلاناً سبباً في إحيائك وإماتتك، فهل تقول أماتني فلان أو أحياني؟ إذا قتلك أو أنقذك من ظالم لا تقول ذلك، لأنك تراه شركاً، فلم تنزعج نفسك من أن تقول خلقني أبي، أو أحياني فلان، أو أماتني؟ وهم أسباب في تلك المعاني، ولا تنزعج عندما تقول: فلان رزقني، وهو سبب، مع أن الله تعالى قرن الرزق مع الإحياء والإماتة والخلق. فإذا كنت ترى نسبة الخلق لأبيك أو الإحياء والإماتة لفلان كفراً، فنسبة الرزق لغير الله كفر، وإنما هم أواسط لإظهار الحكمة. وقد أضاف الله تعالى الإمناء إلينا والحرث، وأضاف الخلق والزرع إليه، لأن الإمناء والحرث أعمال، ونحن عبيد عمال، وهي صفاتنا وأحكامها عائدة علينا، وأضاف الخلق والرزق إليه سبحانه، لأنها آيات عن قدرته وحكمته والله هو القادر الحكيم، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ{63} أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ (1). وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ {58} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (2). فأضاف إلينا ما لنا، وأضاف إليه ما له سبحانه وتعالى.

وقد أضاف في القرآن الكريم إلى الجوارح المجترحة ونسب إلى الأدوات المكتسبة كل الأعمال والاكتساب، مما أجراه عن معاني الحكمة، ووصف نفسه بكل ما كان من القدرة والإرادة، لأنه المريد الأول والقادر الأعلى، فمن فهم عن الله خطابه فاز برضاه، ومن لم يفهم عن الله خطابه زاغ قلبه فيما تشابه.

---

(1) سورة الواقعة الآية 63-64.

(2) سورة الواقعة الآية 58-59.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾(1). يمحو الأسباب من قلوب العارفين ويثبت القدرة، ويمحو المشاهدة من قلوب الغافلين، ويثبت الأسباب.

فالعارفون يعتبرون بالأسباب ويعجبون من التسبب، فيزدادون بذلك هدى وإيماناً بشهودهم المعطي المانع واحداً في العطاء والمنع، ولمعرفتهم بجريان الحكمة فيما جاءت به الشريعة، ثبتت له مقامات الشكر سبحانه وتعالى والصبر عليه، والغافلون يضطربون، ولوقوفهم عند الأسباب يثبتون النفع والضر والرزق للأسباب، فيمدحون الناس ويذمون الناس لغفلتهم. فالعارف لا تلهيه التجارة ولا البيع ولا الزراعة ولا الصناعة عن ذكر الله وإقام الصلاة، لقيامه بشهادته أنوار القدرة، وعلمه أسرار الحكمة، فقد أثبت الله تعالى الأواسط إظهاراً للحكمة، ونفاها إظهاراً للقدرة، فأثبتها في قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ﴾(2). وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾(3). ثم قال في التوحيد ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾(4). وقال في إثبات الأسباب: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (5). ثم قال في إثبات مشاهدة القدرة: ﴿الرَّحْمَنُ {1} عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (5).

---

(1) سورة الرعد الآية 39.

(2) سورة التوبة الآية 5.

(3) سورة التوبة الآية 14.

(4) سورة الأنفال الآية 17.

(5) سورة العلق الآية 4.

(5) سورة الرحمن آية 1، 2

وقال سبحانه في تثبيت الأملاك وبيعها منه بالأعواض كرماً منه وفضلاً: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾(6). وقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.(7) فالمتوكل حقاً يشاهد بعين بصيرته الأشياء كلها عن تصريف القدرة، وإلا كان مشركاً، ويعمل بالأحكام عن علم الشريعة وفهم الحكمة، فيكون عاملاً من عمال الله متوكلاً على الله قائماً بأحكام الله، وهو المتوكل حقاً، لا تحجبه الأسباب عن المسبب فيكون مشركاً، ولا يحجبه شهود القدرة عن أسرار الحكمة والقيام بأحكام الشريعة فيكون متعدياً لحدود الله تعالى.

الأسباب والتصرف في المعايش:

بهما شهود المتوكل إذا تحقق باطناً بمشاهدة القدرة، وظاهراً بعلم الحكمة، ويكون على مزيد من علم التوحيد ومزيد من حاله، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً﴾ (1). وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ (2). وقال ﴿ﷺ﴾(أحل ما أكل العبد من كسب يده وكل بيع مبرور)(3). وقال ابن مسعود: إني أكره أن يكون الرجل بطالاً ليس في عمل دنيا ولا في عمل آخرة.

---

(6) سورة التوبة آية 111

(7) سورة النساء آية 3

(1) سورة النبأ الآية 11.

(2) سورة الحجر الآية 2.

(3) رواه أحمد من حديث رافع بن خديج.

وعندى المتوكلون ثلاثة أنواع:

الأول: رجل حسن توكله على الله تعالى فأقامه في الأسباب، فهو يعمل مشاهداً المسبب الأول، بلطائف قلبه وسر حكمته بظاهره، وقلبه ساكن إلى الله تعالى، لم يلابسه السبب فيشغله عن الحق، وهذا من الأبرار القائمين بأحكام الله، الناهجين على سنة رسول الله ﴿ﷺ﴾

الثانى: رجل جذبه اليقين الحق بكمال التصديق عن شهود الوكيل سبحانه وتعالى، والتحقق بولايته تنزهت ذاته، فاقتطعه بكله إلى جانب الوكيل سبحانه، وحضرة الولي تقدست ذاته، ففر من الكون إلى الله مستأنساً بما استوحش به أهل الغرة، فرحاً بما أحزن أهل البعد، راضياً بما كره أهل الحجاب، تجلت له أنوار الوكيل الولي فرضى به وكيلاً وفوض إليه جميع أموره، وهو وجد لا تكلف. وقد كان سبعون أو تسعون أو أكثر من أهل الصفة أقامهم الله تعالى مقام التجريد في عمل الآخرة، فكان الرجل منهم يتضوع من شدة الجوع، آنساً راضياً فرحاً مبتهجاً، وهم في صحبة سيد الرسل الكرام. وكان أنسهم به، وخلوته معهم، وبسطه بهم، وهذا مقام المقربين من خاصة المحبوبين، المتمكنين من حقيقة التوكل على الله، المتحققين بكمال التفويض إلى الله، وقليل ما هم.

الثالث: رجل أقام نفسه في التجريد ميلاً إلى الراحة من عناء الأسباب ورغبة فيما في أيدي الناس، وهو المتكلف لا الواجد، وليس هذا من التوكل في شىء، وأهل هذا النوع قال فيهم رسول الله ﴿ﷺ﴾(لأن يأخذ أحدكم فأسه وحبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس أعطوه

أو منعوه)(1). وقال ﴿ﷺ﴾(استغنوا عن الناس ولو بشوص سواك) (2). يعني بمضغه.

وتفصيل هذه المسألة، أن أهل الأسباب المتمكنين في مشاهداتهم على السنة القويمة السمحاء، ومن أنكر عليهم فقد أنكر على سنة رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾، وأهل التجريد المتمكنين في تمكين من مشاهدة التوحيد، ومزيد من أنوار الولي الحميد، لا ينكر عليهم إلا قادح في التوحيد، شاك في ضمان الرزاق الكريم، أما أهل الدعاوى من أهل الأسباب والتجريد ممن وقفوا عند الأسباب واحتجبوا عن المسبب، وممن تجردوا من الأسباب لحظ عاجل، فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

والحجة في ذلك عمل رسول الله ﴿ﷺ﴾، فإنه ﴿ﷺ﴾بعثه الله للناس، ومنهم المتجرد والمتسبب فلم ينكر على نوع منهم، ولكنه ﴿ﷺ﴾بين كل الوجوه التي ينهج عليها كل نوع، حتى يكون ناجياً ناهجاً على الصراط المستقيم.

الادخار للمتوكل:

المتوكل إما أن يكون ذا عيال أو منفرداً، فإن كان منفرداً وكان من أهل التوحيد الكامل، فالإدخار حسن له إذا ادخر مالاً أو طعاماً أو ملبساً، بعد إخراج حق الله منه من فرض ومندوب، فإنما هو خزانة الله تعالى، وهو خليفة الله على خزانته، ينفق منها إذا أمره مالك السماوات والأرض ومن في السماوات والأرض وما في السماوات والأرض، بالإنفاق على نفسه وعلى غيره من منفعة للمسلمين

(1) متفق عليه برواية أبي هريرة.

(2) أخرجه البزار والطبراني من حديث ابن عباس.

أو خدمة للدين، ولا يقدح ادخاره في توكله وتوحيده، وما ورد من أن رسول الله ﴿ﷺ﴾أمر بلالا بترك الادخار وأمر غيره، فذلك ليبين لأهل المقامات العلية ما به كمال قربهم وصحة توحيدهم.

وإن كان المتوكل ذا عيال وأهل، فالأكمل له الادخار ليسكن قلبه إلى الله تعالى، ويقبل بكله عليه سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ (1). فنهانا الله تعالى عن كل البسط الذي ينفد به كل ما في أيدينا، وعمل رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾هو الحجة البالغة، والمحجة الواضحة، فقد ادخر ﴿ﷺ﴾لأهله قوت سنة، وانتقل إلى الرفيق الأعلى وله ثوبان ينسجان.

فالمتوكل الكامل، الحسن له أن يدخر إذا كان منفرداً، والأحسن أن يدخر إذا كان ذا عيال وأهل، فإن المال إذا كان في أيدي أهل المتوكل الموحدين كان كنوزاً للإسلام والمسلمين، يبذل بعد بذل النفس، لسد ثغور الدين، وإحياء السنة وإعلاء كلمة رب العالمين، وإذا كان أهل مشاهدات التوحيد الموقنون المتوكلون لم يدخروا، وصارت الأموال في أيدي عباد الدرهم والدينار، لا تقوم قائمة الدين، ولا تحفظ ثغور المسلمين، ولا تفتح الفتوحات وخصوصاً في هذا الزمان، فيتعين على أهل التوحيد المحبين لله ورسوله أن يدخروا أكثر أموالهم عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (2). وأهل المقامات في كل زمان بحسب مقتضيات زمانهم. والمتوكل مسارع إلى الأفضل والأكمل لحاله، فإن كان

(1) سورة الإسراء الآية 29.

(2) سورة الأنفال الآية 60.

المسلمون في أمن وغنى بمزارعهم ومتاجرهم وصنائعهم وقوة سلطانهم ونفوذ كلمتهم على غيرهم، فالأكمل للمتوكل الإقبال على الله تعالى بكلياته، وقد استحسن هذا كثير من السلف، بل ومن الصحابة كأبي ذر الغفاري ﵁ وغيره، والحسن البصرى وكثير من أهل طبقته، وجنيد القواريري وكثير من أهل زمانه. وإذا تغير الحال، فالأكمل للمتوكل أن تكون عبادته في الأسباب التي بها يكون المسلمون كما كانوا، ليكون عاملاً من عمال الله تعالى بمقتضى الوقت.

التداوي:

بعض المتوكلين ممن يجهل السنة يرى أن التداوي قدح في التوحيد، وهو من التوحيد، لأنك تشهد في الدواء سر اسمه الشافي المعافي، وهو سبحانه هو الذي خلق الداء وخلق الدواء. (وقد سئل رسول الله ﴿ﷺ﴾عن الدواء والرقى، هل يرد من قدر؟ فقال: هي من قدر الله) (1). فالتداوي أكمل للمتوكل، لأنه السنة العملية والقولية. والأولى للمريض أن يعلم الطبيب بمرضه، ويكتم عن الناس خشية من شكوى الله للناس.

فضائل التوكل:

قال أبو طالب المكى: التوكل من أعلى مقامات اليقين، وأشرف أحوال المقربين، قال الحق المبين: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(2). فجعل المتوكل حبيبه وألقى عليه محبته، وقال عز وجل: ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾(3). فرفع المتوكلين إليه

---

(1) أخرجه الترمذي.

(2) سورة آل عمران الآية 59.

(3) سور إبراهيم الآية 12.

وجعل مزيدهم منه، وقال جلت قدرته: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(1). أي كافيه مما سواه، ومن كان الله كافيه فهو شافيه ومعافيه، ولا يسأل عما هو فيه، فقد صار المتوكل على الله من عباد الرحمن الذين أضافهم إلى وصف الرحمة، ومن عباد التخصيص الذين ضمن لهم الكفاية، وهم الذين كفاهم الله في هذه الدار المهمات، ووقاهم بتفويضهم إليه السيئات بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾(2).

وقال بعض الصحابة وغيرهم: التوكل نظام التوحيد وجماع الأمر، وقال لقمان لابنه: ومن الإيمان بالله عز وجل التوكل على الله، فإن التوكل على الله يحبب العبد، وأن التفويض إلى الله من هدى الله، وبهدى الله يوافق العبد رضوان الله، وبموافقة رضوان الله، يستوجب العبد كرامة الله، وقال لقمان أيضاً: من يتوكل على الله ويسلم لقضاء الله ويفوض إلى الله ويرضى بقدر الله، فقد أقام الدين وفرغ يديه ورجليه لكسب الخير، وأقام الأخلاق الصالحة التي تصلح للعبد أمره، وقال أبو يعقوب السوسي: لا تطعنوا على أهل التوكل، فإنهم خاصة الله الذين خصوا بالخصوصية، فسكنوا إلى الله واكتفوا به، واستراحوا من هموم الدنيا والآخرة، وقال: من طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان لأنه مقرون به، ومن أحب أهل التوكل فقد أحب الله تعالى.

---

(1) سورة الطلاق الآية 3.

(2) سورة الزمر الآية 36.

المعرفة بالوكيل سبحانه:

وأول التوكل المعرفة بالوكيل، وأنه عزيز حكيم، يعطى لعزه ويمنع لحكمه، فيعتز العبد بعزه ويرضى بحكمه، وكذلك أخبر عن نفسه فقال تعالى منبهاً للمتوكلين: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(1). عز من أعز بعطيته، ونظر لمن منعه بحكمته. فإذا شهد العبد الذليل الملك الجليل، قائماً بالقسط والتدبير والتقدير، عنده خزائن كل شيء: (وكل شيء عنده بمقدار). ولا ينزله إلا بقدر معلوم، وشهد الوكيل قابضاً على نواصى المماليك، له خزائن السماوات من الأحكام والأقدار الغائبات، وله خزائن الأرض من الأيدى والقلوب والأسباب المشاهدات، فخزائن السماوات ما قسمه من الرزق، وخزائن الأرض ما جعله على أيدى الخلق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾(2). ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾(3). ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾(4). فأيقن أن في يده ملكوت كل شيء وأنه يملك السمع والأبصار ويقلب القلوب والأيدي تقليب الليل والنهار، وأنه حسن التدبير والأحكام للموقنين، وأنه أحكم الحاكمين وخير الرازقين ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(5). ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾(6).

(1) سورة الأنفال الآية 49.

(2) سورة الذاريات الآية 22.

(3) سورة الذاريات الآية 20.

(4) سورة المنافقون الآية 7.

(5) سورة المائدة الآية 50.

(6) سورة يونس الآية 3.

عندما نظر العبد الذليل إلى سيده العزيز فقوى بنظره إليه، وعز بقوته به، واستغنى بقربه منه، وشرف بحضوره عنده، وكذلك جاء في الخبر: (كفى باليقين غنى) (1). حينئذ نظر إليه في كل شيء، ووثق به واعتمد عليه دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر عليه ورضى عنه، إذ لا بد له منه، فلا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا يده، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط إلا قدرته، هناك حققت عبادته، فعرف الخلق من معرفة خالقه، وطلب الرزق عند معبوده ورازقه، وقام وخلص توحيده بشهادة ما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾(2). ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه﴾(3). فعندها لم يحمد خلقاً، ولم يذمه ولم يمدحه لأجل أنه منعه أو أنه أعطاه، إذ كان الله هو الأول المعطي، ولم يشكره إلا لأن مولاه مدحه وأمره بالشكر له تخلقاً بأخلاقه، واتباعاً لسنة رسول الله ﴿ﷺ﴾، فإن ذمه أو مقته فلأجل مخالفته لمولاه بموافقته هواه، لأنه تعالى قد مدح المنفقين وذم الباخلين.

والفرق بين الحمد والشكر أن الحمد مفرد لا ينبغي إلا لله، وهو الاعتراف بأن النعمة من الله عز وجل وحسن المعاملة بها لوجه الله لا شريك له فيها، ولذلك قال تعالى:
﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (4). أي الحمد كله لا يكون ولا ينبغى إلا لله لأنه

---

(1) رواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر.

(2) سورة الأعراف الآية 194.

(3) سورة العنكبوت الآية 17.

(4) سورة الفاتحة الآية 1.

رب العالمين، وفي الخبر (الحمد رداء الرحمن عز وجل). والشكر إظهار الثناء وإسرار الدعاء للأواسط فهو مشترك، يدخل فيه الوالدان. وهو أيضاً مخصوص لمن هو أهل أن يشكر من الناس.

وروينا عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(من اعتز بالعبيد أذله الله)(1). وفي خبر آخر: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا ولزالت بدعائكم الجبال)(2). ويقال: لا يدخر من الدواب إلا ثلاثة: النملة والفأرة وابن آدم. وقال أبو يعقوب السوسي: المتوكلون على الله تجري أرزاقهم بعلم الله واختياره على يد خصوص عباده بلا شغل ولا تعب، وغيرهم مكدودون مشغولون. وقال أيضاً: المتوكل إذا رأى السبب أو مدح أو ذم غافلا فهو مدع لا يصح له التوكل، وأول التوكل ترك الاختيار، والمتوكل على صحة قد رفع أذاه عن الخلق، لا يشكو ما به إليهم، ولا يذم أحداً منهم، لأنه يرى المنع والإعطاء من واحد، فقد شغله عما سواه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا﴾(3). ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾(4).

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمر.

(2) أخرجه الترمذي والحاكم من حديث عمر.

(3) سورة هود الآية 6.

(4) سورة العنكبوت الآية 60.

علم اليقين للمتوكل:

فالمتوكل قد علم بيقينه، أن كل ما يناله من العطاء من ذرة فما فوقها، أن ذلك رزقه من خالقه، وأن رزقه هو له، وأن ماله واصل إليه لا محالة على أي حال كان، وأن ماله لا يكون لغيره أبداً، وكذلك ما لغيره من القسم والعطاء لا يكون له أبداً فقد نظر إلى قسمه ونصيبه من مولاه، بعين يقينه الذي به تولاه من إحدى ثلاث مشاهدات، وإن دنت مشاهدته نظر إلى قسمه من العطاء في الصحيفة التي كتبت له عند تصوير خلقه، فكتب فيها: 1- رزقه، 2- وأجله، 3- وأثره شقي أو سعيد، فكما لا يقدر أحد من الخلق أن يجعله سعيداً إن كان قسمه شقياً، ولا يقدر أحد أن يجعله شقياً إن كان قسمه سعيداً، كذلك لا يقدر أحد أن يمنعه ما أعطاه مولاه من القسمة فيجعله محروماً، ولا يعطيه من منعه من الحكم فيجعله مرزوقاً لأن ذلك قد كتب كتاباً واحداً، وجعل مجعلاً سواء، وروى عنه ﴿ﷺ﴾(أن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله) (1). وقال ﴿ﷺ﴾(وإن لكل عبد رزقاً هو آتيه لا محالة، فمن قنع به ورضي بورك له فيه، ومن لم يقنع به ولم يرض لم يبارك له فيه ولم يسعه)(2). ويقال: لو هرب العبد من رزقه كما هرب من الموت لأدركه.

وفي وصية النبي ﴿ﷺ﴾لابن عباس: (إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الخلائق لو جهدوا أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدروا على ذلك، ولو جهدوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله سبحانه لك لم يقدروا على ذلك، طويت الصحف وجفت الأقلام). فمن كانت هذه مشاهداته في القسم

(1) رواه الدارقطني والبيهقي.

(2) رواه الطبراني وأبو نعيم عن جابر.

سقط عنه جملة من الهموم، واستراح من النظر إلى الخلق، واستراح الخلق من أذاه، وشغل عنهم بخدمة مولاه.

ثامنا: مقام الرضا:

الرضا يختلف عند أهل المقامات، فالرضا عند المحبوبين المقربين، سرور القلب بمر القضاء، للتحقق بأكمل مقامات العبودية، لا من حيث إنه مؤلم، بل من حيث إنه يجعله مشاهداً في نفسه حقيقة معاني العبودية، الذي يشهده معاني تجليات الربوبية، فتحل بالقلب نازلة تلجئة أن يبتهل مضطراً، والابتهال أكمل حال أكمل العبيد خصوصاً عن مشاهدة. والرضا عند العشاق المهيمين سكون القلب بحب جريان الحكم، وبين المشاهدتين كما بين أهليهما. وقد رأى بعض العارفين الذين غلب عليهم الوجد أن الرضا نازلة تنزل على القلب عن مقام الحب فيكون حالا عن المحبة والحقيقة أن الرضا مقام من أعلى مقامات اليقين، يتصدم القلب منه بصدمات عالية، حتى يشهد المر حلواً، والنار برداً وسلاماً، والألم لذة، لما ينبعث عن القلب من أحوال مقام الرضا، وإنما كان سرور القلب أرقى من سكونه لتفاوت المشاهدتين. وقد أنكر أهل الحجاب الرضا والمحبة، وإنا لنرى لهم عذراً في إنكارهم لأنهم لم يكن لهم نصيب منهما، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأهل الرضا قسمان: قسم رضي عن الله تعالى، وقام بعمل الدنيا وعمل الآخرة طالباً المزيد منهما، وهذا لا ينقص مقام الرضا، وهم خاصة أهل اليمين، وقسم رضي عن الله تعالى رضا جعله آنساً بالله، فارغ القلب مما سواه ومن سواه، مقبلاً بكليته عليه، منصباً بجملته إليه، وهم المحبوبون المقربون، وقد جهل قوم حقيقة مقام الرضا لغلبة مشاهدة أسرار التوحيد، فظنوا أن الرضا عن الله تعالى يجب أن يكون

عن أحكامه وقدرته وإرادته، فلم يروا فعلاً قبيحاً ولا عملاً سيئاً لشهود الكل بقدر الله. وحسن تدبيره، وهذا من الجهل بعلم الحكمة.

وقد تقدم لي الكلام في مقام التوكل بما يقوى به يقين أهل اليقين، والرضا وإن كان عن كمال مشاهدة التوحيد فإنه إنما يكون بالمعانى التي تلم بك أو تؤلمك، وفي التلذذ بشدائد الأعمال في ذات الله تعالى، من الجهاد والصوم وقيام الليل وبذل المال، وتحمل الأذى من الخلق، وترك مالك عليهم والمبادرة في إعطاء مالهم بمزيد، وأن تحسن كل مباح قدم لك، من أكل وشرب ولباس وزوجة ودابة ومسكن وفراش وخادم وأجرة عمل وجيران، ويكون الرضا بسروره بكل شيء في ذاته، مما ينقص ماله أو جاهه أو منزلته أو نسبه أو عمله في أعين الناس.

الغضب لله عين الرضا عنه سبحانه:

وليس الرضا هو التحقق بمشاهدة التوحيد مع جهل الحكمة وأجزائها حتى يرضى بما قبحه الله وذمه، وما بغضه ﴿ﷺ﴾وكرهه، فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصيحة المسلمين، أو يترك طلب الضروري من الدنيا والمزيد فيها، أو الآخرة والمزيد فيها، من المعاني التي هي من كمال الرضا عن الله تعالى، أو يترك الادخار والكسب، وإنما يكون الرضا حقيقة عن المتوكل حقيقة، وليس من الرضا أن يرضى الإنسان بعمل يكرهه الله تعالى يعمله هو أو يعمله غيره. ويظن أن سخطه على عمل المعصية في نفسه أو في غيره عدم رضا عن الله تعالى وهو من الجهل بأحكام الله تعالى، وبحكمته سبحانه وكيف لا؟ وسيد الراضين ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى، وغضبه هو عين الرضا عن الله تعالى، فمن رأى أن الرضا عن الله تعالى أن لا يكره شيئاً أو لا يذم

شيئاً مطلقاً فقد جهل، نعم، الرضا عن الله تعالى أن لا تكره شيئاً أو لا تذم شيئاً مما أباحه لك الشرع، أو قدره الله عليك من أنواع البلايا، والرضا عن الله تعالى أن تذم المعصية ومن يعملها، ولو كنت عاملها، وأن تكره مخالفة الله ورسوله والوقوع فيما نهى عنه، ولو كنت أنت الفاعل العامل. وإظهار الفقر لا ينقص الرضا إذا رآه نعمة عليه من الله تعالى، لأن المنع من الله إحسان، لأنه في منعه معط، ولأن المنع حقيقة لا يتحقق إلا فيمن لك عليه شيء أو تستحق منه شيئاً، وهذان المعنيان تنزه الله عنهما، فهو في منعه سبحانه وتعالى معط، فيكون رضاك بالمنع كرضاك بالعطاء لأنهما صفتان من صفاته.

فضائل الرضا(1):

قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(2). وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾(3). فمن أحسن الرضا عن الله تعالى جازاه الله بالرضا عنه. وقد رفع الله تعالى الرضا على جنات عدن لأنه من أعلى مقامات اليقين، فرفعه على جنات عدن التي هي من أعلى الجنان، كما فضل الذكر على الصلاة فقال تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾(4). كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ

(1) راجع (قوت القلوب) جـ 2 ص 38(بتصرف).

(2) سورة المجادلة الآية 22.

(3) سورة الرحمن الآية 60.

(4) سورة التوبة الآية 72.

أَكْبَرُ﴾(1). والذكر عند الذاكرين الذين هم أهل الذكر هو المشاهدة، فمشاهدة الله تعالى في الصلاة أكبر من الصلاة، وإن فسر هذه الآية بعض العارفين بأن معنى (ولذكر الله أكبر) أن الله إذا ذكر العبد كان ذكره أكبر من ذكر العبد لله، واستحسن التأويل الأول، لأن الذكر عند العارفين لا معنى له إلا المشاهدة، فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر، لأن الذاكرين ذكروه بالمشاهدة فأعطاهم الرضا عنه عز وجل، قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(يتجلى لنا ربنا ضاحكاً).

وقد روينا عن النبي ﴿ﷺ﴾حديثاً من طرق أهل البيت: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه)(2). وفي أخبار موسعليه السلام: (أن بني إسرائيل قالوا: سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا، قال موسى: إلهى فقد سمعت ما يقولون. فقال: يا موسى، قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم).

وعن نبينا ﴿ﷺ﴾(من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله ينزل العبد منه بحيث أنزله من نفسه).(3) عن أنس بن مالك عن النبي ﴿ﷺ﴾(إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاءوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم الصراط؟، فيقولون: ما رأينا الصراط، فيقال لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة مُحَّد ﴿ﷺ﴾، فيقولون: ناشدناكم الله، حدثونا

(1) سورة العنكبوت الآية 45.

(2) ذكره صاحب الفردوس من حديث علي.

(3) رواه الحاكم من حديث جابر.

ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم الله لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا)(1).

وعنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أنه قال: (من رضي من الله بالقليل من الرزق، رضي الله عنه بالقليل من العمل)(2).

وقال بعض علمائنا: أعرف في الموتى أناساً ينظرون إلى منازلهم من الجنان في قبورهم، يغدى عليهم ويراح من الجنة بكرة وعشيا، وهم في غموم وكروب في البرزخ، لو قسمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين. قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين، إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب.

وفي أخبار داود عليه السلام: (ما لأوليائي والهم بالدنيا؟ إن الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم). وفي بعضها: (يا داود إياك والاهتمام بالدنيا، محبتي من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون، إياك والغم، ولا تهتم للخير وأنت تريدني).

تفصيل المجمل من مقام الرضا:

فمن الرضا سرور القلب بالمقدور في جميع الأمور، وطيب النفس وسكونها في كل حال، وطمأنينة القلب عند كل مفزع مهلع من أمور الدنيا، وقناعة العبد بكل شيء، واغتباطه بقسمة ربه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسلام العبد للمولى في كل شئ، ورضاه منه بأدنى شئ، وتسليمه له الأحكام والقضايا باعتقاد حسن التدبير، وكمال التقدير فيها، وتسليم العبد إلى مولاه ما في يديه رضا بحكمه عليه.

---

(1) رواه ابن حبان من حديث أنس.

(2) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن علي بن أبي طالب.

وأن لا يشكو الملك السيد إلى العبد المملوك، ولا يتبرم بفعل الحبيب، ولا يفقد في كل شيء حسن صنع القريب. ومن الرضا عند أهل الرضا أن لا يقول العبد: هذا يوم شديد الحر، ولا هذا يوم شديد البرد، ولا يقول: الفقر بلاء ومحنة، والعيال هم وتعب، والاحتراف كد ومشقة، بل يرضى القلب ويسلم، ويسكن العقل ويستسلم بوجود حلاوة التدبير، واستحسان حكم التقدير. وأول الرضا الصبر، ثم القناعة، ثم الزهد، ثم المحبة، ثم التوكل، فالرضا حينئذ حال المتوكل، والتوكل مقام الرضا.

إعلم أن الرضا في مقامات اليقين، وأحوال المحبين ومشاهدة المتوكلين، وهو داخل في كل أفعال الله سبحانه وتعالى لأنها عن قضائه، ولا يكون في ملكه إلا ما قضاه، فعلى العارفين به الرضا بالقضاء، ثم يرد ذلك إلى تفصيل العلم وترتيب الأحكام، فما كان من خير وبر، أمر به أو ندب إليه، رضي به العبد وأحبه شرعاً وفعلا، ووجب عليه الشكر، وما كان من شر، نهى عنه وتهدد عليه، فعلى العبد أن يرضى به عدلا وقدراً ويسلمه لمولاه حكمة وحكماً، وعليه أن يصبر عنه ويقر به ذنباً، ويعترف به لنفسه ظلما، ويرضى بعود الأحكام عليه بالعقاب، وأنه اجترحه بجوارحه اكتسابا ورضا بأن لله الحجة البالغة عليه، وأن لا عذر له فيه، ويرضى بأنه في مشيئة الله عز وجل، من عفو عنه برحمته وكرمه إن شاء، أو عقوبة له بعدله وحقه إن شاء، وفصل الخطاب أنه يرضى بسوء القضاء عقدا إلا من نفسه فعلا، ويرضى به عن الله ولا يرضى به من نفسه، لأن الموقنين والمحبين لا يسقطون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولا ينكرون إنكار المعاصي وكراهتها بالألسنة والقلوب، من قبل أن الإيمان فرضها والشرع ورد بها، ولأن الحبيب كرهها، فكانوا معه فيما كره، كما كانوا معه فيما أحب. ومقام اليقين لا يسقط فرائض

الإيمان، ومشاهدة التوحيد لا تبطل شرائع الرسول، ولا تسقط اتباعه، فمن زعم ذلك فقد افترى على الله ورسوله، وكذب على الموقنين والمحبين، ألم تر أن الله تعالى ذم قوما رضوا بالدنيا، رضوا بالمعاصي، رضوا بالتخلف عن السوابق، فقال سبحانه: ﴿وَرَضُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾(1). فذمهم بذلك، وقال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ
وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾(2). فعابهم به، وقال تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ﴾(3)، يعني النساء وهذا جمع التأنيث ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾(4).

الرضا بالمعاصي والمنكرات جهل:

فمن رضي بالمعاصي والمناكير منه أو من غيره،وأحب لأجلها ووالى ونصر عليها، أو ادعى أن ذلك في مقام الرضا الذي يجازى عليه بالرضا، أو أنه حال الراضين الذين وصفهم الله تعالى ومدحهم فهو مع هؤلاء الذين ذم الله ومقت. وفي الخبر: (الدال على الشر كفاعله)(4). وعن ابن مسعود: أن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر فاعله، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يبلغه فيرضى به. وقد جاء في الحديث: (لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله). وقد روينا حديثا حسنا عن النبي ﴿ﷺ﴾من طريق مرسل: (من

(1) سورة يونس الآية 7.

(2) سورة الأنعام الآية 113.

(3،4) سورة التوبة الآية 87.

(4) أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث أنس.

نظر إلى من فوقه في الدين وإلى دونه في الدنيا كتبه الله صابرا شاكرا، ومن نظر إلى من دونه في الدين ومن فوقه في الدنيا لم يكتبه الله صابرا ولا شاكرا﴾(1)، وقد غلط في باب الرضا بعض الطالبين من المتأخرين ممن لا علم له ولا يقين، فحمل الرضا على جميع ما يكون منه معصية وهوى لجهله بالتفصيل، وقلة فهمه بعلم التأويل، ولاتباعه ما تشابه من التنزيل، طلبا للفتنة وغرابة الحال، وابتداعا في القول والفعال، لأن أوقاته قد ذهبت فلا يذهب وقت غيره بذكرها، وبطلان قول هذا عند العلماءِ أظهر من أن يدل على فساده، والاشتغال بالبطال بطالة، وإنما الرضا فيما كان غير مخالفة لله ولا معصية، مثل ما يكون من نقص الدنيا ونقص الأموال والأنفس من الأهل والولد، وفيما على النفس فيه مشقة ولها منه كراهة، وفيما كان مزيدا في الآخرة لا عقوبة فيه من الله، ولا وعيد عليه، ولا ذم لفاعليه.

وقد يحتج أيضا بطال لبخله وقلة مواساته وبذله، أو يعتل لاتساعه في أمر الدنيا واستئثاره على الفقر، إن الذي يمنعه من البذل والإيثار، والزهد فيما في يده والإخراج، رضاه بحاله وقلة اعتراضه على مجريه فيه، وأن هذا مقام من مقامات الرضا خص به عند نفسه، وهو قول لاعب ذى هوى، وهو من خدع النفوس وأمانيها، ومن غرور العدو ومكايده، لأن الرضا لا يمنع من اختيار الفقر والضيقة لمعرفة الراضي بفضل الزهد وأوصافه كيف يكون. فالراضي لا يأمر بالاستيثار والاتساع لما كره من النعمة والاستكثار، لأن الرضا لا يوقف عما ندب العبد إليه ولا يحمل على ما كره له، وهذا اعتذار من النفس، وتمويه على الخلق ليسلم منهم، ولا عذر بهذا عند مالكه، ولا سلامة له فيه من خالقه.

---

(1) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمر.

ومجمل ما ذكرناه أن الرضا لا يصح إلا فيما يحسن الصبر عليه، والشكر عليه، لأن الرضا مقام فوق الصبر والشكر ومزيد الصابرين والشاكرين، فأما أن يكون العبد على نقصان من الدين، وفي مزيد من الدنيا، ثم رضي بحاله، فرضاه بحاله شر من أعماله لمخالفة الأمر. قال الله عز وجل: ﴿اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾(1). وقال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾(2). وقال تعالى ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(3). ﴿وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (4). وقال تعالى: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(5). فندب إلى المسارعة والمسابقة وذم التخلف عنها، والتثبيط بالعوائق، فعلى هذا طريق المؤمنين وفيه مقامات الموقنين.

صفات الراضي عن الله المتمكن في المشهدين:

جاء في الخبر: (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس من المسلمين)(6). وفي الخبر المشهور: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض فيه)(7). فجعل ذلك من أوثق العرى، لأنه منوط بالإيمان لا يستطيع الشيطان حله ولا سلطان له عليه، كما لا

---

(1) سورة المائدة الآية 35.

(2) سورة الإسراء الآية 57.

(3) سورة الحديد الآية 21.

(4) سورة المطففين الآية 26.

(5) سورة المؤمنون الآية 61.

(6) رواه الحاكم من حديث حذيفة.

(7) رواه أحمد.

سبيل له على حل عقد الإيمان، لأن الله يحول بينه وبينه، وقد تولى الله تأييد الإيمان بروح القدس بعد كتبه في القلوب برحمته، وفي الحب لله الولاية والنصرة بالنفس والمال والفعل والمقال، وفي البغض في الله ترك ذلك، فبغض المبتدع والفاجر والمجاهر والظالم والمعتدي وترك موالاتهم ونصرتهم واجب على المؤمنين، فلأجل ذلك صارت الموالاة لأولياء الله تعالى، والمعاداة لأعدائه من أوثق عرى الإيمان، لأنك قد تعصى وتخالف مولاك بتسليط العدو وغلبة هواك، إلا أنك تبغض العاصين، ولا تواليهم على المعاصي ولا تحبهم لأجلها، من قبل أن العدو لم يسلط على حل عقد إيمانك كما سلط على فعله من نفسك، كما أنه لم يسلط على حل عقد إيمانك كما سلط على حل المراقبة والخوف منك، ولم يسلط أيضا عليك في استحلال المحارم ولا استحسانها ولا التدين بها ولا في ترك التوبة منها ولا بالرضا بها، كما سلط عليك باقترافها.

فإن سلط على مثل هذا منك العدو حتى تحب الفساق وتواليهم، وتنصرهم على فسقهم، أو تستحل ما ارتكب من الحرام، أو ترضى به، أو تدين به، فقد انسلخ منك الإيمان كما انسلخ النهار من الليل، فلست منه في كثير ولا قليل، لأن هذه العقود منوطة بعرى الإيمان، وهم في قرن واحد مقترنان، ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ﴾(1)، أو ما سمعته تعالى يقول: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء

(1) سورة آل عمران الآية 27.

بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(1). ومثله: ﴿لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُواْ لِلّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُّبِيناً﴾(2)، أي حجة قاطعة أن يجمعكم وإياهم في النار، وكذلك قال تعالى: ﴿وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(4). ثم قال: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾(5).

وقد روينا أن الله تعالى أخذ على كل مؤمن في الميثاق أن يبغض كل منافق، وأخذ على كل منافق أن يبغض كل مؤمن. وفي الخبر المشهور (المرء مع من أحب وله ما اكتسب)(6)، وفي حديث آخر: (من أحب قوما ووالاهم في الدنيا جاء معهم في القيامة)(7). وفي معنى قوله: (أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض فيه)(8)، وجه خفي، هو أن يحبك المؤمنون ويبغضك المنافقون، فيكون ذلك علامة وثيقة عرى إيمانك، لأن قوله الحب في الله يصلح أن يبغضك المنافقون كما تبغضهم

---

(1) سورة المائدة الآية 51.

(2) سورة النساء الآية 143.

(3) سورة الجاثية الآية 19.

(4) سورة الأنعام الآية 129.

(5) سورة النساء الآية 115.

(6) رواه الترمذي عن أنس.

(7) رواه الطبراني من حديث جابر.

(8) رواه أحمد.

أنـت، فكأنـك تتحبـب إلى المـؤمنين حـتى يحبونـك وتـبغض إلى المنـافقين حـتى يبغضوك، بإظهـار التباعـد عنهم وبترك الموالاة لهـم وبنصحك إياهـم، فيـدل ذلـك على قوة إيمانك. لم تأخذك في الله لومة لائم منهم، كما وصف تعالى بذلك من يحبهم ويحبونـه. ويكـون ذلـك أبعـد لـك مـن المداهنـة والنفـاق وأقـرب إلى الـورع والإخلاص، فإذا فعلت ذلك بهم أبغضوك أو مقتوك، فهذا على معنى ما قاله تعـالى: ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾(1)، وقولـه سبحانه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾(2). وكما أمر نبيه ﴿ﷺ﴾بقوله: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾(3).

وسائل نوال الرضا:

وقال بعض المريدين: قلت لبعض أهل المعرفة: إني كثير الغفلة عن الله قليل المسارعة إلى مرضاته، أوصني بشيء أعمله أدرك به ما يفوتني من هذا، قال: يا أخي إن استطعت أن تتحبب إلى أولياء الله وتتقرب من قلوبهم فافعل، لعلهم يحبونك فإن الله عز وجل ينظر إلى قلوب أوليائه في كل يوم سبعين نظرة، فلعله أن ينظر إليك في قلوبهم لمحبتهم لك، فيجيرك حيرة الدنيا والآخرة إذا لم تكن ممن ينظر إليه كفاحا. وكذلك يقال: إن الله عز وجل ينظر إلى قلوب الصديقين والشهداء مواجهة، ثم ينظر إلى قلوب قوم في قلوب قوم، وإلى قلوب قوم من قلوب آخرين. فهكذا عندي من عزائم الدين، وسبيل الورعين أن تتبغض إلى أعدائه وتتمقت

(1) سورة الفتح الآية 29.

(2) سورة المائدة الآية 54.

(3) سورة التوبة الآية 123.

إليهم من المبتدعين والظالمين ليبغضونك ويمقتوك، فيكون لك من القربة كحب أوليائه لك وحبك لهم، فهذا من أسباب ولاية الله.

وقد روينا عن النبي ﴿ﷺ﴾(اللهم لا تجعل لفاجر عندى يد فيحبه قلبى)(1). ووصل بعض الأمراء أبا هريرة بألف دينار وعشرة أثواب فردها عليه، وقال: ما كنت لأقبل منه، يأخذ المال من غير حله ويضعه في غير حقه، وقد قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(ردوا هدية الفاجر عليه لا يرى أنكم ترضون عمله).

وقد جعل الله من أراد أن يحبه الفاسقون ويأمن فيهم، وجعل من يسارع بالإدهان وإظهار المتابعة للظالمين خشية دور الدوائر عليه علمين من أعلام النفاق فقال تعالى:

﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنِةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا﴾(2)، وقال تعالى في المعنى الثاني: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني المنافقين: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾. يعني يواطئون الكافرين سرا: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ أي نخاف أن تكون الدولة للكافرين على المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُواْ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(3). فينبغي لمن آمن في المؤمنين وأهل السنة وأحبوه، أن يخاف في المنافقين وأهل البدع، وأن يبغضوه، وينبغي لمن سارع في مواطأة المؤمنين أن يني

---

(1) أخرجه أبو منصور الديلمى من حديث معاذ بن جبل.

(2) سورة النساء الآية 91.

(3) سورة المائدة الآية 52.

ويبطيء في مداهنة الظالمين ومتابعتهم، حتى يخلص له إيمانه من النفاق، وتستقيم طريقه من الضلال.

وقد نفى الله الإيمان عمن أحب من حاده وأثبت الإيمان والتأييد باليقين لمن أبغض فيه أعداءه، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾(1). فأما من قال من الجاهلين بأن الرضا قد يكون بالمعاصى منه أو من سواه كما يكون في الطاعات، فقد جعل المعاصي والمخالفات من القربات وسوى بينهما، وفي هذا هدم شرائع الأنبياء وإبطال تفصيل ما أحل الله لنا مما حرم علينا، وما أمرنا به مما نهانا عنه. وقد روى في خبر: (من شر الناس منزلة عند الله من يقتدى بسيئة المؤمن ويترك حسنته)، وقال بعض العلماء: من حمل شاذ العلماء فقد حمل شرا كثيرا.

ومن حسن الأدب في المعاملة، إذا عملت صالحا فقل: يا سيدي أنت استعملتني، وبحولك وقوتك وحسن توفيقك أطعتك، لأن جوارحي جنودك، وإذا عملت سيئا ظلمت نفسي، وبهواي وشهواتي اجترحت جوارحي وهي صفاتي، ثم تعتقد في ذلك أنه بقدره ومشيئته كان ما قضاه، فتكون بالمعنيين قد وافقت مرضاة مولاك، وتكون في الحالين عاملا بما يرضيه بالقول والعقود وينتفي عنك العجب في أعمال برك، ويصح منك المقت لنفسك واعترافك بظلمك، وقد ثقلت هذه المشاهدة على الجاهل.

(1) سورة المجادلة الآية 22.

تاسعا: مقام المحبة:

لما كانت مقامات اليقين عن مشاهدات، وعلومها عن مواجيد حقه، كانت أحكامها ومسائلها تحتاج إلى تسليم كامل، لأن أحكام العقل المكتسب وعلوم أهل النظر التي اكتسبت من المقدمات اليقينية أو الحدسية قاصرة على كشف خواص الكونيات. وليس للعقل ولا لقوة النظر أن تدرك المشاهدة القدسية، أو تسلم بتلك المقامات العلية، فالمحبة عند أهل النظر والكلام هي الإرادة، والإرادة لا تتعلق بالقديم الأول، ولذلك أنكروا المحبة، فلو أننا قبل أن نتكلم في شرح المحبة جارينا المنكرين لمحبة الله تعالى، وأقمنا عليهم الحجة بتعريفهم المحبة بكونها الإرادة، فنتقول لهم محبة الله للعبد هي إرادة الله تعالى أن يخصه بالقرب، وأن يجمله بالأحوال العالية، كما أن إرادة الله تعالى أن يوصل إلى العبد الإنعام والثواب هي رحمة الله تعالى. وإرادته سبحانه تعالى صفة واحدة، وتختلف أسماؤها بحسب تفاوت متعلقاتها، فإذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً، وإذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة، وإذا تعلقت بخصوص النعم تسمى محبة، وأما المحبة بمعنى الميل، فلم يقل به أحد من الصوفية لأن الله تنزه عن ذلك، كما أن الرحمة لمعنى انفعال القلب بالعاطفة لا يقول بها أحد من المسلمين، وهو الرحمن الرحيم، فإنكارهم المحبة على أهلها بمدلولها الذي وقفوا عنده مؤد إلى إنكار أكثر الصفات التي ثبتت بالقرآن العظيم وبكلام رسول الله ﴿ﷺ﴾، فإن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾(1). وقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(1). كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(2).

(1) سورة آل عمران الآية 31.

فأهل النظر وعلماء الكلام أثبتوا صفة الكلام لله وأنكروا صفة المحبة، وإني لأعذرهم لأن محبة الله للعبد فضل الله العظيم عليه، ولو منحهم شمة من المحبة لانصبوا بكليتهم على جناب القدس الأعلى، ولتمزقت أغشية قلوبهم تألها للجميل الأول، الجليل الأكبر، وقد تأولها بعضهم بأنها امتثال أوامر الله تعالى، لأنهم رأوا أن المحبة لا تكون إلا بالمجانسة والمشاكلة والمشابهة، والحق تنزه عن الشبيه، والمثيل، ويرد عليهم أن النفوس الزكية تعشق الصفات الجميلة الكاملة الجليلة المقدسة، وتنجذب إليها بتأله وولع، والمحبة أخفى من أن تعرف، وأدق من أن توصف، لأنها عن مكاشفة معاني منزه على جميل جليل ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(3).

أمثلة من مواجيد الصحابة:

وقد اعترض بعض المتكلمين بأن الصحابة رضوان الله عليهم لم تظهر عليهم هذه الأحوال، وهذا الاعتراض لجهل المعترض بأحوال الصحابة رضوان الله عليهم ومواجيدهم الصادقة، أذكر أمثلة من مواجيدهم:

أولاً: نوم علي بن أبي طالب عليه السلام على فراش رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ليقتله المشركون.

---

(1) سورة المائدة الآية 54.

(2) سورة النساء الآية 164.

(3) سورة الأنعام الآية 103.

ثانياً: وضع أبي بكر ﵁ قدمه على الحية عند خروجها من جحرها، وهو في الغار ورسول الله ﴿ﷺ﴾نائم على فخذه خشية من أن ينزعج رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾من نومه.

ثالثا: ما كان يفعله المشركون ببلال ﵁ لما كانوا يلقونه على الأرض ويدوسون عليه بأقدامهم حتى يخرج لسانه ليرتد.

رابعاً: هجرة كثير من الصحابة إلى الحبشة مشاة على أقدامهم مع الجوع والعطش فراراً بدينهم.

خامساً: بذل الأموال والأنفس ومعاداة الوالدين والأولاد وقتل الأقارب وتحمل الشدائد التي لا تطيقها الجبال مع السرور والبهجة والفرح، ومشاطرة الأموال كما فعل الأنصار مع المهاجرين حتى كان الرجل يطلق إحدى زوجتيه ليزوجها لأخيه، والرضا بالجوع والعطش والعري السنين الطوال مع البهجة والسرور كما فعل أهل الصفة، والإقدام على الجهاد بالفتح والتلذذ بقطع اليد والرجل وضياع العين في سبيل الله تعالى.

ولهم في المحبة عبارات تسكر الأرواح قال الصديق ﵁: من ذاق شيئا من خالص محبة الله تعالى ألهاه ذلك عن كل ما سواه.

وهذه قطرة صغيرة من محيط عظيم من أحوال الصحابة ﵃ ومواجيدهم مما دل على امتلاء بواطنهم بحب الله تعالى، ومشاهدته، وأن قلوبهم تألهت بحب الله تعالى ولكن من لم يذق المحبة كيف يفهم أسرارها أو يسلم أحوالها؟ هذه مقدمة قدمتها

ليطمئن بها قلب من سبقت له الحسنى بذوق المحبة فإن المحبة ترمي بالعامة إلى أرقى مراتب الخاصة وإن لم يعملوا عملا.

المحبة(1):

هي المقام التاسع من مقامات علوم اليقين، والمحبة من أعلى مقامات العارفين.

تعريفها: محبة الله للعبد إيثار من الله تعالى لعباده المخلصين، بهذا الإيثار يرفع إلى مقام المقربين ومعية رب العالمين وعندية المليك المقتدر في مقعد صدق، كما قال إخوة يوسف ﴿تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا﴾(2). محبة العبد لله تعالى إيثار العبد ربه على كل شيء حتى يتأله له دون كل شئ، ويشتغل بذكره عمن سواه، ويحترق حبا فيه حتى يكشف له الحجب فيراه. ومحبة الله تعالى يكون معها نهاية الفضل العظيم لعبده، قال الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(3) ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾(4)، وهذا الخبر متصل بالابتداء في المعنى، لأن الله تعالى وصف المؤمنين المحبين بفضله عليهم، وما اعترض بينهما من الكلام فهو نعت المحبوبين. وروي عنه ﴿ﷺ﴾(ما كان الله ليعذب حبيبه بالنار)(5)، وقال تعالى مصداق

(1) راجع (قوت القلوب) جـ 2 ص 50(بتصرف).

(2) سورة يوسف الآية 91.

(3) سورة المائدة الآية 54.

(4) سورة المائدة الآية 54.

(5) رواه ابن ماجة.

قول نبيه ﷺ وآله رداً على من ادعى محبته، واحتجاجاً عليهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾(1).

قال زيد بن أسلم: إن الله ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول: اصنع ما شئت فقد غفرت لك. وروينا عنه ﴿ﷺ﴾أنه قال: (إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ثم تلا)(2): ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(3). وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنوب بقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(4). فكل مؤمن بالله فهو محب لله، ولكن محبته على قدر إيمانه وكشف مشاهدته وتجلي المحبوب له على وصف من أوصافه، دليل ذلك استجابتهم له بالتوحيد، والتزام أمره وتسليم حكمه، ثم تفاوتهم في مشاهدات التوحيد، وفي دوام الالتزام للأوامر وفي تسليم الأحكام، فليس ذلك يكون إلا عن محبة، وإن تفاوت المحبون على حسب أقسامهم من المحبوب وليس يقصر عن المحبة صغير، كما لا يصغر عن المعرفة من عرف، ولا يكبر عن التوبة كبير، ولو كان على كل العلوم قد أوقف، لأن الله تعالى وصف المؤمنين بشدة الحب له فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِّلّهِ﴾(5)، وفي قوله أشد دليل على تفاوتهم في المحبة لأن المعنى أشد فأشد، ولم يقل شديدوا الحب في الله، فأشبه هذا

(1) سورة المائدة الآية 18.

(2) أخرجه صاحب الفردوس.

(3) سورة البقرة الآية 222.

(4) سورة آل عمران الآية 31.

(5) سورة البقرة الآية 164.

الخطاب قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1). فدل على تفاوتهم في الإكرام على قدر تفاضلهم في التقوى، ولم يقل إن الكرام المتقون، وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب)(2)، فالمؤمنون متزايدون في الحب في الله عز وجل عن تزايدهم في المعرفة به والمشاهدة له.

الحب لله من شروط الإيمان:

وقد جعل عليه الصلاة والسلام الحب لله من شرط الإيمان قال: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)(3)، وفي حديث: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)(4) وفي خبر آخر أشد توكيداً وأبلغ من هذين قوله: (والله لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)(5)، وفي خبر: (ومن نفسك)، وقد أمر ﴿ﷺ﴾بالمحبة لله فيما شرعه من الأحكام فقال: (أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه وأحبوني لحب الله)(6)، فدل ذلك على فرض الحب لله، وإن تفاضل المؤمنون في نهايات فضائله. ومن أفضل ما أسدى إلينا من نعمه، المعرفة به، فأفضل الحب له ما كان عن المشاهدة.

---

(1) سورة الحجرات الآية 13.

(2) رواه الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود.

(3) أخرجه أحمد من حديث رزين العقيلي.

(4) متفق عليه من حديث أنس.

(5) متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم.

(6) رواه الترمذي من حديث ابن عباس.

من مراتب المحبين:

والمحبون لله على مراتب من المحبة، بعضها أفضل من بعض، فأشدهم حباً لله أحسنهم تخلقاً بأخلاقه مثل العلم والحلم والعفو وحسن الخلق والستر على الخلق، وأعرفهم بمعاني صفاته، وأتركهم منازعة له في معاني الصفات، كي لا يشركوه فيها مثل الكبر والحمد وحب المدح وحب الغنى والعز وطلب الذكر، ثم أشدهم حباً لرسوله إذ كان حبيب الحبيب، وأتبعهم لآثاره أشبههم هديا لشمائله.

وقد روى: (أن رجلا قال: يا رسول الله إني أحبك، فقال: استعد للفقر، فقال: إني أحب الله، فقال استعد للبلاء)(1)، والفرق أن البلاء من أخلاق المبلى وهو الله تعالى المبتلي، فلما ذكر محبته أخبره بالبلاء ليصبر على أخلاقه كما قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾(2)، فدل على أحكامه وبلائه، والفقر من أوصاف رسول الله ﴿ﷺ﴾، فلما ذكر محبته دل على اتباع أوصافه ليقتفى آثاره لقوله صلى الله عليه وسلم: (أحيني مسكينا وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين)(3).

الذكر من علامات المحبة:

ومن علامة المحبة كثرة ذكر الحبيب، وهو دليل محبة المولى لعبده، وهو من أفضل مننه على خلقه، وفي الخبر: (إن لله في كل يوم صدقة يمن بها على خلقه، وما تصدق على عبد بصدقة أفضل من أن يلهمه ذكره)(4). وأمر ﴿صلى الله

---

(1) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل.

(2) سورة المدثر الآية 7.

(3) رواه الترمذي من حديث أنس.

(4) رواه ابن أبي الدنيا عن أبي ذر.

عليه وآله وسلم﴾بكثرة الذكر لله، كما أمر بمحبة الله لأن الذكر مقتضى المحبة فقال: (أكثر من ذكر الله حتى يقال إنك مجنون)(1)، وقال عليه الصلاة والسلام: (أكثروا من ذكر الله حتى يقول المنافقون إنكم مراؤن)(2)، وقال من حديث طويل: (من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، ومن أكثر ذكر الله أحبه الله)(3)، وقد أخبر أن الذاكرين هم السابقون المفردون، ورفعهم إلى مقام النبوة في وضع الوزر ورفع الذكر إن كان الذكر موجب الحب في قوله: (سيروا سبق المفردون، قيل: من المفردون؟ قال: المشتغلون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم، يردون القيامة خفافا)(4). ومن أعلام المحبة حب لقاء الحبيب على العيان، والكشف في دار السلام ومحل القرب، وهو الاشتياق إلى الموت لأنه مفتاح اللقاء وباب الدخول لا المعاينة، وفي الحديث: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه)(5). وقد شرط الله لحقيقة الصدق القتل في سبيله، وأخبر أنه يحب قتل محبوبه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(6) بعد قوله تقريعاً لهم: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾(7) حيث قالوا: إنا نحب الله فجعل القتل محنة

(1) رواه أحمد وأبو يعلي.

(2) رواه الطبراني والبيهقي عن ابن عباس.

(3) رواه ابن ماجة من حديث أبي سعيد.

(4) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة.

(5) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(6) سورة الصف الآية 4.

(7) سورة الصف الآية 2.

محبته، وعلامة أخذ مال محنة محبوبه ونفسه، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(1).

وفى وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما: (الحق ثقيل وهو مع ثقله مريء، والباطل خفيف وهو مع خفته وبئ، فإن حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه). قال بعض العارفين: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب يعني الفؤاد، كان المؤمن يحب الله حباً متوسطاً، فإذا دخل الإيمان باطن القلب فكان في سويدائه أحبه الحب البالغ، وعلامة ذلك أن ينظر. فإن كان يؤثر الله على جميع هواه ويغلب محبته على هوى العبد حتى تصير محبة الله هي محبة العبد من كل شيء، فهو محب لله حقا، كما أنه مؤمن به حقا، وإن رأيت قلبك دون ذلك فلك من المحبة بقدر ذلك، فأدل علامات المحبة الإيثار للمحبوب على ذخائر القلوب. ومحبة الإسلام مفترضة على الخلق، وهي متصلة بأداء الفرائض واجتناب المحارم طاعة لله ومحبة له. أما محبة المقربين فعن مشاهدة معاني الصفات، وبعد معرفة أخلاق الذات، وهي مخصوصة بمخصوصين، والأصل في هذا أن المحبة إذا كانت عن المعرفة فإن المعرفة عموم وخصوص، فلخصوص العارفين خاصة المحبة، ولعمومهم عموم المحبة.

وقال الفضيل بن عياض في فرض المحبة: إذا قيل لك، تحب الله فاسكت، فإن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين. فاحذر المقت، وقال عالم: كل أهل المقامات يرجى أن يعفى عنهم ويسمح لهم، إلا من ادعى

(1) سورة التوبة الآية 111.

المعرفة والمحبة فإنهم يطالبون بكل شعرة مطالبة، وبكل حركة وسكون، وكل نظرة وخطرة لله وفي الله ومع الله.

بيان محبة الله للعبد:

إعلم أن المحبة من الله لعبده ليست كمحبة الخلق، إذ محبة الخلق تكون حادثة لأحد سبع معان: لطبع أو لجنس أو لنفع أو لوصف أو لهوى أو لرحم ماسة أو لتقرب بذلك إلى الله، فهذه حدود الشيء الذي يشبهه الشيء. والله يتعالى عن جميع ذلك. لا يوصف بشيء منه، إذ ليس كمثله شيء في كل شئ، ولأن هذه أسباب محدثة في الخلق لمعان حادثة ومتولدة من المحبين لأسباب عليهم داخلة، وقد تتغير الأوقات وتنقلب لانقلاب الأوصاف، محبة الله سابقة للأسباب عن كلمته الحسنى، قديمة قبل الحادثات، عن عنايته العليا، لا تتغير أبدا ولا تنقلب لأجل ما بدا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾(1) يعني الكلمة الحسنى، وقيل: المنزلة الحسنى، فلا يجوز أن يسبقها سابق منهم بل قد سبقت كل سابقة تكون كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾(2)، فكذلك قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(3)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(4)، وقال تعالى في آخر آياتهم: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ

---

(1) سورة الأنبياء الآية 101.

(2) سورة الأنبياء الآية 51.

(3) سورة الحج الآية 78.

(4) سورة يونس الآية 2.

عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾(1). ولا يصلح أن يكون قبل قدم الصدق منهم قدم، كما لا يصلح أن يكون قبل علمه بهم منهم عمل بهم منهم، لأن علمه سبق المعلوم، ومحبته لأوليائه سبقت محبتهم إياه ومعاملتهم له، ثم هي مع ذلك خاصية حكم من أحكامه، ومزيد من فضل أقسامه، وتتمة من سابغ إنعامه خالصة لمخلصين، ومؤثرة لمؤثرين بقدم صدق سابق لخالصين، يئول لمقعد صدق عند صادق لسابقين، ليس لذلك سبب معقول، ولا لأجل عمل معمول، بل يجري مجرى القدر، ولطف القادر. وإفشاء سر القدر كفر، ولا يعلمه إلا نبي أو صديق ولا يطلع عليه إلا من يظهره الله عليه، وما ظهر في الأخبار من الأسباب فإنما هو طريق الأحباب، ومقامات أهل القرب من أولي الألباب.

وإنما تستبين المحبة وتظهر للعبد لحسن توفيقه وكلاءة عصمته، ولطائف تعليمه من غرائب علمه، وخفايا لطفه في سرعة ردهم إليه في كل شئ، ووقوفهم عنده، ونظرهم إليه دون كل شئ، وقربه منهم أقرب من كل شئ، وكثرة استعمالهم لحسن مرضاته، وكشف اطلاعهم على معاني صفاته، ولطيف تعريفه لهم مكنون أسراره، وفتوحه لأفكارهم من بواطن إنعامه، واستخراجه منهم خالص شكره وحقيقة ذكره، فهذه طرقات المحبين له عن كشوف اطلاعه لهم من عين اليقين، يقال: إذا أحب الله العبد استخدمه فإذا استخدمه اقتطعه. وقيل: إذا أحب الله عبداً نظر إليه وإذا نظر الله إلى عبده لم يعذبه. فالمحبة مزيد إيثار من المحب الأول، وهو الله لعبده، وأحكام تظهر من المحبوب وهو العبد في حسن معاملته، أو حقيقة علم يهبه له، وقالت الرسل: ﴿إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ

(1) سورة القمر الآية 55.

عِبَادِهِ﴾(1)، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾(2)، وفي الخبر: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه- يعني اختبره- فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه)(3). ومن دلائل المحبة حب كلام الحبيب، وتكريره على الأسماع والقلوب. ومن علامة حب القرآن، حب أهل القرآن وكثرة تلاوته آناء الليل وأطراف النهار.

وقال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب الله وحب النبي عليه الصلاة والسلام، وعلامة حب النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً يوصله إلى الآخرة. وعلامة حب المولى، تقديم أمور الآخرة من كل ما يقرب من الحبيب على أمور الدنيا من كل ما تهوى النفس، والمبادرة بأوامر المحبوب ثم إيثار محبته على هواك، واتباع رسول الله ﴿ﷺ﴾فيما أمرك به ونهاك عنه، والذل لأوليائه من العلماء به العاملين، ثم التعزز على أبناء الدنيا، ومن المحبة ترك السكون إلى غير محبوبه إذ هو السكن، ثم الطمأنينة إلى الحبيب، وعكوف الهم على القريب، ودوام النظر وسياحة الفكر، لأن من عرفه أحبه، ومن أحبه نظر إليه، ومن نظر إليه عكف عليه. ومن المحبة التناصح بالحق والتواصي به والصبر على ذلك.

---

(1) سورة إبراهيم الآية 11.

(2) سورة الحج الآية 75.

(3) ذكره صاحب الفردوس من حديث سيدنا علي عليه السلام.

المحبوب:

وعندي: لما كان المحبوب مراد ذات الله تعالى، المجمل بجمال عواطفه سبحانه، المحلى بحلل إحسانه، المنظور بأعين حنانه، كان له من مشاهد الكمالات قوام، ومن منازلات الجمالات مزاج، كانت المواجهات الجمالية والمنازلات الإحسانية لا تحجب لطائف قلبه عن الإشراف على لوامع عظمة الذات الأحدية، وبوارق الكبرياء والجبروت، فكان لما يواجه به من الجمالات العلية عن وصف قريب محبب، تجعله عاشقا متألها، وما يشرف عليه من معاني عزة وجبروت، وعظمة وكبرياء، وجلال وكمال، يجعله دائم الرهبة والخوف، والخشية والخشوع، وما يعلمه باليقين الحق من علو المحبوب عن المثيل والنظير والضد والند، وأنه غني غنى مطلقا بذاته عمن سواه، وأنه لا يسئل عما يفعل، المشيئة مشيئته، إن شاء أن يواجه كل شيء واجه كل شئ، وإن شاء أن يحجب عنه كل شيء حجب عنه كل شئ، فمن اجتمعت عليه كل المعاني الثلاث، دل العشق مع طمع العاشق في نوال رضا المعشوق، والرهبة من العظمة والجبروت والكبرياء، والتحقيق بأن المحبوب غني علي عظيم لا يسئل عما يفعل، تلك المعاني إذا استولت على قلب أذابت أغشيته، ولذلك فللمحبين بحسب مراتبهم في المحبة رهبة.

المخاوف(1):

قال أبي طالب المكي: المخاوف سبعة خاصة بالمحب بعضها فوق بعض، أولها: خوف الاعتراض، وأشد منه: خوف الحجاب. وأعظم من هذا: خوف البعد، وهذا المعنى في سورة هود، هو الذي شيب الحبيب إذا سمع المحبوب يقول: ﴿أَلاَ

(1) راجع (قوت القلوب) جـ 2 ص 58 وما بعدها (بتصرف).

﴿أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾(1)، ﴿أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾(2)، فذكر البعد في البعد يشيب أهل القرب في القرب. ثم: خوف السلب للمريد والإيقاف مع التجديد، وهذا يكون للخصوص في الإظهار والاختيار منهم، فيسلبون حقيقة ذلك عقوبة لهم. ثم: خوف الفوت الذي لا درك له. وأشد من الفوت: خوف السلو، وهذا أخوف ما يخافون، لأن حبه لهم وحبهم له كان به لا بهم، وهو نعمة عظيمة لا يعرف قدرها، فكيف يشكره عليها ولا يقوم لها شئ، فكذلك سلوهم عنه يكون كما كان حبهم له، فيدخل عليهم السلو عنه من حيث لا يشعرون، من مكان ما دخل عليهم الحب له من حيث لا يعلمون. وأشد من هذا كله: خوف الاستبدال، لأنه لا مثوبة فيه، وهذا الاستدراج يقع عن نهاية المقت من المحبوب، وغاية البغض منه، والبعد والسلو مقدمة هذا المقام والإعراض والحجاب بداية ذلك كله. والقبض عن الذكر وضيق الصدر بالبر أسباب هذه المعانى المبعدة، والمدارج المدرجة، إذا قويت وتزايدت أخرجت إلى هذا كله، وإذا تناقصت وبدت بها الصالحات والحسنات أدخلت في مقامات المحبة والقربات، فالعاكف على هواه مقيت الله، والخوف من هذه المعانى علامة المعرفة بأخلاقه الملونة، ولا يصح شرح هذه المقامات في كتاب، ولا تفصيلها برسم خطاب، إنما يشرح في قلب بيقينه قد شرح، ويفصل لعبد من نفسه قد فصل، فأما قلب مشترك وعبد في هواه مرتبك، فليس لذلك أهلا والله المستعان.

---

(1) سورة هود الآية 68.

(2) سورة هود الآية 95.

كشف الأبرار:

وقال بعض العلماء: من عرف الله من طريق المحبة بغير خوف هلك بالبسط والإدلال، ومن عرفه من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عرف الله من طريق المحبة والخوف أحبه الله فقربه وعلمه ومكنه. وليس العجب من خوف الخائفين، وإنما العجب من خوف المحبين مع ما عرفوا من أخلاقه وحنانه، وشهدوا من تعطفه وألطافه ما لم يعرف الخائفون، ثم هم مع حبهم يهابونه، وعلى أنفسهم يخافونه، وفي فزعهم منه يشتاقون إليه، وفي بسطه ينقبضون بين يديه، وفي إعزازه لهم يذلون له. فللمحبين الانقباض في البسط، وللخائفين الانقباض في القبض، وللمحبين الذل مع العز والكرامة، وللخائفين الذلة مع الهيبة والمهانة. فهذا يدل على أن معرفة المحبين به أعظم المعارف، إذا كانت أوائل أحوالهم المخاوف، فكل محب لله خائف وليس كل خائف محباً، وهذا كشف الأبرار وهو حجاب المقربين، لأن المحبين لهم من الخوف قوت ومن المحبة اتساع، والخائفون لهم من الخوف اتساع، ومن المحبة قوت.

وفى سبق ترتيب المقامات من الله تعالى حكم غريب، وحكمة لطيفة لا يعرفها إلا من أعطى يقين شهادتها، إن سبق إلى العبد بمقام الخوف كان محبا حب المقربين العارفين ، وإن سبق إليه بمقام المحبة كان محبا محبة أصحاب اليمين ولم يكن له مقامات المحبين المستأنسين ولا المشتاقين في مقامات المقربين، وكل هؤلاء موقنون صالحون، وإن خرجت أحوالهم عن ترتيب علوم أهل الظاهر، لأن المنكر لهم أكثر من المقر: ﴿وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(1)،

(1) سورة يوسف الآية 21.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾(1). ومن علم المحبة سهر الليل بمناجاة الجليل، والحنين إلى الغروب شوقا إلى الخلوة بالمحبوب، ومناجاة القلب سرائر الوجد ومطالعه الغيب، والمناجاة عند أهل المصافاة إنما هي بالقلوب، وهي مطالعتها بواطن الغيوب، وجولاتها في سر الملكوت، وعلوها في معاني الجبروت، بأنوار أرواحها يحملها شعاع أنواره، فيوقعها على خزائن أسراره.

الشوق:

أما الشوق فإنه مقام رفيع من مقامات المحبة، وليس يبقى الشوق للعبد راحة ولا نعيما في غير مشوقه، والمشتاقون مقربون بما أشهدوا من الشوق إليه، وهم المأمور بطلبهم، الموجود الحبيب عندهم، مثوبة منه لهم، لما شوقهم إليه في قوله لموسى عليه السلام: (اطلبنى عند المنكسرة قلوبهم من أجلي). هم المشتاقون من المحبين، وذلك أن الحبيب قرب منهم بوصفه تكرماً، ففرحوا بقربه وعاشوا بمشاهدته ونعموا لحضورهم عنده، ثم احتجب غيرة على نفسه لعزه، فانكسرت قلوبهم لأجله فاشتاقوا إلى ما عودهم منه، فثبتت لديه حرمتهم، فأمر أوليائه بطلبهم، وأوجد نفسه عندهم لمكانتهم عنده، ففرح هؤلاء من المحبين بقربه لا يوصف، وانكسارهم وحزنهم لأجله لا يعرف، والله سبحانه وتعالى قد يعرض عن محبيه تعززاً ليزعجهم الشوق إليه، ويقلقهم الأسف عليه، وينظر إليهم في إعراضه عنهم من حيث لا يعلمون، لينظروا إليه من حيث يعلمون، فيسكنون بالأدب بين يديه.

---

(1) سورة آل عمران الآية 163.

وفى خبر وهب بن منبه: (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: إنك تكثر مسألتي، ولا تسألني أن أهب لك الشوق ، قال: يا رب وما الشوق؟ قال: إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، وأتممتها بنور وجهي، فجعلت أسرارهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى عجائب قدرتي فيزدادون في كل يوم شوقا إلي، ثم أدعو نجباء ملائكتي، فإذا أتوني خروا لي سجداً، فأقول: إني لم أدعكم لعبادتي ارفعوا رءوسكم أركم قلوب المشتاقين إليَّ، فوعزتى وجلالي إن سمواتي لتضيء من نور قلوبهم كما تضيء الشمس لأهل الدنيا).

وإنما ذكر ذلك لداود عليه السلام ليسأله إياه فيعطيه، فلما أخبره به أعطاه مقام الشوق إليه فجاوز مقامات المشتاقين من العارفين، وأن يجعل ذلك على لسانه ليريه فضل مكانه، ويظهر له ذلك عن مسألته ليفضله ويشرفه بسرعة إجابته، وسكت عليه السلام بين يديه استحياء منه، واعترف لديه بالجهل لأنه عند علام الغيوب، وأراد أن يسمع منه حقيقة وصفه لأنه أصدق القائلين، وأمدح الواصفين.

الغيرة:

أما الغيرة فحال سنية من أحوال المحبين، لأنه قد أظهرهم على معاني نفسه فضنوا بها لما امتلأت بها قلوبهم، وحارت فيها عقولهم، إلا أن هؤلاء خصوص أصحاب اليمين، وهم عموم المحبين، إلا أنه إذا رفعهم إلى مقام التوحيد فأشهدهم الإيجاد بالوحدانية والانفراد بالفردانية، ونظروا فإذا هو لم يعط منه لسواه شيئا، ولا أظهر من معانيه وصفاً، فانطوت الغيرة في توحيدهم لما عرفوا بيقين التوحيد أنه ما نظر إليه سواه، ولا عرفه إلا إياه، فتسقط هممهم بالغيرة عليه، وعرفوا حكمته

بتعريفه أنواع ما يظهر، وأقسام ما ينشر، وأنه في غيب غيبه لا يظهر عليه سواه، وفي سر سره لا يشهده إلا إياه، فقام لهم مقام المعرفة بالتوحيد مقام الغيرة عليه، فهذا إذا طولعوا به مقام الموحدين من الصديقين. وجميع ما قدمنا ذكره من العلامات والدلالات هي أوصاف المحبين، وكل محب لله فعن محبة الله، لأن وجود العبد لمحبة الله علامة غيب محبة الله له، يبين ذلك الغيب له في هذه الشهادة.

مقامات في المحبة والمشاهدة:

إلا أن في المحبة مقامان: مقام تعريف، ومقام تعرف. فمقام التعريف هو معرفة العموم، وهذا قبل المحبة الخاصة، ومقام التعرف هو معرفة الخصوص وهذا بعد محبة العموم، وهو مزيد الحب الأول وهذا محبة الخصوص.

وكذلك في المحبة مقامان: مقام محب، وأعلى منه مقام محبوب، وهذا كما عبروا عن قولهم: مريد ومراد، وعلى الحقيقة كل مريد لله تعالى فهو مراد بذلك، إلا أنهم جعلوا اسم مراد بوصف مخصوص يعرف به، فيمتاز معه المبتدي من المبادي، والمنيب من المجتبى، والطالب من المطلوب، والراغب من المرغوب، والحافظ من المحفوظ، فكذلك لعمري ليس الحامل مثل المحمول، ولا الزائر كالمزور، ولا الاشتياق كالحضور، ولا المحب مثل المحبوب.

وفى المشاهدة مقامان: مقام شوق، ومقام أنس، فالشوق حال من القلق والانزعاج عن مطالعة العزة، ومعاينة الأوصاف من وراء حجاب الغيب بخفايا الألطاف، وفي هذا المقام الحزن والانكسار، والأنس حال من القرب عن مكاشفة الحضور بلطائف القدرة، وفي هذا المقام السرور والاستبشار، وفي مقام الأنس يكون التملق والمناجاة، ومعه تكون المحادثة والمجالسة ومعنى من البسط.

المحب والمحبوب:

ومثل المحبوب من المحب: مثل مقام المصطفى ﴿ﷺ﴾من مقام موسى عليه السلام، قال موسى ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾(1)، وقال لمحمد: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾(2)، وقال موسى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي {29} هَارُونَ أَخِي﴾(3)، وقال لمحمد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾(4)، أى: تقرن بي في الشهادة والأذان لا أوازرك بغيري، لأنك من أهلي، والوزير القرين والظهير، أي: فأنا ظهيرك ومعينك لا أشد وزرك بغيري، فأشبه هذا ما رويناه عن ليث عن مجاهد في قوله عز وجل: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾(5) قال: يقعده على العرش، فكان العرش مكان الربوبية بمشيئته في الدنيا، وهو مستغني عنه بقدرته فوهبه لحبيبه في الآخرة، فجعله مكانه تفضيلا له وتشريفا، ليكون هناك فوق المرسلين في الجلالة كما كان ههنا آخرهم في الرسالة، وقال لموسى عليه السلام بعد المقام: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {36} وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾(6). ففى هذا تحديد، وقال لمحمد عليه الصلاة والسلام بعد المقامات: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾(7)، فلم يحد له حدا فهذا غاية المزيد. وقال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ

(1) سورة طه الآية 25.

(2) سورة الانشراح الآية 1.

(3) سورة طه الآية 29-30.

(4) سورة الانشراح الآية 4.

(5) سورة الإسراء الآية 79.

(6) سورة طه الآية 36-37.

(7) سورة طه الآية 114.

أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(1) أي في محل العبودية، وقال لمحمد ﴿ﷺ﴾﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾(2).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾(3) أي: مكان الربوبية، فبين المحب والمحبوب في التقريب، كما بين موسى ومُحَّد عليهما السلام في التقريب، كم بين من رأى ما رأى عند نفسه في مكانه، وبين من رأى ربه عند ربه في علوه، كم بين من عجل إليه شوقا منه ليرضى عنه، وبين من عجل به شوقا إليه ليرضاه إليه لرضاه عنه، كم بين من رأى ما رأى فلم يثبت ففاضت عليه الأنوار لضيقه، وبين من رأى ما رأى فثبت له وغاضت فيه الأنوار لسعته، فقد جاوز المحبوب مقام المحب في التمكين، كما جاوز مُحَّد ﴿ﷺ وآله﴾ مقام موسى عليه السلام في المكان، أدخل بينه وبين موسى لام الملك، وأقام مُحَّداً ﴿ﷺ﴾مقامه في الملك، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(4) وقال لحبيبه ﴿ﷺ﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾(5)، فكم بين من صنعه لنفسه، وبين من جعله بدلا من نفسه تفضلا وتعظيما.

ومن وصف مقام المحبوب ما قيل لعلي بن أبي طالب عليه السلام: صف لنا أصحابك، فقال: عن أيهم تسألون؟ قالوا: عن سلمان، قال: أدرك علم الأول والآخر، قالوا: فعمار، قال: مليء إيمانا إلى مشاشه، قالوا: حذيفة، قال: صاحب

---

(1) سورة الأعراف الآية 143.

(2) سورة النجم الآية 17.

(3) سورة النجم الآية 9.

(4) سورة طه الآية 41.

(5) سورة الفتح الآية 10.

السر أعطي علم المنافقين، قالوا: فأخبرنا عن نفسك، فقال: (إياي أردتم بهذا، كنت إذا سألت أعطيت، وإذا سكت ابتدئت)، فهذا مقام محبوب، لأنه إذا سأل سمع منه فاستجيب له، وإذا سكت نظر إليه فعطف عليه.

ومن المحبة كتمان المحبة إجلالا للحبيب، وهيبة له وتعزيزاً وتعظيماً له، وحياء منه، وهذا وصف المخصوصين من عقلاء المحبين، وهو من الوفاء عند أهل الصفاء. إذا كانت المحبة سر المحبوب في غاية القلوب فإظهارها وابتذالها من الخيانة فيها، وليس من الأدب ولا الحياء النسبة إليها ولا الإشارة بها، لأن في ذلك اشتهاراً فتدخل عليه دقائق الدعوى والاستكبار.

ومن المحبة كتمان بلاء الحبيب بعد الرضا به، لأن ذلك من السر عنده وحسن الأدب لديه، وليس يمكننا وصف المحبوب إذا كان حاله يجل عن الوصف، وكيف يوصف من يسمع ويبصر من يحبه ويبطش ويعقل عن محبوبه فيكون هو سمعه وبصره وقلبه ويده ومؤيده؟ كما جاء في الخبر: (إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقلبه الذي يعقل به، إن سألني أعطيته، وإن سكت ادخرت له، لو قسم نوره على أهل الأرض لوسعهم)(1). هذا كله مقام محبوب، ويقال: إن هذه الآيات والقدر من سرائر الغيوب، وخفايا الملكوت التي تسميها العامة المعجزات والآيات، ويسميها العلماء الكرامات والإجابات، وهي آيات الله في أرضه مودعة، وقدرته في عباده جارية، وعنايات له في ملكه مستقرة، ليس للعباد منها إلا كشفها ونظرهم إليها إذا أقيموا مقام الأنس في مقام محبوب. فجميع تلك الأسرار من الغيوب التي تكنها الحجب والأستار، لا

(1) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

يظهر عليها إلا مطلوب، والمطلوب عن نفسه مسلوب، فمن بقيت عليه من نفسه بقية، أو نظر إلى حركته وسكونه بعينه نظرة خفية، فسترها عليه رحمة له، لأنه لو كوشف هلك في الحيرة وغرق في حيرة الهوى وغرق في بحر الدنيا، ونفس حبه لها وعين طلبه إياها حجابها عنه، واستتارها منه، حى يكون كارها لظهورها، كراهته لظهور الخلق عليه في معصيته، وخائفا منها، خيفته من نفسه في تظاهرها عليه بهلكته، فإذا بقي بباق، وحيي بحياة حي، صرفا منه وصرفا عنه، بلا طلب ولا نظر ولا سبب، ولا فكر أدى لعجائبه، وفتح له كنوز غرائبه، ويفعل الله ما يشاء.

ومقام الحبيب أعز من أن يظهر وأخفى من أن يعرف، غيرة منه عليهم، سترهم بأفعالهم، وضنا منه بهم حجبهم بأوصافهم، أهل المقامات يشتاقون إليه وهو يشتاق إليهم، وأهل القرب ينظرون إليه، وهو ينظر إليهم. وأهل المحبة يحبون أن يسمعوا كلامه، وهو يحب أن يسمع كلامهم. وأهل الأحوال يسألونه وهو حسبهم، ويحب أن يسألوه، وأهل المشاهدات يزورونه وهو في قلوبهم يزورهم، وأهل الآخرة ينظرون إليه في الآخرة، وهو ينظر إليهم في الدنيا ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾(1).

(1) سورة المائدة الآية 54.

الفصل الرابع
الأخوة في الله

إعلم أن الأخوة مشهد من مشاهد التوحيد الكامل، التي بها تتجلى معاني الكمالات والنزاهة لذات الأحد سبحانه، من حيث إنه تنزه غني عن الخلق قائم بذاته، منزه عن المعين والصاحب والوالد والولد وعن التركيب والأعضاء والأجزاء، وأنت المفتقر إلى الأعضاء والجوارح والولد والصاحب والمعين والوكيل والوزير، فالأخوة أكمل جمالات رتبتك، بها تتميز الحضرتان وتظهر المكانتان، حتى تتحقق عين يقين من أنت ومن ربك.

الإخوان في الله عز وجل:

هم المعراج إلى حضرة الحق تعالى، بهم تتجدد معالم الحق وتعلو كلمته وتقام حدوده وتحفظ مناسكه وينتشر الأمن والعدل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (1)، فالأخوة تشهدك في نفسك أنك عبد مضطر مفتقر ذليل، فتعلم معاني كمالات ربك القدير، وتشهدك معونة الله وإمداداته، وود الله لك وإحسانه بما يجريه على يدهم لك من الخير والمزيد والنصر والقوة، والأخ في الحقيقة هو أنت، وكلما أكثرت من الإخوة كلما كنت كثيراً، وبقدرهم يكون لك ألسن وآذان وأعين وأيد وأرجل وكنوز وخزن، ذكر الله عز وجل عباده المؤمنين نعمته عليهم في الدين، إذ ألف بين قلوبهم بعد أن كانوا متفرقين، فأصبحوا بنعمته إخواناً بالألفة متفقين، وعلى البر والتقوى مضطجعين، ثم ضم التذكرة بالنعمة

(1) سورة الأنفال الآية 64.

عليهم إلى تقواه، وأمر بالاعتصام بحبله وهداه، ونهى عن التفرق إذ جمعتهم الدار، وقرن ذلك بالمنة منه عليهم إذ أنقذهم من شفا حفرة النار، وقد جعل ذلك كله من آياته الدالة عليه سبحانه، وقد كانت المؤاخاة في الله تعالى والصحبة لأجله والمحبة له في الحضر والسفر طرائق للعاملين لما جاء فيه من الأمر والندب، إذ كان الحب في الله عز وجل من أوثق عرى الإيمان، وكانت الألفة والصحبة لأجله، والمحبة والتزاور من أحسن أسباب المتقين.

وفى قوت القلوب:

وقال أكثر التابعين باستحباب كثرة الإخوان في الله عز وجل، بالتأليف والتحبب إلى المؤمنين، لأن ذلك زين في الرخاء، وعون في الشدائد، وتعاون على البر والتقوى والألفة في الدين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ {102} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (1)، وقال رسول الله ﷺ (إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون)(2)، وقال عليه الصلاة والسلام: (مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى، وما التقى مؤمنان إلا أفاد الله عز وجل أحدهما من صاحبه خيرا)(3)، وقال ﷺ (من آخى أخا في الله

(1) سورة آل عمران الآية 102، 103.

(2) رواه الطبراني في مكارم الأخلاق.

(3) رواه السلمي وأبو منصور الديلمي من حديث أنس.

عز وجل، رفعه الله عز وجل درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله)(1). ويقال: إن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلى مقاما من الآخر، رفع الأعلى مقاما أخيه معه إلى مقامه، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين، والأهل بعضهم ببعض.

وقال الله تعالى مخبراً عمن لا صديق له حميم تنفعه شفاعته: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ {100} وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ (2)، وقال ﴿ﷺ﴾(المؤمن كثير بأخيه)(3)، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما أعطي عبد بعد الإسلام خيرا من أخ صالح. وفي الأخبار السابقة عن داود عليه السلام: (إن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه يا داود مالي أراك منتبذاً وحيداً، قال: إلهي قليت الخلق من أجلك، فأوحى الله عز وجل إليه يا داود كن يقظانا مرتادا لنفسك إخوانا، فكل خدن لا يوافقك على مسرتي فلا تصحبه، فإنه لك عدو ويقسي قلبك ويباعدك مني)، وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(كونوا مؤلفين ولا تكونوا منفرين). وفي أخبار داود عليه السلام أنه قال: (يا رب كيف لي أن يحبني الناس كلهم، وأسلم فيما بيني وبينك؟ قال: خالق الناس بأخلاقهم، وأحسن فيما بيني وبينك)، وفي بعضها: (خالق أهل الدنيا بأخلاق الدنيا، وخالق أهل الآخرة بأخلاق الآخرة).

وقال مُحَمَّد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: (ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً، حتى يجعل الله عز وجل منه فرجا)، ويقال:

(1) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أنس.

(2) سورة الشعراء الآية 100-101.

(3) رواه الديلمي والقضاعي عن أنس.

إن أحد الأخوين في الله عز وجل إذا مات قبل صاحبه، وقيل له ادخل الجنة سأل عن منزلة أخيه، فإن كان دونه لم يدخل الجنة، حتى يعطى أخوه مثل منازله، ولا يزال يسأل له من كذا وكذا فيقال: إنه لم يكن يعمل مثل عملك فيقول: إني كنت أعمل لي وله، فيعطى جميع ما سأل له، ويرفع أخوه إلى درجته معه. ويقال: ما حسد العدو متعاونين على بر، حسده متآخين في الله عز وجل، ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه ويحث قبيله على إفساد ما بينهما، وقد قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (1). وقال عز وجل مخبراً عن يوسف عليه السلام: ﴿مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾(2).

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: (عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضع ما يغلبك من أمر أخيك على الحسنة حتى يحبك، واعتزل عدوك، واحذر صديقك من القوم إلا الأمين، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل، ولا تصحب الفاجر فتتعلم فجوره، ولا تطلعه على سرك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تبارك وتعالى). وقال الأحنف: من حق الصديق أن يحتمل له ثلاث: أن يجاوز عن ظلم الغضب، وظلم الهفوة، وظلم الدالة. (والدالة: الجرأة).

وقال: الإخاء جوهرة رقيقة، فهي ما لم ترق عليها وتحرسها كانت معرضة للآفات، فارض الإخاء بالذلة حتى تصل إلى فوقه، وبالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل، ولا من أخيك التقصير.

---

(1) سورة الإسراء الآية 53.

(2) سورة يوسف الآية 100.

وقال أسماء بن خارجة الفزاري: ما سئمت أحدا قط، لأنه إنما يسأمنى أحد رجلين، كريم كانت منه زلة وهفوة، فأنا أحق من غفرها، وآخذ عليها بالفضل فيها، أولئيم فلم أكن أجعل عرضي له غرضا.

عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾قال: (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعدا فتخلفه)(1). وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق)(2).

فضائل الأخوة في الله:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(المتحابون في الله عز وجل على عمود من ياقوتة حمراء، في رأس العمود سبعون ألف غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضيء حسنهم لأهل الجنة، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابون في الله عز وجل)(3)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوهم نور، ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء، فقالوا: يا رسول الله صفهم لنا، فقال: هم المتحابون في الله عز وجل، والمتجالسون في الله تعالى، والمتزاورون في الله تعالى)(4).

---

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه أبو يعلي الموصلي والطبراني من حديث أبي هريرة.

(3) رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث ابن مسعود.

(4) رواه النسائي في سننه الكبرى.

وقال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، منهم- كذا وكذا- واثنان تآخيا في الله عز وجل، اجتمعا على ذلك وتفرقا)(1). وكان الفضيل بن عياض وغيره يقول: نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة.

بم تصح الأخوة في الله:

لا تصح الأخوة في الله عز وجل إلا بما شرط فيها من الرحمة في الاجتماع، والخلطة عند الافتراق بظهور النصيحة، واجتناب الغيبة وتمام الوفاء، ووجود الأنس وفقد الجفاء، وارتفاع الوحشة، ووجود الانبساط، وزوال الاحتشام، وقال عليه الصلاة والسلام: (أحب الأخوان إلى الله عز وجل أرفقهما بصاحبه)(2). وقال ابن عباس في وصيته لمجاهد: لا تذكر أخاك إذا تغيب عنك إلا بمثل ما تحب أن تذكر به إذا غبت، واعفه بما تحب أن تعفى به. وقال آخر: ما ذكر أخ لي في غيبته إلا تصورت نفسي في صورته، فقلت فيه ما أحب أن يقال فيَّ، فهذا حقيقة في صدق الإسلام، لا يكون مسلما حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.

وعن بعض الحكماء: من جعل نفسه فوق قدره عند الإخوان أثم وأثموا، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا. وفي الأخبار: اثنان عزيزان ولا يزدادان إلا عزة، درهم حلال، وأخ تسكن إليه. وقد كان أبو الدرداء يقول: إذا تغير أخوك وحاله عما كان فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(2) رواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس.

يعوج مرة ويستقيم أخرى. وفي حديث عمر وقد سأل عن أخ كان قد آخاه، فخرج إلى الشام، فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال: ذاك أخو الشيطان، قال: مه، قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر، فقال: إذا أردت الخروج فأخبرني، قال: فكتب إليه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ حم {1} تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {2} غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾(1). الآية، ثم عاتبه تحت ذلك وعذله، فلما قرأ الكتاب قال: صدق الله ونصح لي عمر، قال: فتاب ورجع. وكان الحسن وأبو قلابة يقولان: إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا، لأن أهلينا يذكرونا الدنيا، والإخوان يذكرونا الآخرة.

وقال ﴿ﷺ﴾(ما زار رجل أخاه في الله عز وجل شوقا إليه ورغبة في لقائه، إلا ناداه ملك من خلفه: طبت وطابت لك الجنة)(2)، وعن عطاء كان يقول: تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، وإن كانوا مشاغيل فأعينوهم، وإن كانوا نسوا فذكروهم. وقال الأحنف بن قيس: ثلاث خلال تجلب بهن المحبة، الإنصاف في المعاشرة، والمواساة في الشدة، والانطواء على المودة. فأول ما تصح المحبة في الله أن لا يكون لضد ذلك من صحبة لأجل معصيته، ولا على حظ من دنياه، ولا لسبب موافقته على هواه، ولا لأجل ارتفاقه اليوم لمنافعه ومصالحه في أحواله، ولا يكون ذلك مكافأة على إحسان أحسن به إليه، ولا لنعمة ويد يجزيه عليها، فهذه ليس فيها طريق إلى الله تعالى ولا للآخرة، لأنها طرقات الدنيا ولأسباب الهوى، فإذا سلم من هذه المعاني فهذا أول المحبة لله تعالى،

---

(1) سورة غافر الآية من 1-3.

(2) أخرجه ابن عدي من حديث أنس.

ولا يقدح في الأخوة لله تبارك وتعالى أن يحبه لحسن خلقه، وفضل أدبه، وحسن حلمه، وكمال عقله، وكثرة احتماله وصبره، أو لوجود الأنس به، وارتفاع الوحشة منه، وإنما يخرجه عن حقيقة الحب في الله أن يحبه لما يكون دخلا في الدين، ووليجة في طرائق المؤمنين، ولما انفصل عنه ولم يكن متصلا به مثل الإنعام والإفضال ووجود الارتفاق، فهذا الحب لا يمنع القلب وجده لما جبل الطبع عليه، ولبغض من كان بضده ممن أساء إليه.

وحقيقة الحب في الله عز وجل أن لا يحسده على دين ولا دنيا، كما لا يحسد نفسه عليهما، وأن يؤثره بالدين والدنيا إذا كان محتاجا إليهما كنفسه، وهذان شرطا الحب في الله عز وجل اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾(1).

ثم وصف محبتهم إذ يصف حقاً ويمدح محقا فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، يعني من دين ودنيا، ثم قال تعالى في الشرط الثاني: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (2)، ولا تصح مؤاخاة مبتدع في الله تعالى، ولا محبة فاسق يصحب على فسوقه، ولا محبة فقير أحب غنياً لأجل دنياه، ولا ما يناله من عاجل مناه، وليس الإخاء كف الأذى لأن هذا واجب، ولكن الإخاء الصبر على الأذى.

وكانت طائفة من الصوفية لا يصطحبون إلا على استواء أربع معان، لا يترجح بعضها على بعض، ولا يكون فيها اعتراض من بعض وهي:

---

(1) سورة الحشر الآية 9.

(2) سورة الحشر الآية 9.

1- إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم.

2- وإن صلى الليل أجمع لم يقل له أحد نم بعضه.

3- وتستوى حالاته عنده فلا مزيد لأجل صيامه وقيامه، ولا نقصان لأجل إفطاره ونومه، فإذا كان عنده يزيد بالعمل وينقص بترك العمل فالفرقة أسلم للدين.

4- وقد كان الإخوان يتبايتون على العلوم والأعمال وعلى التلاوة والأذكار.

وبهذه المعاني تحسن الصحبة وتحق المحبة، وكانوا يجدون من المزيد من ذلك والنفع به في العاجل والآجل ما لا يجدونه في التخلي والانفراد، من تحسين الأخلاق، وتلقيح العقول، ومذاكرة العلوم، وهذا لا يصح إلا لأهله، وهم أهل سلامة الصدور، والرضا بالميسور مع وجود الرحمة، وفقد الحسد ووجد التناصر، وعدم التظاهر، وسقوط التكلف ودوام التآلف، وقد ضم الله عز وجل الصديق إلى الأهل ووصله بهم، ثم رفع الأخ وقدمه على الصديق وهو قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ (1).

كان الأخ يدفع مفاتيح خزائنه إلى أخيه ويتصرف في الحضر، ويتقلب في السفر، ويقول لأخيه حكمك فيما أملك كحكمي، وملكي له كملكك، ثم نسق الأقارب على ترتيب الأحكام، وضم إليهم الأخ لما وصفه بتمليكه مفاتحه أخاه، فأقام ذلك مقام ملك أخيه لأنه أقام أخاه مقامه فقال تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾، ثم أخر الصديق بعده إذ لم يكن بحقيقة وصفه، ثم قال عز وجل: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً﴾. بحضرة الإخوان، ﴿أَوْ أَشْتَاتاً﴾ في حال تفرقهم،

---

(1) سورة النور الآية 61.

فسوى بين غيبتهم وشهودهم لتسوية إخوانهم بينهم وبين أملاكهم، واستواء قلوبهم مع ألسنتهم في البذل والمحبة.

الفصل الخامس
الأخلاق وآفاتها

إعلم أن مشاهدات اليقين عن كمال التوحيد لا يتجمل بها إنسان إلا بعد أن يخرج أخلاق الحيوانات، وأوصاف الشياطين، ويخرج من كثير مما لابد له منه حتى يبدل المشاهد القدسية بعد أن يكون بدلا عن النبوة، فلم نطنب في الأخلاق في علوم اليقين لاندماجها في طي تلك العلوم، لأن طالب علوم اليقين إنسان كامل، وغيره من عامة المسلمين يحتاج إلى الزواجر والرغائب فاستحسنت أن أكتب تلك المواضيع على غير ترتيب بأن أذكر رذيلة ثم أعقبها بفضيلة تنشيطاً للقاريء، والله الموفق.

العقوق وقطيعة الرحم:

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً {23} وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾(1)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾(2)، أي اتقوا الأرحام أن تقطعوها. عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾قال الله تبارك وتعالى: (أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لهما

(1) سورة الإسراء الآية 23،24.

(2) النساء الآية 1.

اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته)(1)، وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر)(2).

إخواني: احذروا العقوق وقطيعة الرحم فإنهما يعجلان العقوبة في الدنيا مع عقوبة الآخرة، ولا يغرنكم الشيطان فيوقعكم فيهما فتذوقوا عذابا شديداً، وأذهبوا عن قلوبكم هاتين العلتين بذكر آفاتهما، وذكر ثواب البر والصلة، ففي الصحيحين قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه)(3).

إخواني: فروا من العقوق والقطيعة، إلى البر والصلة، تظفروا في الجنة بالنعم الجزيلة، وكونوا على حذر من مفاجأة الموت على الغفلة.

إخواني: خلصوا نفوسكم من أسر الذنوب، وتأهبوا فإنكم مطلوبون، وتذكروا بقلوبكم يوم تقلب القلوب، قبل أن يمسك اللسان ويتحير الإنسان، العقوق هو أن يقسم والداه عليه في حق فلا يبر قسمهما، وأن يسألاه في حاجة فلا يعطيهما، وأن يؤمناه فيخونهما، وأن يجوعا فيشبع ولا يطعمهما، وأن يسباه فيضربهما، وأصل العقوق أن تقي مالك بمالهما، وتوفر مالك وتأكل مالهما، وأصل البر بالوالدين أن تقي مالهما بمالك، وتؤخر مالهما وتطعمهما من مالك.

---

(1) رواه أبو داود والترمذي.

(2) رواه أحمد والبزار عن أنس.

(3) رواه البخاري ومسلم عن أنس.

الإحسان في معاملة أهل الحقوق:

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾(1). وقال﴿ﷺ﴾(إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه)(2) وعنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(كفى بالرجل إثما أن يحبس عمن يملك قوته)(3)، وفي رواية: (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)(4). قال ﴿ﷺ﴾(والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه)(5)، وقال ﴿ﷺ﴾(خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره)(6).

---

(1) سورة النساء الآية 36.

(2) متفق عليه عن أبي ذر.

(3) رواه مسلم وذكره النووي.

(4) رواه أبو داود عن ابن عمرو.

(5) رواه البخاري ومسلم.

(6) رواه الترمذي.

الشفقة:

قال ﷺ(من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهذا، وضم أصابعه)(1). وقال ﷺ(ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن)(2).(من ابتلى من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له سترا من النار)(3)، وعنه ﷺ(لا رحم الله من لا يرحم الناس)(4).

وقال ﷺ(ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)(5)، وعنه ﷺأنه قال: (خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه)(6)، وعنه ﷺأنه قال: (المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله)(7)، وقال ﷺ(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرات، بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)(8)، وعن معاوية أنه كتب إلى عائشة أن اكتبي إليَّ كتابا توصيني فيه ولا

(1) رواه مسلم عن أنس.

(2) أخرجه الترمذي.

(3) رواه البخاري.

(4) متفق عليه عن جبريل بن عبد الله.

(5) أخرجه مسلم وأبو داود.

(6) رواه بن ماجة من حديث أبي هريرة.

(7) أخرجه مسلم وابن حنبل عن النعمان بن بشير.

(8) رواه مسلم عن أبي هريرة.

تكثري، فكتبت سلام عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ يقول: (من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس) والسلام عليك(1).

الخمر:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(2). (ولعن رسول الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه)(3).

وعن ابن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(كل مسكر حرام، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يدمنها لم يشربها في الآخرة)(4)، وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن الله تعالى بعثني رحمة للعالمين وهدى للعالمين، وأمرني ربي عز وجل بمحق المعازف والمزامير والأوثان والصلب وأمر الجاهلية، وحلف ربي عز وجل قائلا: بعزتي لا يشربن عبد من عبيدي جرعة من خمر، إلا سقيته من الصديد مثلها، ولا يتركها من مخافتي إلا سقيته من حياض القدس)(5).

(1) رواه الترمذي وابن حبان.

(2) سورة المائدة الآية 90.

(3) رواه أبو داود وابن ماجة عن عبد الله بن عمر.

(4) رواه البخاري ومسلم.

(5) رواه أحمد.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (ثلاثة حرم الله عليهم الجنة، مدمن الخمر، والعاق، والديوث الذي يقر في أهله الخبث)(1)، وما يغير العقل كالبنج والأفيون والحشيشة يعزر عليها، والصواب تحريم بيعها والتجارة فيها لأنها مسكرة مخدرة مفسدة للعقول والأبدان والأديان. فاتقوا الله عباد الله في إزالة العقل، فإن الله تعالى وهبكم العقل لتميزوا به الحسن عن القبيح في أمري الدنيا والآخرة، وميزكم بالعقل عن الحيوان.

فقد روى البيهقي عن النبي ﴿ﷺ﴾قال: (أول ما خلق الله عز وجل العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، فقال له: أدبر، فأدبر، فقال عز من قائل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز عليَّ منك، بك آخذ وبك أعطى وبك أحاسب وبك أعاقب)(2)، فالعقل نعمة عظيمة ومنة جسيمة مَنَّ الله تعالى بها على الإنسان، فمن أزال عقله بأكل المنهي عنه فقد أزال عنه نعمته التي بها صلاح الدنيا والدين، فصار أخس من كلب لا يميز بين الطعام الحسن والجيفة القذرة، كيف لا؟ وأن الكلب لا عقوبة عليه ويطيع مطعمه، وهذا ترك طاعة خالقه الذي يطعمه ويكسوه ويعطيه جميع النعم، ومال إلى ما نهي عنه مما يصيبه به العذاب الأليم الذي لا يطيقه.

---

(1) رواه أحمد.

(2) رواه الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة، وأبو نعيم عن عائشة.

الزنا:

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي أقبح المعاصي، ﴿وَسَاء سَبِيلاً﴾(1) أي بئس مسلكاً. عن ابن مسعود ﷺ (قلت: يا نبي الله أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك)(2).

فأنزل الله تصديقا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾(3)، أي واديا في النار من دم وقيح ويقال جبا، ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾(4).

عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﴿ﷺ﴾يقول لما نزلت آية الملاعنة: (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الجنة، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الخلائق في الأولين والآخرين)(5). عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو أمته تزني، يا أمة محمد لو تعلمون ما أعلم لضحكتكم قليلا ولبكيتم كثيرا)، وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(رأيت رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى أرض مقدسة حتى أتينا إلى ثقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله

(1) سورة الإسراء الآية 32.

(2) رواه البخاري ومسلم.

(3) سورة الفرقان الآية 68.

(4) سورة الفرقان الآية 69.

(5) أخرجه أبو داود والنسائي.

واسع، يتوقد تحته نار فإذا وقدت ارتفعوا حتى كادوا يخرجون منها وإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة، فقلت: ما هذا؟ قالا: هم الزناة)(1).

عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالسنة، وما من قوم يظهر فيها الرشا إلا أخذوا بالرعب)(2)، وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (فى الزنا ست خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة، فأما التي في الدنيا: فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفناء. وأما التي في الآخرة: فغضب الرب، وسوء الحساب، والدخول في النار)(3)، وقال ﴿ﷺ﴾(لا ينظر الله عز وجل إلى رجل أتى رجلا أو امرأة في دبرها)(4). واعلم أن الزنا من أقبح المعاصي وأشنعها، فعلى العاقل أن يحرس نفسه من هذه الخصلة الذميمة المحرمة في ملل جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الغضب والكبر والحسد والحقد:

عن أبي هريرة ﵁ قال: (قال رسول الله ﴿ﷺ﴾ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)(5)، وقال عليه الصلاة والسلام: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم)، وفي رواية (ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم:

(1) رواه البخاري عن سمرة بن جندب.

(2) رواه أحمد عن عمرو بن العاص.

(3) رواه بن أبي الدنيا عن علي وعمر.

(4) رواه الترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن ابن عباس.

(5) متفق عليه. رواه البخاري ومسلم.

شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر)(1). وعن ابن عمر قال: قال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(ما تجرع عبد أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى)(2). وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (إن الغضب ليفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل)(3). وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(4). الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا عصمهم الله وخضع لهم عدوهم. ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(5) أي قريب. وعنه ﴿ﷺ﴾قال: (يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة وهم رجال في صورة الذر يطؤهم الناس من هوانهم على الله تعالى حتى يقضى بين الناس، ثم يقال: اذهب بهم إلى نار الأنيار، قيل: يا رسول الله وما نار الأنيار؟ قال: عصارة أهل النار)(6). وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، فقال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)(7). أي دفع الحق واحتقار الناس. وقال ﴿ﷺ﴾(ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، فأما المنجيات فتقوى الله في السر والعلانية، والقول الحق في الرضا والسخط، والقصد

---

(1) رواه مسلم والنسائي عن أبي هريرة.

(2) رواه ابن ماجة عن ابن عمر.

(3) رواه الطبراني.

(4) سورة فصلت الآية 34.

(5) سورة فصلت الآية 34.

(6) رواه الترمذي.

(7) رواه مسلم.

في الغنى والفقر. وأما المهلكات فهوى متبع ، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه وهو أشدهن)(1).

واعلم أن الكبر أول معصية عصى الله تعالى بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾(2)، فمن تكبر شارك إبليس في ذنب أورثه الطرد والبعد والعذاب الذي لا آخر له. فلا يأمن على نفسه سوء الخاتمة.

الحسد(3):

اعلم أن الحسد من نتائج الحقد، الذي هو من نتائج الغضب، فهو فرع الغضب، وقد ورد ذم الحسد في آيات وأخبار كثيرة، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ﴾(4)، وذلك في معرض الإنكار. وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(5)، وعنه ﴿ﷺ﴾قال: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا)(6). وقال عليه الصلاة والسلام: (دب إليكم داء الأمم من قبلكم، الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة ولا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين)(7). الحسد هو تمني زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت النعمة

---

(1) رواه البزار والطبراني.

(2) سورة البقرة الآية 34.

(3) راجع (حياة القلوب في كيفية الوصول إلى المحبوب) لعماد الدين الأموي (بتصرف).

(4) سورة النساء الآية 54.

(5) سورة الفلق الآية 5.

(6) متفق عليه عن أبي هريرة.

(7) رواه الترمذي عن الزبير.

ديناً أو دنيا فاحذره يا أخي، فإنه يؤدي إلى محظور عظيم، لأنه منازعة في الربوبية وعدم رضا بما قسمه الله لعبده من خزائنه بعلمه وحكمته.

وقال ﴿ﷺ﴾(إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)(1). ويكون الحسد غالبا بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون بسببها ويتواردون في الأغراض، فإذا خالف واحد صاحبه في غرض من أغراضه نفر طبعه عنه وأبغضه وثبت الحقد في قلبه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه، كما يكون الحسد بين عدو وعدو له، أو يكون إقبال الناس عليه أكثر منه، أو يكون موصوفا عند الناس بالحلم والعلم والفضل فيحسده على ذلك، وأكثر ما يكون الحسد بين الأقارب والأمثال، وينشأ الحسد عن أمور منها الكبر والعجب والرياسة وحب المنزلة والعداوة والبغضاء، وعلاج الحسد أن تكف جوارحك من أن تعمل بمقتضى ما في قلبك من الحسد، حتى لا يظهر على جوارحك شيء مما يؤلم المحسود.

الكظم (2):

قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾(3)، قال المفسرون: هم الذين يمسكون غيظهم في نفوسهم على ما فيها من همومهم، ولا يصرحون من كرب ذلك بقول ولا بعمل لا يحل لهم كما يفعله المتغيظون من الأشرار.

---

(1) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة.

(2) راجع (حياة القلوب) للأموي (بتصرف).

(3) سورة آل عمران الآية 134.

والأسباب المهيجة للغيظ والغضب ومباشرتها هي الكبر والعجب والهزل والتعيير والمماراة وشدة الحرص على فضول الدنيا والجاه وهي بأجمعها صفات رديئة وأخلاق مذمومة، ولا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلابد من إزالة هذه الأسباب بالاتصاف بأضدادها، فينبغي أن يميت الكبر بالتواضع. ويميت العجب بمعرفة نفسه، وبالجد في طلب الفضائل الذاتية وتصحيح القصد في طلبها، والعمل الصالح وتهذيب الأخلاق. أما تعيير الناس فيزيله بالحذر عن الكلام الفاحش والأقوال القبيحة، مع صيانة اللسان عن سوء الخطاب. وشدة الحرص على فضول الدنيا، فيزيله بالقناعة بقدر الضرورة ليصون نفسه عن ذل الحاجة.

واعلم أن آفة الغضب عظيمة، وكيف لا تعظم آفته وهو يحمل الجوارح الظاهرة على القتل والضرب والشتم وإطالة اللسان، ويحمل القلب على الحقد والحسد وإضمار السوء أو الشماتة، والعزم على إفشاء السر، وهتك الستر، والفرح بمصيبة المغضوب عليه والغم بمسرته، وكل واحد من هذه الخبائث سم قاتل مهلك.

وقال السري رحمة الله عليه: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان:

(1) من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل.

(2) إذا قدر لم يتناول ما ليس له.

(3) ضبط الغضب عند الهيجان كالكظم، ويعين عليه علم وعمل، أما العلم فهو أن يعلم أنه لا سبب لغضبه إلا أنه يجري على مراد الله لا على مراده وهذا غاية الجهل، وإلا من يعلم أن غضب الله عليه أعظم من غضبه، وأن فضل الله أكثر، وكم عصاه وخالف أمره فلم يغضب إن خالفه غيره، فليس أمره ألزم على

عبده وأهله ورفيقه من أمر الله تعالى. وأما العمل فهو أن يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن لم يسكن غضبه بذلك جلس إن كان قائما، فإذا لم يسكن فليتوضأ، ورد ذلك الخبر عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾

الحقد:

قال عماد الدين الأموي: الحقد من الغل، وهو من الرذائل المبعدة عن رضوان الله تعالى والخبائث الموجبة لسخطه تعالى. روي أن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾قال: (المؤمن ليس بحقود)(1)، والموجب للحقد هو أن الإنسان إذا أوذى بشيء فظهر عليه الغضب وعجز عن السعي في الحال، رجع الغضب إلى الباطن واختفى واحتقن وصار حقداً، والحقد يثمر أموراً منها الحسد وتمني زوال النعمة ، والشماتة والغيبة فيه، والنميمة عليه، والشتم والضرب والبغض له، والنفور عنه، ولا يكون علاجه إلا بتعاطي الحلم والعفو والصفح وذكر ما ورد في ذلك كقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(2). وقوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ

(1) الإحياء للغزالي.

(2) سورة الأعراف الآية 199.

(3) سورة آل عمران الآية 134.

بَيْنَكُمْ﴾(1). وقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾(2)وقوله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(صل من قطعك واعف عمن ظلمك)(3).

الرياء:

الرياء هو طلب المنزلة في قلوب الناس بإراءتهم الخصال المحمودة، قال الله عز وجل:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾(4). وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(تعوذوا بالله من جب الحزن، قالوا: يا رسول الله وما جب الحزن؟ قال: واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة، قيل: يا رسول الله ومن يدخله؟ قال: القراء المراؤن بأعمالهم)(5). روى ابن أبي الدنيا: (أن المرائي ينادى يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائى، ضل عملك وحبط أجرك)(6). والرياء قسمان، رياء محض وهو أن الإنسان يريد بعمل الآخرة نفع الدنيا، ورياء تخليط وهو أن يريد نفع الدنيا ونفع الآخرة وكلاهما محبط للأجر، ويكون الرياء بخمسة: البدن، والهيئة، والثياب، والقول، وصفات الأعمال. وقال بعضهم: الإخلاص التقرب إلى الله عز وجل دون التصنع للخلق، أو تحصيل أن يحمد عند الناس، أو قصد معنى من المعانى غير التقرب إلى الله عز وجل، قالوا:

(1) سورة البقرة الآية 237.

(2) سورة النور الآية 22.

(3) رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر.

(4) سورة الكهف الآية 110.

(5) رواه الترمذي.

(6) رواه ابن أبي الدنيا.

وللإخلاص علامات، منها استواء المدح والذم، ومنها أن ينسى أن يرى عمله في حالة طاعته، ومنها طلب ثواب الآخرة.

واعلم أن الرياء والحسد والكبر وغيرها من المعاصي كالظلم وترك الزكاة والربا ونحوها تتشعب من حب الدنيا، ولذلك قال ﴿ﷺ﴾(حب الدنيا رأس كل خطيئة)(1).

إخواني: استغفروا الله من الذنوب، وطهروا منها ضمائر القلوب، وا عجبا لمن يطهر منظر الخلق ولا يطهر منظر الخالق، ويستحيي من الناس ولا يستحيي من الله. الله عندك أصغر من الناس، أم نار جهنم أهون عليك من حر الظهير؟ كلا، ولكن شملت الغفلة فاستحكمت على القلوب أقفالها.

الأمل:

هو الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع البليات، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(2). وعن النبي ﴿ﷺ﴾أنه قال: (بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا وغنى مطغيا ومرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال، فشر غائب ينتظر أو الساعة، والساعة أدهى وأمر)(3). ويروى عن على كرم الله وجهه: أخوف ما أخاف عليكم اثنان، طول الأمل، واتباع الهوى، ألا وإن طول الأمل

(1) رواه بن أبي الدنيا والبيهقي من رواية الحسن.

(2) سورة الحديد الآية 16.

(3) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

ينسي الآخرة، واتباع الهوى يصد عن الحق. ولقد صدق داود الطائي- رحمه الله تعالى- حيث قال: من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن أطاع أمله أساء عمله، وقال بعضهم: الأمل قاطع عن كل خير، والطمع مانع من كل حق، والصبر صائر إلى ظفر، والنفس داعية إلى كل شر.

والأمل قسمان: أمل العامة، وأمل الخاصة، فأمل العامة يريدون الحياة الدنيا والبقاء لجمع الدنيا والتمتع بها، وهذه معصية محضة، قال الله تعالى: ﴿وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. أما أمل الخاصة فإنهم يريدون البقاء لإتمام عمل وإصلاح عبادة وطاعة.

واعلم أن مما يخلص من الأمل في أمور الدنيا الاستثناء بالمشيئة، فإذا قال: أفعل كذا في وقت كذا إن شاء الله، لم يكن ذلك الأمل مذموما لأنه لم يجزم ببقائه إلى ذلك الوقت. بل قيده بمشيئة الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدا إلا أن يشاء اللهَ﴾(1).

الأدب النبوى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب فقالوا: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، قال: فزادوه ورحمة الله، قال: فكل

(1) سورة الكهف الآية 22-23.

من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن)(1).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (أن رجلا سأل النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام وتقريء السلام على من عرفت ومن لم تعرف)(2)، وقال: (للمؤمن على المؤمن ست خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد)(3).

وقال ﴿ﷺ﴾(لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)(4). وقال: (يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير)(5). وقال: (يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير) ، (ومر رسول الله ﴿ﷺ﴾على الغلمان فسلم عليهم)(6). وقال: (لا تبتدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه)(7). وقال: (إذا سلم

(1) متفق عليه عن أبي هريرة.

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(3) رواه الشيخان عن أبي هريرة.

(4) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة.

(5) متفق عليه عن أبي هريرة.

(6) متفق عليه.

(7) رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة.

عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم السام عليك، ومر رسول الله ﴿ﷺ﴾بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود فسلم عليهم)(1).

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﴿ﷺ﴾أنه قال: (إياكم والجلوس بالطرقات، فقالوا: يا رسول الله ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، قال: فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: غض البصر، وكف الأذى ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)(2). وروى أبو هريرة: (وإرشاد السبيل). ورواه عمر: (وتغيثوا الملهوف وتهدوا الضال).

عن جابر ﵁ أن النبي ﴿ﷺ﴾قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة تدار عليها الخمر)(3).

عن جرير: أن النبي ﴿ﷺ﴾مر على نسوة فسلم عليهن، وقال ﴿ﷺ﴾(ليس منا من تشبه بغيرنا، لا تتشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود الإشارة بالأصابع، وتسليم النصارى الإشارة بالكف)(4). وقال عليه السلام: (إذا دخلتم بيتاً فسلموا على أهله فإذا خرجتم فودعوا أهله بالسلام). وروي (أن رجلا قال

(1) متفق عليه عن أسامة.

(2) رواه البخاري ومسلم وأبو داود.

(3) أخرجه الترمذي.

(4) رواه الترمذي والطبراني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

ﷺإن أبي يقرؤك السلام، فقال: عليك وعلى أبيك السلام).

حفظ اللسان من الغيبة والشتم:

قــال النــبي ﷺ(مــن كــان يــؤمن بالله وباليــوم الآخــر فليقــل خــيرا أو ليصمت)(1).

وقال ﷺ(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي في جهنم)(2) ويروى: (يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)(3). وقال ﷺ(سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)(4). وقال عليه الصلاة والسلام: (إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)(5). وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم)(6). وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(تجدون أشر الناس يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه)(7). وقال ﷺ(عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر

---

(1) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(2) رواه مالك والبخاري.

(3) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(4) متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(5) من حديث أبي الدرداء.

(6) رواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

(7) متفق عليه عن أبي هريرة

وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)(1). وفي رواية (إن الصدق بر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الكذب فجور، والفجور يهدي إلى النار)(2). وقال: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيرا وينمي خيرا). وقال (إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب)(3). عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإذا قلت ما ليس فيه فقد بهته)(4). وعن أبي هريرة أيضا قال رسول الله ﷺ (كل أمتي معافى إلا المجاهرين، فإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه)(5).

وقال عليه الصلاة والسلام: (أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ تقوى الله وحسن الخلق، أتدرون ما أكثر ما يدخل الناس النار؟ الأجوفان الفرج، والفم)(6). وقال ﷺ (كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع)(1). وسئل

---

(1) متفق عليه عن ابن مسعود.

(2) رواه ابن حبان عن أبي بكر الصديق.

(3) رواه مسلم عن المقداد.

(4) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(5) متفق عليه عن أبي هريرة.

(6) رواه الترمذي عن أبي هريرة.

ﷺ(ما النجاة؟. فقال: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك)(2). وقال ﷺ(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(3). وقال ﷺ(ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش، ولا البذيء)(4). وقال عليه الصلاة والسلام: (ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه)(5). وقال: (من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله)(6). وقال: (لا تظهر الشماتة بأخيك فيرحمه الله ويبتليك)(7).

المزاح:

عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (إن كان النبي ﷺليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغيراً يا أبا عمير ما فعل النغير، لأنه له نغرا يلعب به فمات)(8). والنغر: البلبل. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: (قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا، قال: أني لا أقول إلا حقا)(9). وعن أنس رضي الله عنه: (أن النبي ﷺقال له: يا ذا الأذنين)(10).

---

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(2) رواه الترمذي عن عقبة بن عامر.

(3) رواه الترمذي والواقدى عن أبي هريرة.

(4) رواه الترمذي من حديث ابن مسعود.

(5) رواه ابن ماجة والترمذي عن أنس.

(6) رواه الترمذي عن معاذ بن جبل.

(7) رواه الترمذي والطبراني عن وائلة.

(8) متفق عليه.

(9) رواه الترمذي والطبراني.

(10) رواه الترمذي.

وروى عنه ﷺ قال لعجوز: (إن الجنة لا يدخلها العجوز فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز)(1). إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء فَجَعَلْنَاهُنَّ {35} أَبْكَاراً﴾(2). عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه)(3).

المفاخرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول ﷺ (أي الناس أكرم؟ قال: أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني، قالوا: نعم، قال: خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا)(4). عن البراء بن عازب أنه قال: (فى يوم حنين كان أبو سفيان بن الحرث آخذا بعنان بغلته، يعني بغلة رسول الله ﷺ، فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)(5). قال: (فما رؤي من الناس يومئذ أشد منه).

---

(1) رواه الترمذي عن أنس

(2) سورة الواقعة الآية 35-36.

(3) رواه الترمذى.

(4) رواه ابن عساكر.

(5) رواه الشيخان عن البراء بن عازب.

وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد)(1). عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾قال: (لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم: فحم من جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم وآدم من تراب "(1) قال ﷺ " الحسب المال والتقوى الكرم "(2) وقال عليه السلام: (من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا)(3). أي: فعيروه. وقال ﴿ﷺ﴾(من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي تردى في البئر فهو ينزع بذنبه). عن وائلة بن الأسقع أنه قال: (قلت يا رسول الله ما العصبية؟ قال: أن تعين قومك على الظلم)(4). وقال عليه الصلاة والسلام: (خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم). وقال ﴿ﷺ﴾(ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية).

المصافحة والمعانقة والضحك:

عن قتادة ﵁، قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾؟ قال: نعم. عن البراء بن عازب ﵁ أنه قال: قال النبي ﴿ﷺ﴾(ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا)(5)، وفي رواية: (إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفراه غفر لهما)(4)، عن أبي هريرة ﵁ قال: (خرجت مع رسول الله ﴿ﷺ﴾حتى آتى جناب فاطمة،

(1) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجة.

فقال: أثم لكع يعني حسنا، فلم يلبث أن جاء يسعى حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه). وقالت أم هانئ: (ذهبت إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾عام الفتح، فقال: مرحباً بأم هانئ)(1).

وعن أبي هريرة: (أنه ﴿ﷺ﴾قبل الحسن بن على وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾ثم قال: من لا يرحم لا يرحم)(2). عن أنس ﵁ قال: (قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلزمه ويقبله؟ قال: لا، قال: أفيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم)(3). وعن أبي أمامة ﵁: (أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: تمام عيادة المريض، أن يضع أحدكم يده على جبهته أو على يده فيسأله كيف هو، وتمام تحياتكم بينكم المصافحة)(4).

وعن جعفر بن أبي طالب ﵁ في قصة رجوعه من أرض الحبشة قال: (فخرجنا حتى أتينا المدينة فتلقانى رسول الله ﴿ﷺ﴾فاعتنقني ثم قال: ما أدري بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر). ووافق ذلك فتح خيبر. وقال زارع وكان في وفد عبد القيس: فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبل يد رسول الله ﴿ﷺ﴾ورجله.

وعن عائشة ﵂: (أن النبي ﴿ﷺ﴾أتى بصبي فقبله فقال: أما أنهم مبخلة مجبنة، وإنهم لمن ريحان الله تعالى). عن عائشة ﵂ أنها قالت: ما رأيت النبي

(1) رواه الترمذي.

(2) متفق عليه عن أبي هريرة.

(3) رواه الترمذي.

(4) رواه الترمذي عن أبي أمامة.

﴿ﷺ﴾مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتسم)(1)، عن عبد الله بن الحرث بن جزء قال: ما رأيت أحداً أكثر تبسما من رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(2). عن جابر بن سمرة أنه قال: (كان رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾لا يقوم من مصلاه الذي يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس قام، وكانوا يتحدثون فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم)(3). ويروى: (يتناشدون الشعر).

الحب في الله ومن الله:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)(4). وقال: (إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: أني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: أني أبغض فلانا فأبغضه، قال: فيبغضه جبريل ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه ثم يوضع له البغضاء في الأرض)(5).

---

(1) رواه البخاري.

(2) الصحيحين.

(3) رواه مسلم عن جابر بن سمرة.

(4) رواه البخاري عن عائشة، ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة.

(5) أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

وقال: (إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)(1). عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﴿ﷺ﴾(أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكا قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(2).

عن ابن مسعود ﵁ أنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟ فقال: المرء مع من أحب)(3). وقال ﴿ﷺ﴾(مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيب. ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة)(4). عن أبى مالك الأشعرى أنه قال: (كنت عند النبي ﴿ﷺ﴾إذ قال: إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من الله يوم القيامة، فقال أعرابى: حدثنا يا رسول الله من هم؟ فقال: هم عباد من عباد الله، من بلدان شتى، وقبائل شتى، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها، ولا دنيا يتباذلون بها، يتحابون بروح الله، يجعل الله وجوهم نوراً، وتجعل لهم منابر من نور أمام عرش الرحمن، يفزع الناس ولا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون)(5). عن

---

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(2) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(3) أخرجه النسائي وأبو داود، وفي الصحيحين عن ابن مسعود.

(4) رواه البخاري ومسلم عن أبى موسى.

(5) رواه أحمد والطبراني والبيهقى عن أبى مالك الأشعرى.

ابن عباس قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾لأبى ذر: (يا أبا ذر أي عرى الإيمان أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: الموالاة في الله والحب في الله والبغض في الله)(1). قال ﴿ﷺ﴾(إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه)(2).

وقال رسول الله ﴿ﷺ﴾(لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي)(3). وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(المرء مع خليله فلينظر أحدكم من يخالل)(4). وورد عنه ﴿ﷺ﴾أنه قال: (إذا آخى الرجل الرجل فليسائله عن اسمه واسم أبيه وممن هو، فإنه أوصل للمودة)(5).

النهي عن التهاجر واتباع العورات:

قال ﴿ﷺ﴾(لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)(6). وقال: (وإياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً). ويروى: (ولا تنافسوا). وقال: (تفتح

---

(1) رواه الطبراني والسيوطى في الجامع الكبير.

(2) رواه أبو داود والترمذى.

(3) رواه الترمذي عن أبى سعيد.

(4) رواه أبو داود والترمذى.

(5) أخرجه البخاري والترمذى.

(6) رواه مالك والبخاري ومسلم عن أبي أيوب.

أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: (أنظروا هذين حتى يصطلحا)(1).

وروي عنه ﴿ﷺ﴾قال: (لا يحل الكذب إلا في ثلاث، كذب الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس)(2). وقال عليه الصلاة والسلام: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمن هجر فوق ثلاث ومات دخل النار)(3). وعنه ﴿ﷺ﴾قال: (من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه)(4). وقال ﴿ﷺ﴾(لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاثة فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم وخرج المسلم من الهجر)(5). وقال ﴿ﷺ﴾(من ضار ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه)(6).

عن أبي بكر الصديق ﵁ أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (ملعون من ضار مؤمنا أو مكر به)(7). عن ابن عمر أنه قال: (صعد رسول الله ﴿ﷺ﴾المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله

(1) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(2) رواه مسلم عن أم كلثوم.

(3) رواه أبو داود والنسائي.

(4) رواه أبو داود والبيهقي.

(5) رواه أبو داود.

(6) أخرجه الترمذي.

(7) رواه الترمذي عن أبي بكر الصديق.

عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله)(1). وعنه ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾قال: (إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق)(2). وعن أنس عن النبي ﴿ﷺ﴾قال: (من حمى مؤمنا من منافق يعيبه، بعث الله ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن قفا مسلما بشيء يريد شينه به، حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال)(3). وقال ﴿ﷺ﴾(حسن الظن بالله من حسن العبادة)(4).

الحذر والتأني في الأمور:

قال رسول الله ﴿ﷺ﴾(لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)(5). وقال لأشج عبد القيس: (إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة)(6). عن أنس ﵁ قال: (إن رجلا قال للنبي ﴿ﷺ﴾أوصني، فقال: (خذ الأمر بالتدبير فإن رأيت في عاقبته خيراً فأمضه، وإن خفت غيا فأمسك)(7). وقال ﴿صلى الله عليه وآله وسلم﴾(التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة)(8). وقال: (المجالس

(1) رواه أبو داود من حديث أبي برزة.

(2) رواه البارودي وابن منبه وأبو نعيم عن وهب.

(3) أخرجه البخاري وأبو داود والحاكم عن عقبة بن عامر.

(4) رواه أبو داود وابن حبان والترمذي والحاكم عن أبي هريرة.

(5) رواه الشيخان وأبو داود وابن ماجة.

(6) رواه الترمذي عن ابن عباس.

(7) رواه عبد الرازق وابن عدي عن أنس.

(8) رواه أبو داود والحاكم.

بالأمانة إلا ثلاثة، مجالس سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مال بغير حق).

وقال: (إن من أعظم الأمانة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم يفشي سرها) (1).

الرفق والحياء وحسن الخلق:

عن عائشة أن رسول الله ﴿ﷺ﴾قال: (إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه)(8). وقال لعائشة ﵂: (عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش، إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه)(1). وقال ﴿ﷺ﴾(من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الدنيا والآخرة)(2). وقال ﴿ﷺ﴾(إن الحياء من الإيمان)(2). وقال: (الحياء لا يأتي إلا

---

(1) رواه مسلم عن أبي سعيد.

(2) رواه البخاري ومسلم عن عمران بن حصين.

(2) رواه الشيخان

(3) رواه الشيخان وأبو اود

(4) رواه البخاري عن أبي مسعود

(5)رواه مسلم والترمذي عن النواس بن سمعان

(6) رواه أحمد وابن حبان

(7) رواه الترمذي

(8) رواه الترمذي عن ابن مسعود

(9) رواه الترمذي وابن ماجة من حديث ابن عمر

بخير)(2).ويروى: (الحياء خير كله)(3). وقال: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت)(4).

(وسئل رسول الله ﷺ عن البر، فقال: حسن الخلق، وعن الإثم، فقال: ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)(5). وقال: (إن من أحبكم إلى أحسنكم أخلاقا)(6). وقال: (إن من خياركم أحسنكم خلقا)(6). عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ(اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)(7). وقال ﷺ(ألا أخبركم بمن يحرم على النار، وبمن تحرم النار عليه، على كل هين لين قريب سهل)(8). عن ابن عمر عن رسول الله ﷺقال: (المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم)(9).

الشفاعة:

عن أنس أن النبي ﷺقال: (يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته، أسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شئ، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب وهي أكله من الشجرة وقد نهى، ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله إلى الأرض، فيأتون نوحا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب وهي سؤاله ربه بغير علم، ولكن ائتوا خليل الرحمن، قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناكم ويذكر ثلاث كذبات كذبهن، ولكن ائتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا، قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناكم ويذكر

خطيئته الذي أصاب وهي قتله النفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته، قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا مُحَّداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: فيأتوني فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع مُحَّد وقل يسمع وأشفع تشفع، وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربى بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأخرجهم من النار فأدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعدت ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع مُحَّد وقل يسمع واشفع تشفع، وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج فأدخلهم الجنة، ثم أعود الثالثة فاستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع مُحَّداً وقل يسمع واشفع تشفع، وسل تعطه، فأرفع رأسى فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرج، فأدخلهم الجنة، حتى ما يبقى في النار إلا من قد حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود)(1). ثم تلا هذه الآية: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾(2). قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﴿ﷺ﴾قال: (أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه)(3). عن عبد الله بن عمرو بن

(1) رواه مسلم والبخاري عن أنس.

(2) سورة الإسراء الآية 79.

(3) رواه البخاري عن أبي هريرة.

العاص: (أن النبي ﴿ﷺ﴾تلا قول الله تعالى في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي﴾(1). وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾(2). فرفع يديه فقال: (اللهم أمتي أمتي وبكى، فقال الله عز وجل: يا جبريل إذهب إلى مُحَّد فسله ما يبكيه- وربك أعلم- فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﴿ﷺ﴾بما قال، فقال الله لجبريل: إذهب إلى مُحَّد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤك)(3). عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (أن أناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﴿ﷺ﴾نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب، وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب؟، قالوا: لا يا رسول الله قال: ما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن ليتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم رب العالمين قال: فماذا تنتظرون؟ يتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم)(4). وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: فيقولون: (هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه). وفي رواية أبي سعيد رضي الله عنه: (فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا

(1) سورة إبراهيم الآية 36.

(2) سورة المائدة الآية 118.

(3) أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(4) رواه مسلم والبخاري.

يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم، حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة في الحق- وقد تبين لكم- من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا، كانوا يصومون معنا ويصلون معنا ويحجون معنا، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون: ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ارجعوا فما وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا، ثم يقولون: ارجعوا فما وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً، فيقول الله: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه).

خاتمة الكتاب

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك، أنك الأحد الصمد، المريد لما تشاء الفاعل المختار، لا شريك لك في الإيجاد والإمداد، تقيم من تشاء، فيما تشاء بسابق مشيئتك، وتكاشف من تشاء بما تشاء، بسابق إرادتك، أنت ذو الحول والطول، والنعمة والجلال والإكرام، وأشهدك اللهم على نفسي، وأشهد ملائكتك وأشهد حملة عرشك، أني على يقين أن ما وضعته في هذا الكتاب، إن كان نورا وهدى، فهو من روح قدسك وفتحك وإحسانك وإمدادك، فاجعله يا إلهي خالصاً لذاتك الأحدية نافعا نفعا عاماً، وإن كان فيه ما يخالف ذلك، فهو منى بالعجلة والسهو والنسيان، على أني أبرأ إليك يا إلهى، من حولى ومن قوتى، فأسألك يا كريم العفو أن تغفر لي ما سقط منى في عجلتي وسهوي ونسياني وخطئي، وأن تحفظ إخواني المسلمين من أن ينالهم مضرة بعملي أو قولى أو حالى، ووفق اللهم لما في هذا الكتاب من السهو والنسيان والغلط، رجالا مخلصين من أهل الخير يصححون ما تحرف منه، ويبينون ما خفى، ويفصلون ما أجمل، ويوضحون ما أبهم، إنك مجيب الدعاء.

اللهم أني أسألك مزيداً من العلم، وتوفيقاً للعمل، وأعذني يا إلهي من أن يكون العلم حجة عليَّ يوم لقائك، ومن أن يكون عملي مشوباً بما يجعله غير مقبول لديك يا رب العالمين.

اللهم لست أهلا لأن أنال فضلك، ولا محلا لأن أنال المعرفة بجنابك العلي، ولكنك يا رب إذا شئت أن تحيط الجمادات علما بك لأحطت، وإن شئت أن

تواجهها بعلي جمالك واجهتها، أو تتجلى لها بعظيم جلالك لتجليت لها، ولا تسئل عما تفعل بيدك الفضل، وأنت على كل شيء قدير.

أسألك بغناك المطلق عمن سواك، وباضطرار كل من سواك إلى عطاك، وبكمال الذات الأحدية المنزهة عن أن تحوم حول فناء عظمتها الأرواح المجردة العلية، أو تشرق على حجب عزتها وكبريائها النفوس الذكية، أن تمنحني يا إلهي فضلك العظيم في الدنيا بأكمل معانيه، وفي الآخرة بأجمل مجاليه، حتى أكون العبد المتصف بأكمل معاني العبودية لذاتك، المتجمل بأخلاقك الربانية، المتحلي بالحلل الطاهرة المحمدية، وامنحني الشوق ودوامه إلى ذاتك الأحدية، واجعلني يا إلهي شاكراً دائم الشكر، وأتبعني ذريتي بإحسان، وانفع بي في حياتي وبعد مماتي، واجعلني ممن سبقت لهم منك الحسنى حتى أنتقل من جمال فضلك في الدنيا إلى أجمل دار في الآخرة، وانفع أهلي وأولادي وإخواني، واحفظني واحفظهم يا ألله من التفرقة، ومن البدعة المضلة يا رب العالمين، وأعذني وأعذهم من مخالفة سنة حبيبك مُحَمَّد ﴿ﷺ﴾، ومن شر الأشرار، وكيد الفجار، وسوء الحال والمآل، وأسألك يا إلهي أن تتوفنا مسلمين، وتلحقنا بالصالحين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

الخويدم المسكين

مُحَمَّد ماضي أبو العزائم

الفهرس